المناهل



27

المناهل

تصدرها
وزارة الشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد السابع والعشرون
السنة العاشرة

شوال 1403
يوليوز 1983

تهنئة "المناهل" بعيد الشباب

يصدر هذا العدد السابع والعشرون من مجلة "المناهل" والمملكة المغربية فائضة في غمرة من البهجة والاغتباط والمسرات، احتفالا بعيد الشباب المجيد، وإعرابا عما يكنه جميع المغاربة من محبة وولاء واعتزاز وإكبار لعاهلهم العظيم.

وتغتنم أسرة "المناهل" فرصة حلول هذه الذكرى العزيزة عليهم، لترفع آيات التهاني والتبريك إلى قائد المغرب المجدد ومبدع أمجاده ومسيراته، صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني المؤيد المنصور بالله.

وإذ ترفع أسرة "المناهل" أسمى عواطف محبتها وولائها وتعلقها المكين بشخص جلالته، تتضرع إلى الله سبحانه أن يعيد عليه هذا العيد السعيد وعلى أسرته بأعظم المسرات، وأن يطيل عمره، ويقر عينه بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد وبصنوه الأمير المحبوب مولاي رشيد، وأخواتهما الأميرات الجليلات. وأن يحقق بما وهبه الله من عبقرية وحكمة وتوفيق ما يطمح إليه شعبه من واسع الآمال.

المناهل

فهرس

شعراء الملحون (*)

من أهل مكناس وزرهون

محمد الفاسي

إنني جد مبتهج بحضوري اليوم لهذه العاصمة ذات المجد التليد العلمي والأدبي وقد كانت لي معها لقاءات متنوعة قبل الاستقلال وبعده في مناسبات كثيرة. ولقاؤنا اليوم يتعلق بموضوع كان لمكناس فيه مقام مرموق. ألا وهو هذا التراث الشعبي الفريد الذي نطلق عليه اسم «الملحون» وليس هو مشتقا من اللحن بمعنى الخطأ في النحو أو اللغة كما يتصوره من لا يتعمقون في الأشياء وإلا فلا يعقل أن يسمي أحد إنتاجه الشعري بأن فيه أغلاطا وإنما يقصد بهذا اللفظ الشعر الذي يلحن ويغنى مقابل الشعر باللغة الفصحى الذي يقرأ ويلقى وإذا لحن فيكون ذلك عندنا في موسيقى الآلة.

(*) نص المحاضرة التي ألقاها الأستاذ محمد الفاسي، بمناسبة المنتدى الشعري الذي نظمته الرابطة الشعرية بمكناس يوم 9 / 3 / 1983.

هذا وإن مدينة مكناس من عواصم الملحون خصوصا بانتساب أحد كبار شعراء الملحون لهذه المدينة وأعني به سيدي قدور العلمي كما أن الفقيه العميري وهو من مكناس من الشعراء البارزين في تاريخ الملحون ونلاحظ من الآن أن عظمة سيدي قدور وشهرة الفقيه العميري غطيتا على ذكر الشعراء الآخرين حتى أنني ولو أحصيت منهم سبعة وعشرين من أهل مكناس فإن أكثرهم لم يصلنا من شعرهم إلا القليل وعسى أن يكون للتعريف بهم في هذه المحاضرة حافز للبحث عن إنتاجهم

ولا ندري هل كان بمكناس قبل سيدي قدور العلمي شعراء لأنني لم أقف على شيء من شعر الملحون قبل كلامه ولا شك أنه كما غطى على الشعراء من بعده كان لظهوره وشهرته أثر على ذهاب أخبار من قبله.

والكلام على سيدي قدور العلمي يتطلب زمنا طويلا لأنه نظم الكثير الجيد في جل أبواب الشعر وعاش عمرا مديدا حيث ولد سنة 1154 وتوفي سنة 1266 (1742 ـ 1850).

ونسبته العلمي تدل على أنه شريف من أحفاد مولاي عبد السلام بن مشيش دفين جبال العلم، وكان في أول حياته حائكا (درازا). ومن الملاحظ أن كثيرا من شعراء الملحون يشتغلون بمهنة الحياكة كان سير النزق في المنسج يوحي إليهم مع استعدادات أخرى إيقاع الميزان في أنفسهم وللميزان دور كبير في الملحون لأنه كما قدمت لا يكفي أن يكون للشخص خيال وامتلاك للألفاظ ليتقن نظم الشعر الملحون بل للجانب الموسيقي أي للتلحين والإيقاعات قيمة كبرى ثم إن سيدي قدور العلمي كان له إحساس مرهف نحو الجمال في كل مظاهر الوجود وكان

له ذوق رقيق حصل له من تكوينه الصوفي كل هذا يظهر في شعره. كما أنه من جهة أخرى كان يلاحظ سير الناس في معاملاتهم مع بعضهم ويتعمق في دراسة أحوالهم النفسية وقد أداه علمه بهذه الأحوال مع التجارب المرة التي مرت عليه في حياته إلى التشاؤم والاعتقاد أن لا خير في البشر ويتجلى ذلك بالخصوص في قصيدته التائية التي يقول في حربتها ،

اللعب من غير شطارة فوق روس حربات
هكذا ميزت ا بن آدم في عشرتـه

وكذلك في قصيدته الدار التي مطلعها ،

كيف ما ينكد قلبي من شفاية الناس
كيف ما نحزن يا بعدي على المراسم

وحربتها ،

واش ما عار عليكم يا رجال مكناس
مشات داري في حماكم يا أهل الكرايم

ويحكى أن هذه القصيدة بلغت أسماع أحد أدباء تافلالت هو الشريف سيدي محمد بن هاشم العلوي فقصد مدينة مكناس واشترى دارا لسيدي قدور العلمي وتتلمذ له وصار بعده من الشعراء المكناسيين البارزين.

ومع هذا التشاؤم والنظر بعين السخط للعالم فإن له قصائد حلوة جميلة لا تجعل الإنسان يفكر في شؤم الحياة بل تدعوه إلى الانشراح.

وقد كان لشعره إقبال كبير وجمع مرارا في دواوين خاصة مما لم يقع لأكثر من أربعة أو خمسة شعراء. فلذلك حفظ الشيء الكثير منه وقد أحصيت له سبعين قصيدة أكثرها عندي وست عشرة سرابة كلها عندي. وأحسن ما يبرز تنوع سجيته كما يقولون أن أعطيكم عناوين هذا الإنتاج الفريد مرتبة حسب حروف المعجم.

1) الإدريسية.

2) الإدريسية الكبرى.

3) أرفق يا مالكي بعبدك وتسمى كذلك **المحبوب الثاني.**

4) إلا هداك علي ربي وتسمى أيضا يا شريق الخد الذهبي.

5) أمن ضامه الزمان والوقت عليه احراج وتسمى كذلك الجوهرة.

6) أفدى اليسر وتسمى كذلك **فاطمة.**

7) الإسرائيلية.

8) أيامن برب الخلايق.

9) الباتول.

10) كف لومك يا لايم لا تلم حالي

11) باسم الفتاح الموجود رب الوجود وتسمى كذلك، **يا رسول الله غيثة يا إمام الارسال.**

12) التائية.

13) التلميذ وتسمى كذلك: **- ما من ضعيف الزاد على السلوع رسام.**

- زال تقليده من صلى خلاف الامام.

- الميمية.

14) التوسل ويسمى أيضا :- يالواحد بالصرخة عن ضيقة الحال.

15) الجافي.

16) الجمهور.

17) الجلانية الكبرى.

18) الجلانية الثانية.

19) الجوهرة وتسمى كذلك ؛ زاوگ في حرم النبي عمرك ما تلتام.

20) حالف بيمين.

21) حجوبة.

22) خديجة.

23) الـدار.

24) دار الضمانة.

25) دامي شـرادة.

26) ذا بل الأعيان.

27) رغبتكم رغبوا فيْ الله يا السادات.

28) رقية وتسمى المرسول.

29) الزضمة.

30) طالت بسيدي هذ الغيبة.

31) طامو وتسمى أيضا معلوم كيف ما دامت رخفة ما تدوم شدة.

32) طامو يا بهيج الخدادة.

33) طاهرة.

34) ظل نهاري سعيد يا فرحاتي.

35) كلثوم وطامو.

36) ما ازين وصولك.

37) المحبوب.

38) المحبوب الثاني.

39) المزيان الأول.

40) المزيان الثاني.

41) من صرخته بحماك قريبة.

42) المعراج وتسمى أيضا **يا رسول الله غيثة يا إيمام الارسال.**

43) المعشوق.

44) المشيشية الأولى.

45) المشيشية الثانية وتسمى **مولاي عبد السلام بن مشيش.**

46) مولاي أبو شتا الخمار .

47) مولاي عبد الله بن احمد.

48) مولاي عبد السلام.

49) ناقص البضاعة تالف ويسميها الأشياخ القيسارية.

50) الصايلة.

51) الصلاة والسلام على النبي المبرور عدادها خلق الله ميات ألف مرة وتسمى أيضا **الشافي**

52) الصلاة والسلام على النبي العدنان سيدنا محمد والرضى على انصاره

53) سيدي عبد الغني وتسمى أيضا **المرجومة - وراشدة.**

54) علاش يا القلب الغافل تخطا الصواب وتسمى أيضا **القلب.**

55) غيث الهمام بريح النصر.

56) غيثة يا نعم الهادي.
57) فاطمة وتسمى أفدي الأسير
أفدي الأسير ، بوصولك
يا طلعة البدر ، يــزاك
من الـتيـه والـنـقــر
58) الفرج.
59) فضيلة.
60) قامة العلم.
61) الساقي.
62) سعد القلب الهاني.
63) سيدنا ا براهيم الخليل.
64) سيدي أبو زكري.
65) سيدي علي بوغالب.
66) ورزيفة.
67) ورقة مولى الحب.
68) يا رسول الله يا مولى المقام العظيم.
69) يا المولى فرج كربي سريع نرتاح.
70) يا نور شعاع اثمادي.
وأما السرابات فهي ،
1) أدام الله محاسنك أبو خد شريق.
2) أمير الغرام جا بجنده غزار.
3) أنا الملسوع بالهوى قبل نصوم.

4) أنا الغريب من فقد أحبابي.
5) أسايل لا تسال وأنا ما زال في احكامه.
6) ذاك النهار نلقى عيطونة.
7) كان سبابي يا اهل الهوى نتسارى في عشية.
8) كم لي نرجاك يا ارماق الطرشون.
9) ما المليح قلل من وصوله.
10) عشق البها نزهة وإيفاذة.
11 ـ سعدي اسقام بشرى وهنية.
12) سعدي اسقام وازهات ايامي.
13) شمس الأوكار سعدي بطلوعي.
14 ـ هب نسيم الصباح خلخل الادواح والزهر فاح.
15 ـ يفرح إلى جاد له زمانه.
16 ـ يوم الجمعة عند الضحى كان حبيب القلب في مكانه.

وأنتم ترون أنه نظم في العشاقي وهو التغزل وفي الخمريات وفي القصص وفي الحكم وفي أخبار الأنبياء والأولياء وفي الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وفي غير ذلك من أبواب الشعر، ويتعجب البعض من وصفه للخمر وتبريزه في ذلك مع أنه من المشهود لهم بالولاية والصلاح والواقع أن هذا أمر معروف عند كل رجال التصوف الذين يعنون بالخمر ما يحصل لهم من الهيام والغيبوبة في ذات الله تعالى وخمرية ابن الفارض مشهورة وهي التي يقول فيها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامـه
سـكرنا بها من قبل أن يخلق الخـمـر

وقد كنت منذ ثلاث وأربعين سنة ترجمت الساقي لسيدي قدور إلى الفرنسية ونشرته في مجلة (Cahier du Sud) في عدد يبراير سنة 1940.

وكان لسيدي قدور العلمي بفضل نبوغه في هذا الفن وتفوقه فيه تأثير على حركة الملحون ليس فقط بمكناس وزرهون ولكن أيضا بكل مراكز الملحون في المغرب بالقصر الكبير وسلا وحتى بفاس ومراكش عاصمتي الملحون وقد اشرت سابقا إلى قصيدة الدار التي وصل خبرها إلى تافلالت وجعلت أحد أدبائها يرحل إلى مكناس ويقبل على تعاطي نظم قصائد الملحون حتى برع في ذلك.

وكان سيدي قدور من الصلحاء يتبرك به وكان السلطان مولاي عبد الرحمن من خاصة محبيه كما ذكر ذلك مولاي عبد الرحمن بن زيدان في كتابه اتحاف أعلام الناس (ج 5 ص. 336). وقال عنه الناصري في الاستقصا (ج 4 ص. 201) ، «وفي هذه السنة ـ يعني 1266 هـ ـ وذلك ليلة السادس والعشرين من رمضان توفي ولي الله أبو عبد الله سيدي عبد القادر العلمي البركة الشهير صاحب الأزجال الملحونة وكانت وفاته بمكناسة الزيتون ودفن بحومة سيدي أبي الطيب وعليه بناء حفيل إلى الغاية رحمه الله ورضي عنه». وقد ذكره أيضا صاحب سلوة الأنفاس (ج 2 ص 337 و ص. 363) ومن عادة مؤرخي المغرب أن يهملوا ذكر شعراء المغرب باستثناء من كان لهم حظ من أدب أو علم أو ولاية. وهذا ما جعل من ذكرنا من المؤرخين يهتمون بالكلام على سيدي قدور العلمي.

ولو أردنا أن نتكلم على كل إنتاجه لاحتجنا إلى وقت طويل وإنما نشير إلى بعض قصائده التي لها شهرة ذائعة مثل الإسرائيلية وقد نظمها في الإسلاميين الذين أصلهم من اليهود يقول في حربتها :

أهبيل من يامن في العشرة أولاد اليهـــود
كيف من خبّع فيْ شونه عقارب البيـد

ويقول فيها أيضا :

سمعنا من لسون ساداتي الاعــلام
كل ما في الزمان من فتنة وحـــروب
تصيب أصل اسـبـا بـهـا آل يـعـقـوب

وهي مبتورة الأخير في كل الكنانيش التي وقفت عليها. أما التائية في الحكم فقد تقدمت الإشارة إليها وكذلك الدار ومن أحلى قصائده وإن كان البعض ينسبها لتلميذه الواستري ولا أظن هذا واقعا لأن نفسها عال وهي قصيدة ذا بل الاعيان.

ومطلعها :

أيا ذا بل الاعيان   يا ا بو حجبين معرقة وزينة

يهديك ربنا روف على العاشــق يا غـزيـل بستانـــي

وحربتها :

دير معـــي الاحـــسان   واعن بي بك الكريم يعنـــي
وعلى الملاح يرفع شانك ربـــي إلا رفعت لـــي شـانـــي

ومن جملة أبياتها :

إلا نــاح الورشــان فوق اغصانه وشكى بكل محنة
نشكي بليعتي حتى أنا لله يا الزايد فمحانـــي
إذا ما حت الاغـصــان وعليها طير من الأطيار غنى
تهطل دموع عيني من وحش بهاك يا مكثــر هجرانـــي

وهذه القصيدة أول ما سمعت من شعر الملحون وأول ما كتبت منه في شهر أبريل سنة 1925 وأنا تلميذ بثانوية مولاي إدريس بفاس.

ومن جملة هذه القصائد غث الهمام بريح النصر يا القهار في مدح مولاي عبد الرحمن وتحتوي على نحو مائتي بيت. ومن روائعه المحبوب الأول والثاني وقامة العلم و دامي شرادة وورقة مولى الحب والمزيان الأول والثاني والفرج وسعد القلب الهاني والساقي المشار إليه سابقا.

وبالجملة فكلام هذا الشاعر الملهم كله من السهل الممتنع وقد كتب له الخلود ليس فقط بالمغرب ولكن لأهل الجزائر ولوع كبير به وهم يحفظونه ويذيعونه في مؤسساتهم السمعية والبصرية.

وقد كان لسيدي قدور العلمي تلاميذ نبغوا من بعده مثل الشريف سيدي محمد بن هاشم العلوي والشاعر الواستري ومحمد غريط وقاسم بن المير والحاج أحمد الدقيوق.

ومن أقطاب الملحون ممن له شهرة كبيرة في كل المغرب الفقيه العميري وأصله من بني عمير بتادلة كما يظهر من نسبته ولكنه من أبناء مدينة مكناس وكان معاصرا لسيدي قدور إلا أنه كان أصغر منه. وكان منطويا على نفسه يفضل العزلة على الاختلاط بالناس وكان

ينتقد المجتمع بشدة ويخاصم شعراء وقته بسبب وبدون سبب. وممن كان يريد مساجلتهم الحاج محمد النجار شيخ الأشياخ بفاس إلا أنه امتنع من ذلك وقال له أنت لا تزال أقل مني في مقام الشعر وأنا عمك الحاج. فقرر العميري أن يذهب للحج ولما رجع وهو حامل لقب الحاج ذهب إلى فاس ولكن محمد النجار أمر على عدم مساجلته ولما ألح عليه وأضجره ترك له مدينة فاس وقصد سلا فتبعه العميري حتى دخل للمحل الذي كان يفرح به كما يقال وكان النجار شرط على أهل الدار أن لا يدخل عليهم الشخص ذو الصفات الفلانية. فاحتال العميري بتبديل لباسه وتمكن من الدخول فلما رآه الحاج محمد النجار نزل الدف الذي كان بيديه فقيل له في ذلك، ففسر لهم أن السبب هو الشرط الذي اشترطه عليهم فأدخل أهل الدار العميري إلى بيت وخرج النجار ثم ذهب إلى مراكش. فلما بحث عنه العميري ولم يجده نظم قصيدة في هجاء أهل سلا.وقصد مراكش وبها تصالحا. قد أوردت هذه القصة لأنها تعطينا صورة عن طبع هذا الشاعر الذي له شخصية متميزة ولغة خاصة يكثر فيها من العبارات الشاذة ومن الألغاز وتضمين الأمثال العامية. كما تدلنا على الجو الذي يعيش فيه شعراء الملحون من المساجلات والمخاصمات والمهاجمات في كل عصر وفي كل بلد.

وسجية الفقيه العميري متنوعة ولكنه تخصص في القصائد الجفرية وهي التي تحتوي على التنبؤ بالمستقبل كما كان له باع طويل في الهجاء. وقد هجا حتى سيدي قدور العلمي. ولكنه كان رجلا مستقيما

ويحكى أنه كان عدلا بمدينة صفرو وكان يعطف عليه (أي يشهد معه) والد السي عبد السلام الزفري الشاعر القصري المعروف. فوقع أن الزفري المذكور كتب شهادة وقبض فيها أربعة أوجه ثم طلب من الفقيه العميري أن يعطف عليه ومد له وجهين وكانت الشهادة تقام بموزونة واحدة فتعجب العميري من ذلك وامتنع من الشهادة وسلم في الخطة كلها ورجع إلى مكناس ونظم قصيدة يهجو فيها الزفري يقول في حربتها :

أنا إلى عملت من طريق الصفريوي خيرة ٥ زرداب البكار ٥ إوَلّه دهري مداهني.

وقد نظم كثيرا في شتى المواضيع حتى أن أحد الحفاظة كان أيام مولاي الحسن الأول يسمى الشيخ هدى الروحي حكى للشيخ الكحيل رحمهم الله وعنه رويت أنه كان يحفظ للفقيه العميري سبعة من قصائد الحراز نونية وكان يحب استعمال النون في قوافيه.

وقد أحصيت له سبعا وخمسين قصيدة عندي أكثرها، وإليكم قائمة هذه القصائد :

يا أهل سلا

أحسا ين قام وبقال لها الزطام.

الإدريسية الأولى.

الإدريسية الثانية.

أرض الله هزي يا الي ما عنده بلاد ونقول بلادي. على الجمل جا جدك مرفود.

الألفية.

أنا الى عملت من طريق الصفريوي خيرة.

الباتول

البحر العجاج.

البوزكرية.

بين العراصي ويقال لها العربطة.

التائية الأُولى.

التائية الثانية.

التائية الثالثة.

تسبيح النجوش ويقال لها اللطيف.

التوسل.

الحراز الأُول.

الحراز الثاني.

الحراز الثالث.

الدامي.

ذلك فضل الله

الرائية.

الربيعية.

الروقبه ويقال لها القافية.

الزازية.

زهرا الأُولى.

زهرا الثانية.

الطاطية.

اللامية الجفرية.

اللامية العشاقية.

مـريـم.

مولاي عبد الرحمن

الميمية الأولى وتسمى كرامة.

الميمية الثانية وتسمى اللامة.

النونية الأولى.

النونية الثانية.

النونية الثالثة وتسمى غير نشوف الزين.

صليوا على الهادي.

الضادية وتسمى بياضة.

علمي موهب.

غرايب مغرّبة.

الـغـلـب.

فاطنة وتسمى حمام الحرة.

فتنة كروان أيام مولاي سليمان.

الفراق.

القـاضـي.

القصرية وهي جفرية ويقال لها يا الي وين أنا ما جاب لي خبر.

السطرنجية.

سيدي علي بن حمدوش.

سيدي قاسم أبو عسرية.

شبيهة عطوش.

الشرشـــة.
الشمعـــة.
اليائية الأولى جفرية.
اليائية الثانية جفرية.
يامنة.
يطــوا.

ومن أحلى قصائده العشاقية «بين العراصي» وحربتها : بين العراصي ٥ مدى ايام دوزناها بالكاس ٥ ما يدوم إلا ربي ما تدوم الموانسة.

ومنها قصيدة الغلب وحربتها :

على من راك يا البهجة الحمرا وانتين صبية
وعلى من راك يا الريح الفيضة في طفحة الشباب

وتعتبر ضائعة إلا أن يكون لأحد رجال الملحون هنا علم بها

ومنها قصيدة غير نشوف الزين وحربتها :

غير نشوف الزين ٥ نتفاقم بالنظرة الفانية
ما يعمل لي وين ٥ ولا يقصد من دوني

ومنها قصيدة فاطنة وحربتها :

في الشعبة الحمرا قيلوا ناسك يا الغزال فاطنة
وانا عقلي معك حاضر ٥ يمشي ويجي معك ٥ والسكنى في مكناس

ولا يعرف تاريخ وفاته بالضبط ولا شك أنه أدرك عصر سيدي محمد بن عبد الرحمن.

ومن تلاميذ سيدي قدور العلمي الذين نبغوا في الملحون الشريف سيدي محمد بن هاشم العلوي الذي أشرت إليه بمناسبة قصيدة الدار لسيدي قدور وقد كان من فقهاء تافلالت وأدبائها واستوطن مدينة مكناس ولازم سيدي قدور العلمي وقد ترجم له مولاي عبد الرحمن بن زيدان في تاريخه أتحاف أعلام الناس (ج 4 ص. 255 ـ 256) وقال عنه فقيه بركة عفيف منيف أستاذ فاضل جليل، صاحب الولي الكامل سيدي عبد القادر الشريف العلمي وانتفع به واغترف من بحر معارفه. حدث عنه أبو عبد الله محمد التاودي السقاط الفاسي في رحلته الموسومة يا منح الوهيبة الوهبية في الرحلة الحجازية. 2).

ومع هذا التنويه لم يشر إلى أنه كان ينظم قصائد الملحون، فلو لم يكن فقيها وتلميذا للولي الصالح سيدي قدور لما ترجم له وبفضل هذه الترجمة نعلم تاريخ وفاته وهو ثالث وعشرين قعدة الحرام عام 1285 هـ. ودفن بضريح سيدي الحاج القدوة بمكناس وكان يقال له بابا ابن هاشم رحمه الله.

أما قصائده التي بلغني خبرها وعندي أكثرها فهي ما يذكر:

1 ـ اللهم صل على الرسول التقي.

2 ـ أم الغيث.

3 ـ بارت حيلى.

4 ـ الجلالية.

5 ـ جمهور البنات.

6 ـ رحمة.

7 ـ الزين الأبله مثيل حازه فاس البالي.

8 ـ زينة الضفرة ويقال لها العذرا.
9 ـ طاموا.
10 ـ طاهرة.
11 ـ كنزة.
12 ـ المحبوب.
13 ـ المرحول وتسمى يا الي قبلتوا لمدينة الرسول.
14 ـ المشيشية الأولى.
15 ـ المشيشية الثانية.
16 ـ صلى الله على شفيعنا بلقاسم.
17 ـ الصلاة والسلام على شفيع الأمات.
18 ـ صليوا على المختار وأزواجه.
19 ـ صليوا على المرسال.
20 ـ الضادية في الهجاء.
21 ـ العلمية (وله ست قصائد في شيخه سيدى قدور العلمى).
22 ـ العلمية.
23 ـ العلمية.
24 ـ العلمية.
25 ـ العلمية.
26 ـ العلمية.
27 ـ عويشة.
28 ـ الغزال المياس.
29 ـ فاطمة.

30 ـ فطومة.

31 ـ الساقي.

32 ـ الواوية في الهجاء.

33 ـ الورشان ويقال له أم كلثوم.

ويظهر من هذه القائمة أن أكثر كلامه في التغزل حتى أن أكثر من عشر قصائد تحمل أسماء غانيات. وله قصيدة رائعة في وصف جمال مدينة فاس ومدح محاسنها يقول في حربتها :

الزين الإيله مثل حازه فاس البالي ٥ والسر المكمول صالت به مدينة الحضر ٥ والمولى اصطفاها

وله كذلك عدة قصائد في الهجاء وهذا فن من القول لا يخلو منه كلام شاعر من شعراء الملحون باستثناء سيدي قدور العلمي والسي التهامي المدغري.

وكان لسيدي محمد بن هاشم هذا ولد اسمه أيضا محمد وكان أيضا ينظم الشعر الملحون وكان أيضا من العلماء لذلك ترجم له ابن زيدان في أتحافه وقال عنه : «له اليد الطولى في نسج الأزجال الملحونة على أبدع منوال وأحسن أسلوب» (ج 4 ص 281).

وإنني لم أسمع قط بهذا الشاعر من جهة أشياخ الملحون وقد خالطت منهم الكثيرين بمكناس كالشيخ العربي الزهروي وابن عيسى السلال والشيخ برطال وغيرهم ولعله التبس على مؤلف الأتحاف بوالده خصوصا وأن الصفات التي أضفاها على ولده من حيث نظمه للشعر الملحون هي أنسب بتلميذ سيدي قدور مع أنه في ترجمته لم يشر إلى شيء من ذلك.

ومن تلاميذ سيدي قدور الفقيه الأديب الطيب بن عبد السلام الواستري ولم يبق من كلامه إلا القليل مثل القصيدة التي حربتها :

أنا في عارك أسلطاني توفي زيارتي ٥ وتوافيني يا عنايتي يا من طاعوا لك بالقهر البنات.

وهي عندي.

كما له قصيدة سيدي محمد وحربتها :

روح ذاتي في جمالك يا ضيا اعياني ٥ يا بدر الزين والبها والطيبة ٥ رف يا سيدي محمد.

وقد ذكره ابن زيدان في أتحافه وقال عنه أن أصله من تادلة وأنه كانت له وجاهة عند مولاي عبد الرحمن «وكان ينظم الأزجال الملحونة وله اليد الطولى في جيد النظم».

توفي على ما ذكره ابن زيدان في أواسط القرن الثالث عشر رحمه الله.

وقد قدمنا أنه تنسب له قصيدة ذابل الاعيان المعروفة لشيخه سيدي قدور ويزيد الشيخ الكحيل رحمه الله وهو ممن أخذت عنه الشيء الكثير من أخبار أشياخ الملحون أن قصيدة رافه يا سلامي (مولاي عبد السلام) هي كذلك له ويؤيده الشيخ ابن عيسى الدراز ويزيد أن ارفق يا ملكي بعبدك هي كذلك للواستري.

ومن شعراء مكناس الذين لم يبق شيء من كلامهم الشيخ ابن عيسى الزاواق كان في أيام سيدي محمد بن عبد الرحمن، وكان بفندق الأعواد. وكان ينظم في سائر أنواع الشعر الغنائي المسمى عندهم العشاقي. رويت خبره عن الشيخ برطال بمكناس في سنة 1945.

ومن تلامذة سيدي قدور العلمي الشيخ العربي المكناسي نزح إلى تلمسان وعاش مدة بها ثم رجع إلى وطنه وكان ينظم بالخصوص في المدح والمقصود به عندهم قصائد الصلاة والوصايا والحكم وقصص الأنبياء والأولياء إلى نحو هذه المواضيع ولكنه نظم أيضا في العشاقي وأشهر ما يعرف له قصيدة الوصاية وحربتها :

البلا في الخلطة والربح في الاعتزال ٥ من تديره صاحب يوريك سم قاتل

وكان له كما أخبر هو عن نفسه للسي محمد الوقايدي وهو من الرواة العديدين الذين أخذت عنهم أخبار رجال الملحون. أنه كان له اثنان وعشرون حفاظا ومع ذلك لم يبق تقريبا شيء من كلامه على ما بلغ إليه علمي. وقد توفي مسنا بالعرائش أيام مولاي يوسف.

ومن تلامذة سيدي قدور العلمي وهم كثرة الشيخ السي الهادي الحميدي وقد تأخر إلى أيام مولاي الحسن الأول وكان رجلا كريما عندما يأتي الأشياخ من فاس يقتبلهم ويكرمهم وقد نوه به شيخ أشياخ وقته بفاس الحاج ادريس الحنش في ذكراته.

ولم أقف على شيء من شعره.

ومن الشعراء المكناسيين القدماء الذين أدركوا عصرنا الشيخ محمد بن التهامي حيميش وقد أخبرني عنه الشيخ العربي الزهروي سنة 1949 وأنه كان عمره إذاك الثمانين. وكان كثير الانعزال وفي أول عمره كان كاتب الضبط بمحكمة قاضي مكناس وفي آخر عمره كاتبا للمحتسب بها.

ولا يعرف من كلامه تقريبا شيء وعندي منه قصيدة واحدة اسمها لالة حليمة. وكان ينظم في العشاقي وفي الكلام الحسبي ويعنون به «رجوع الشيخ إلى صباه».

ومن شعراء مكناس الشيخ أحمد ولد ماما وكان جزارا أيام مولاي الحسن الأول وتأخر إلى أيام محمد الخامس حيث توفي حوالي سنة 1932 وأصله من تافلالت ككثير من شعراء الملحون في المغرب مثل المغراوي والمصمودي والشيخ الجلالي مثيرد وابن علي والحبابي والفلوس وغيرهم. وكان لا ينظم إلا في المدح وخصوصا في الذكر العيسوي وكان عيسوي الطريقة وهو شيخ العربي الزهروي. ومن كلامه قصيدة «مولاي عبد الله بن احمد وحربتها :

مولاي عبد الله بن أحمد ٥ قعد حملي يا القُوط داوِ ما بيَّ.

ومن كلامه أيضا :

صليوا على مولى القضيب طه نور اهدا بي

ولا أعرف له غير هاتين الحربتين.

ومن هؤلاء الشعراء الشيخ ابن عيسى الحداد. كان ينظم في العشاقي وفي المدح توفي مسنا حوالي سنة 1936 وكان ينظم أيضا في الذكر. ومن تلامذته الشيخ العربي الزهروي المذكور مرارا في هذا البحث ويحفظ بعض كلامه كالغيثية التي حربتها :

يا مولى الملك الراحم ارحم جميع العباد يا كريم الكرام.

(في قياس ناقص البضاعة) (وهي في كناشة الكبير) وله جمهور أولياء مكناس وحربته :

أضيف الله لله يا الشيخ الكامل ٥ بحر الكمال مولاي الهادي ٥
أسيدي ا بن عيسى غثنا يا هيبة مكناس.
(قياس الد يجور) كان تجادل مع الحاج ادريس الحنش وقال له :
سلم للرجال يا الي راد راد ينسقى من مدامنا.
فأجا به ا بن عيسى :
أ الداعي سلم، لا تدخل في أسواق الي ما في طرقتك.

فلما ذهب لفاس طلب منه الحاج ادريس أن يطلعه على ما قال فيه فامتنع وتخاصما وتداعيا وفي الختام حكم على ا بن عيسى أن يجعل القصيدة في رداء الحاج ادريس فلما جعلها فيه سردها بدون الاطلاع عليها وهذا من أعجب ما يحكى عنه. ثم قال له : «أنا لا أهجوك لأنك لست من أقراني وإنما أدعو عليك بأن يبسل الله كلامك ما بين الأشياخ». فكان كذلك فلذاك ليس على كلامه طلاوة.

وكان الشيخ ا بن.عيسى هذا يسرد المعراج كما كان يفعل ذلك قبله شيخه الشيخ الطيبي ا بن محمد الطراف الذي كان بباب الجد يد وكان يسرد بمسيد المحتسب بقبة السوق قبالة فندق المولوعين. فأراد مرة أن يسرد ذلك في الجامع الكبير وكان قاضي المد ينة إذاك حاضرا وهو الشريف ا بن أحمد العلوي في قضائه الأول بمكناس في أوائل نصر سيدي محمد بن يوسف فلما سمعه لاحظ أنه يحرف في ذلك فمنعه منه فاندثرت تلك السنة حتى أحياها الشيخ العربي بعدما وافقه على ذلك القاضي المذكور في قضائه الثاني وبدأ يسرد المعراج صبيحة عيد المولد بزاوية سيدي الحارثي بحومة براكة وذلك سنة 1361.

وقد كف بصر الشيخ ابن عيسى في آخر عمره، وكان مقدم طائفة عيسوية وقد خلفه ولده سنة 1945، وله قصيدة في مدح سيدي أبو زكري توجد في الكناش الكبير عند الشيخ العربي ، وحربتها ،

العطفة لله غثنا ٥ سيدي ابو زكري عنايتي ضامن مكناس.

(7 ـ 11 قياس خاص).

وكان عيسوي الطريقة وكان مقدما وأصله من عرب مختار ببني حسن.

ابـن عـيـسـى السـلال

شاعر مكناسي وكان كفيفا وينظم في العشاقي وتوفي سنة 1938 وكان يلقب كينيس، (عن الشيخ برطال بمكناس الاثنين 18 محرم ـ 24 دجمبير ـ 1365 هـ ـ 1945 م) وله المطبوع (الطابع) يبحث عنه في حومات مكناس في قياس سوسي مزلوكة وله فراجة الهديم في انتقاد إقبال أهل مكناس على راقصة يهودية أولع بها كثيرا شباب مكناس وكهوله حوالي سنة 1931. وقد كان لقصيدته أثر وعدلوا عن ذلك. وهي في قياس زهرا للفقيه العميري.

الحاج العيسوي السقاط

كان مقدما في قبة الشيخ الكامل بمكناس أيام مولاي عبد العزيز وتوفي في أيام مولاي عبد الحفيظ وكان لا ينظم إلا في المدح وخصوصا في الذكر العيسوي. فمن ذلك الإدريسية وحربتها ،

فيه الكفاية.. وخليق به أن يرضى بالمنحة الثمينة دون طمع في المزيد.. وليس سهلا ولا هينا أن يكون له الحق في أن ينام داخل العائلة الفاسية ما بين الأخوال والأعمام ـ الخؤولة والعمومة بمعناهما العام ـ وأن يكون في شجرتها غصنا يملك كل الإمكانيات لاحتلال جزء منها رغم أنه عاطل تماما إلا عن يابس الأوراق.. وما هو بالشيء القليل أن ينضم إلى حاشية السلطان المولى إدريس.. وأن تغلق عليهما نفس الأبواب.. وتحيطهما ذات الأسوار.. الانتماء إلى فاس هو حد ذاته ثروة.. ـ هكذا كان منقار يعتقد ـ ثروة كبرت عن أن تلمسها اليد فاستقرت في القلب.. كل الثروات يمكن نقلها أو استهلاكها.. وكلها مهددة بالزوال والوقوع بين احتمالي الزيادة والخسارة.. إلا تلك الثروة.. فهي تاريخ وتراث اتحدا بالذات.. قضي الأمر وحازت فضيلة الخلود..

كان (منقار) خفيف اللحم ناتئ العظام، لا سيما عظام الوجنتين والكتفين، يبدو من لحمه الجاف أن جسمه قد استهلك كل احتياطي في مخازن التموين الكامنة فيه.. لا سيما في المناطق التي تغدق عليها الطبيعة عادة بضعة أرطال من اللحم.. كالوركين وألياف البطن.. فصار مصدر التغذية عنده هو السوق فقط.. بعد عجز الجسد عن توليد الطاقة وتجديدها.. فقر آخر أضيف إلى ضيق ذات اليد.. فتكون من الإثنين أداتان قاطعتان تنهشان فيه بدون انقطاع.. أبرز ما فيه أنفه.. منقاره.. شق الجلد ليندفع إلى الأمام بوقاحة.. على شكل مثلث حاد الزاوية.. كأنه مؤشر ساعة شمسية.. أو كأنه رأس هرم في وضع مائل.. احتل من الوجه مساحة واسعة وتقدمه أكثر مما ينبغي جامعا كل وقاحته في أرنبته المدببة الحادة الرأس.. القريبة جدا من ملتقى الاصطدام بالمارة في

الطريق العام.. أكيد أنها تنتصب في مواجهة عينيه عندما تنحدر نظراتهما قليلا.. كأنها النقطة الوسطى بين خطين متقاطعين يبدوان من خلال العين الزجاجية في بندقية قناص.. الأنف يشكل اعتداء صارخا على بقية ملامح الوجه.. توسعا في الموقع.. واستئثارا بالبروز.. ورغبة أكيدة في الهيمنة.. لا تتجه العين نحوها إلا بعد أن يكون هو قد زهد في النظرات لطول إمساكه بها.. فلم تتحول عنه إلا بعد أن اشبعت غروره وقضى منها كل حاجة.. يخيل إليك لطول قامته ونتوئه المحطم لكل رقم قياسي أنه قابل للانكسار الكامل لو وجهت إليه لكمة قوية.. إذ هو في وضع يمكن القبضة من إصابة هدفها بإحكام.. دون احتمال ألا تصيبه أو تنزلق عنه.. شأن المطرقة إذ تدق على رأس مسمار غليظ بارز مستقيم القامة.. لا يجد الشمم مقعدا يجلس عليه أرفع من هذا الأنف.. الشمم فوقه يكون مرئيا لا يحتاج إلى من يدل عليه.. لأنه يدل على نفسه.. وبطريقة استعراضية إعلامية.. هو علامة صارخة.. كالخرطوم للفيل.. واللبدة للأسد.. والسنام للجمل.. والعرف للديك.. والريش الطويل الملون للطاووس.. لو تعرض (منقار) للاعتقال يوما، لربما خطر لمعتقليه أن يقبضوا عليه من أنفه.. فاليد إذ تمسك به لا شك أنها تكون في وضع مناسب يعطيها مزيدا من الثقة.. تحس بالامتلاء وفائض من الاقتدار والتمكن.. هذا الأنف ذو قرابة عائلية بمناقير اللقاليق.. قد يكون تصميمه جرى للقلاق فوضع خطأ في وجه إنسان.. يتهيأ لك عند ما تراه أن أرنبته ستنفتح بين لحظة وأخرى لالتقاط الحب واصطياد العصافير.. لا شك أنه كان إبان الطفولة في حجم أنف شاب.. أسرع به النمو زيادة على المعتاد حتى أخل بالتوازن لحسابه الخاص.. فما وصل إلى طور

الرجولة الا وهو تضخم كاريكاتوري من عمل الطبيعة.. عندما تواجه (منقار) عن قرب يتقدم أنفه ليزحم مسافة ما بين وجهه ووجهك.. تحس أنفك أنت يتضاءل ويتلاشى كعصفور جلس في مواجهة نسر.. كحصاة يطل عليها حجر ضخم حاد الطرف.. لو جدع هذا الأنف لانفتح في وجه منقار أخدود طويل، كأنه المغارة تستهوي ضال الخطاطيف للمبيت.. ولبرز موضعه وكأنما كان يتسع لأسرة من الأنوف.. لو تحسسته في الظلام صدفة لسحبت يدك خائفا وبسرعة.. ابسط ظنونك أن يدك قد لمست شيئا غير عادي محتمل الضرر.. شيء في أنف (منقار) يشعر بالفضول وتجاوز الحد المقسوم وكذا بالتحدي والتطاول والكبرياء والبدء بالعدوان.. انه استفزاز وكفى.. استفزاز لا دخل لصاحبنا فيه.. يقع خارج إرادته بعيدا عنها.. ولو أراد منعه ورده إلى شيء من تواضع ما استطاع. تذكر استفزاز الموج للشاطيء.. واستفزاز السكين لقطع اللحم.. واستفزاز القبضة القوية للعين المتوجسة شرا.. واستفزاز منظر المسدس ليد تخاف من ارتكاب جريمة قتل أتخيل (منقار) زوجا لامرأة شرسة.. غالبا ما يكون أنفه مرشحا للعقاب عندما تغضب ويحتقن فيها الانفعال .. ستضربه على أنفه لكونه المركز الأشد شعورا بالإهانة.. نظرا لغروره وترفعه وادعائه الضمني أنه سيد الأنوف ومثلها الأعلى في الرسوخ والطموح والثقة بالنفس.. حتى لكأن الخلاف حاصل بين الزوجة والأنف فقط.. أما (منقار) فمسكين لا يستحق الخصومة.. وعندما تتلخص شخصية إنسان في أنفه، يكون الأنف العتيد مركز اتصال رئيسي بينه وبين الناس.. أول ما تقع عينك على (منقار) يمسك بها الأنف.. يرفعها فوق متنه الحاد المسرف الطول، وينحدر بها

إلى الطرف القائم الزاوية.. خاطفا إياها مرة أخرى عودا على بدء.. اقتدار عجيب من الأنف على تأكيد الذات وجلب الانتباه.. مع عدم الاهتمام بما يثيره في الرائين من مشاعر متباينة.. من إعجاب بصنع الله إلى امتعاض من الشذوذ.. سيان عنده أن ترى فيه إحدى فلتات الطبيعة أو أحد أخطائها العديدة.. هو مطل على جميع الاعتبارات من فوق أرنبته الشائكة الطرف.. عندما يشتد البرد يمر الأنف بموسم التضخم الإضافي.. يلبس فوق حجمه الطبيعي حجما آخر.. يقرصه البرد وتلطمه الريح وتعضه لسعات القر الهابط إلى ما دون الصفر، فينتفخ ويتورم، ويدخل دورة أخرى من دورات تضخمه المتعجرف.. وحينئذ يبدو شديد الاحمرار، ضاربا إلى زرقة خفيفة.. الأزرق والأحمر قد اتخذا منه مجالا للصراع.. وقد يؤول أمرهما إلى حسن التفاهم فيخطان على أرضه حدودا مؤقتة.. هي هدنة فقط قبل استئناف التداخل والتخارج بينهما.. لا يشبهه حينئذ إلا عرف الديك لدى إحساسه بالشبق الجنسي..

من تحت الأنف ودون كبريائه مباشرة، انشق الجلد بحذر شديد عن فتحة رقيقة الطرفين، عندما يلتقيان تخالهما قد التحما مع ترك خط دقيق أثرا لانفراجهما السابق.. هذه الفتحة المستطيلة هي فم (منقار).. فم دون شفتين.. لا ينفتح إلى أعلى وأسفل.. أو إلى أحدهما.. ليس له رصيفان متقابلان يمكن للسان أن يتحسسهما في لحظات خروجه قصد جولة خاطفة.. محروم من امتداد خارجي يعطيه دورا إضافيا علاوة على استقبال الطعام وابتلاع الهواء.. لا يمكنه مزاولة التقبيل بكفاءة مثلا.. إذا نحن أعطينا للتقبيل معناه الصحيح.. أي وضع شفتين موضع التحسس من

البشرة.. ثم ضمهما أثناء ذلك لدرجة انسداد مجرى الهواء بينهما لتنفرجا بعد حين محدثتين صوتا انفجاريا.. يمكنه أن يقبل، لكن بطريقة رديئة غير تامة المواصفات.. لأنه عاجز عن الإمساك بشيء.. وليس له بصمات.. ممصوص نحو الداخل كأنه معتمد على فراغ.. ربما كان مفتوحا على الداخل أكثر مما هو مفتوح على الخارج.. حين يكون الخارج هو الأهم.. بحكم وظائفه النفعية والجمالية.. إن فما كهذا يعتبر إهانة للأنف المشمخر.. كان يليق به أن ينتهي بفم عتيد خليق بشارب كثيف.. وتمتد على ضفتيه شفتان ممتلئتان ناضجتان.. تعبران عن كفاءة في جميع الوظائف.. لكن هذا لم يحدث، فجاء الفم انحطاطا في هندسة الوجه.. ونقطة ضعف في تصميمه العام.. اصعد إلى ما فوق الأنف تواجه بعينين ضيقتين ثاقبتين.. نظراتهما شائكة.. واخزة.. سهمية.. ملحاح.. تلتقط العيون المواجهة لها بملقاط مسنن.. كأنها تهم باقتلاعها من المحاجر اقتلاع الحلزون من تجاويفه.. أتاكل العين أعينا من جنسها ؟ إن من النظرات ما يحمل معنى الافتراس.. أو الامتصاص.. أو الازدراد الكامل. عينا (منقار) قويتان، ذكيتان، عامرتان بالمعاني، مصوبتان غالبا.. التصويب فيهما حالة طبيعية.. تشكلان مع أنفه مدفعا ذا عروتين على أهبة إطلاق القذيفة بأقل إثارة محتملة.. وينتهي الوجه إلى أسفل بذقن ذات زاويتين قائمتين كأنها حديدة فاس.. استطالت الذقن وانتشر فيها شعر خفيف كبقايا العشب في رأس أصلع مر بعملية مسح شبه كامل.. لو استلقى صاحبنا على ظهره لظنتها قطة كرسيا فهمت بوثبة للجلوس فوقه..عوض أن تستدير حول أسفل الوجه مع نتوءخفيف كالأذقان العادية نزلت أكثر من المفروض،وجعلت طريق ما بين

العارضين كالطريق ما بين البحر الأبيض والبحر الأحمر كان لا بد أن يمر جنوبا حول الرجاء الصالح.. مساحة زائدة ربما لا لزوم لها.. كفصل في رواية جاء عقب انتهاء كل الأحداث.. وحل جميع العقد.. وفشل البطل أو نجاحه.. قد يكون للطبيعة في ذلك ذوق.. فهي عندما أخذت الأنف من فتحتيه فجرته إلى أسفل حتى هددت المساحة المخصصة للفم بالخطر.. وأدخلت أصبعها في تجويفه فمددت الأرنبة ضاغطة الألياف متوغلة لحد النتوء الكامل.. ارتأت أن تعطي لهذا الكائن ـ الأنف ـ بعدا مناسبا إلى الجنوب.. فمددت الذقن طويلا مراعاة للتناسب.. وإلى الجنوب بالتحديد، لكونه الجهة المتضايقة أصلا من انحدار الأنف نحوها بأسلوب جارف..

من فم منقار المشقوق في جلد يابس يصدر صوت هادر.. مارا عبر حنجرة حادة الذبذبات.. كان في لحمها مكبر صوت دقيق الحساسية.. من الأصوات ذات الصدى والعمق والسعة.. عندما يحتد يكون في قوة انفجارات متوالية.. يشق المكان بالطول والعرض قارعا طبلة الأذن مخترقا بعيد الزوايا ممتلكا مساحة نائية الأطراف.. يقوم فيها بعملية تطويق شاملة.. لو وظف في سوق للمزايدة العلنية لاسمع من به صمم.. ولو شق إليه السوق من أقصاه إلى أقصاه.. يختزن فيه منقار قوة رهيبة عاتية.. عندما يفرج عنها فتنطلق تتوقع أن ينشق لها صدره الضامر البارز العظام.إنه سيف بتار يسكن غمدا رقيقا ضعيف الاحتمال.. أكيد أنه ينجرح أثناء كل حركة تمزقه انسحابا أو انغمادا.. نار متأججة تحت معدن مرهف سريع الانصهار.. حمم جوفية تشق أرضا لم تحصنها الطبيعة

بأضلاع قوية.. كيف يصخب الموج في زجاجة.. ويقصف الرعد في قفص.. وتهدر مظاهره في حنجرة.. ويدوي مدفع في فم..؟ يضع سره في أضعف خلقه.. صوت (منقار) يتقدمه غالبا.. يحجز له موضعا قبل وصوله.. يكيف له الجو إعدادا لحضوره الشخصي موجاته ما بين قصيرة ومتوسطة وطويلة.. يمكن التقاطها ولو من مسافة بعيدة.. خالية من أي تشويش.. واضحة وقوية كأن الأذن موضوعة منها قريبا من جهاز الإرسال.. كل بث يزاحمها تغمره وتطويه.. هذا إلى تمكن (منقار) من نحو اللغة اليومية وبلاغتها وتوابلها ومخللاتها.. تشربها واجترها ولاكها وتمضمض بها وتجرعها وشغف بها وعرفها أداة شتم وأداة غزل.. وملأ بها الفارغ وأفرغ بواسطتها العامر.. وعض فيها على حلوى وابتلع فيها إبر الشوك.. تذوقها صلبة ومائعة، قبيحة ورائعة، عفة وفاجرة، مومنة وكافرة.. خاشن بها وآنس، وهاجم ولامس، صبها من فمه نارا، وصبها فحشا وعارا نشرها نشر الفضائح، وساقها مساق المدائح..

(منقار) عاش حياته بين الأبواب.. باب يلفظه وباب يستقبله.. ريثما يأخذ الثاني دور الأول.. دون حد لتبادل الأدوار بينهما.. خلال البابين أو الأبواب تتفرع دروب.. وتنشق أزقة.. لا أدري ماذا كان يعمل فيها صاحبنا إن أغلقت في وجهه جميع الأبواب.. ولو أن هذا الافتراض بعيد الاحتمال.. فالأبواب لا تغلق كلها في آن واحد.. وكيف والطريق إلى الله مفتوح دائما.. وليس بين الإنسان وربه حاجز.. ولو سدت جميع المنافذ والسبل لظل هذا الطريق وحده مدرجا للسالكين.. هذا إلى أن الرجل كالطائر الميمون.. ولا بد أن يجد له عشا يؤويه حتى عند اشتداد العواصف ودوي القواصف.. واحد من تلك الأبواب استأثر

بـه أطـول فتـرة ممكنـة. وحـق لـه أن يتخـذ منـه مـادة فخـر.. هـو بـاب كبيـر، تضاءلـت بجانبـه كـل أبـواب الحـي.. اتسـع حتى لتظنه لا يرفض أحدا.. وارتفع حتى لتحسبه سدا منيعا يقف في مواجهة الجميع.. له مصراعان جباران، إذا انفصلا خلتهما سيصران على عدم الاتصال.. وإذا اتصلا قام عندك أنهما سيرفضان أي انفصال.. خشب صلب عتيق ثقيل الأضلاع، لعله منتزع من شجرة معمرة طالما استراحت تحت ظلالها جموع القبائل خارج باب عجيسة.. انهارت بعد قيام الدهر.. ومرت عبر أسنان المنشار، واندفعت في لحمها المسامير، وجرى فوق أديمها ما يكشط الجلد ويأكل اللحم ويتلف الألياف، وأخيرا وظفت في أحقر مهنة عرفها تاريخ الشجر .. حراسة منزل.. ولتكون الحراسة أقوى كفاءة ألبس الخشب درعا من حديد.. قميصا معدنيا لفه كله، وامتدت بينهما جبابرة المسامير، لتجعل بين الخشب ودرعه الحديدي إمكانية التحامهما إلى الأبد.. وقف الباب العتيد بشموخ كفصل من هيبة قديمة وعز غابر عرفه البيت المنتشر خلفه إلى مساحة واسعة.. وأبواب البيوت الكبيرة فيها عناد وصلابة، ولا تعترف بانحطاط المنزلة بسهولة.. فعندما يكون الداخل يعيش حلما ذهبيا ليس له أي سند من الواقع.. ينتصب الباب بإصرار المستميت على التمسك بالبقاء.. له هيئة حارس همام حريص على مركزه.. ولو أن وقفته الشجاعة لم يبق لها داع إطلاقا.. حين تكون من أجل المظهر فقط.. إيهاما بأن وراءها ثروة يخشى عليها من الاعتداء أو التلصص.. إذا جاوزت الباب إلى الداخل وجدت عن يسارك (مدودا) مستطيلا لعلف الخيل.. ومن تحته مستراح من الأرض، يمكـن أن تنبطـح فيـه الدابـة آخـذة راحتهـا الكاملـة.. مسـتودع

السيارة عندنا اليوم.. تغيرت وسائل النقل واستمرت الوظيفة.. نفس العقلية والأسلوب.. مع إضافات يقتضيها منطق التطور.. لا دابة هنا.. وإنما هنا موضعها فقط.. لم تعد الدواب تقف صفوفا طويلة مما يلي الباب مباشرة إلى الزقاق الطويل.. وإلى اليمين ارتفعت مصطبة في طول وعرض سرير من حجر.. تقاطعت فوق أديمها قطع الزليج المربعة، وهنا كان مقر (منقار) العتيد.. تقدم خطوات نحو الداخل تجد نفسك أمام باب آخر، ينفتح مباشرة على البيت الكبير.. تساهل في مواصفاته بالقياس إلى الباب الأول.. قنع بالخشب ولم يلبس الحديد.. واكتفى من الطول والعرض والغلظ بما يشعر باطمئنان خال من مركب الخوف.. بينما سابقه كان يبدو من مظهره أنه حريص على إشعار الغرباء بكثير من الهيبة والتوجس.. كباب مولد كهربائي يتحكم في مدينة بأسرها مكتوب عليه ، خطير..! وبين البابين كان (منقار) يطوي الليالي ويداول الأيام.. عندما يغلقهما عليه يشعر بأنه محصن ضد الداخل والخارج معا.. ما دام يتوقع عدوانا من الطرفين.. أو من أحدهما على الأقل.. حاضر اتخذ جميع الاحتياطات اللازمة ضد ماض يهدد بالهجوم ومستقبل يتوعد ببعث السرايا والطلائع.. فصل آمن للبطل.. في رواية تبدأ بمأساة وتنتهي بمأساة.. وبينهما أرض هادئة يجهد لوقايتها شر البداية وخطورة النهاية.. وكل فصل مهما ظل مغلقا على نفسه بين فصلين كريهين لا بد من انفتاحه عليهما في آخر الأمر.. لتمر المصاعب عبره جيئة وذهابا.. لكن استراحة مؤقتة أفضل من خطر دائم.. هي فترة متاحة لضبط النفس بين معركتين لا تهدآن أبدا.. كنت أسهر مع (منقار) بين البابين بضع ليال، مع البطل في فصله السعيد المعزول موقتا.. مع الحاضر المهدد بآفات

الماضي وشرور المستقبل.. داخل المعتقل حين يكون السجين هو الذي اعتقل نفسه.. هروبا من خطر أكبر يوجد خارج الأبواب والمزاليج الحديدية.. وكنت أستمتع به على نحو فريد.. وهو صاحب مزاج.. تلين ملامحه القاسية في لحظات الانبساط.. وتتخلى عن صوته حدته المزعجة لترتد إلى همس.. تسبح بيني وبينه سحب الدخان.. دخان كثيف.. يخلق جوا أسطوريا أدوخ منه.. ويصير عندي استعداد لتقبل الإيحاء بأي شيء.. وهو قابع أمامي يجتر أنفاسا من غليونه الطويل على مهل.. ويطول الصمت بيننا كأننا نتأهب للنوم.. باسترخاء الأعصاب، ودعابة الأحلام.. أحلام اليقظة المنحدرة نحو أضعف درجات الوعي.. وألطف مستويات الإحساس.. ويا دنيا اشربي بحارك، وجففي أنهارك، وانسفي جبالك، والعقي قرارك، وغيبي أخبارك.. ما بين البابين كان يكفي لإبعادهما عن كل مضايقة.. لا يواجه أحدهما الآخر ولا يقترب منه ليكون مجرد تكرار له.. بينهما مسافة تتسع لقفزات رياضية واسعة.. مدخل مناسب لبيت في حجم واحد من أحياء المدينة.. كالتمهيد الملائم لكتاب متعدد الفصول.. كالليلة الأولى في مسامرات شهرزاد.. كالمقدمة الموسيقية للحن كبير.. تصلح أن تكون عملا فنيا قائم الذات.. لو جزئ ما بين البابين، وصعدت من داخله حيطان عازلة، لكفى لإيواء أسرة متواضعة.. لم يجد (منقار) مأوى له أنسب من هذا، مكان يندمج عند فتح البابين، وينعزل لدى انغلاقهما.. مباح بعد الفتح، حرام بعد الإغلاق، ويكره اقتحامه بجلبة حتى في حالة الإباحة.. صاحبنا هو الذي يحدد أوقات الإباحة والتحريم والكراهة في هذا المكان.. محض اجتهاد معتمد على وعي للأصول.. أصول المعاملات الجاري بها العمل..

كل اتصال بين سكان البيت والخارج لا بد أن يكون عن طريقه.. يقوم بالتصفية الدقيقة لكل العلاقات الخارجية الآتية من الزقاق.. ولا يسمح منها إلا بالمرغوب فيه طارحا الباقي.. نقطة مرور صعبة، كل من يجتازها لا بد من إخضاعه لمراقبة لا هوادة فيها.. إنه المكان الوحيد في هذا العالم الذي لمنقار سلطة عليه.. من غير استناد إلى قانون سوى العرف.. مما مال بها إلى الاستبداد.. وجعل إمكان إقحام شريك فيها غير وارد إطلاقا.. لأن صاحبنا جارف الشخصية.. مجرد حضوره نفي لاحتمال أي شريك.. سلطة بالتفويض.. والتفويض غير معلن.. لم يجر التعاقد في شأنه.. ومع ذلك فالتعاقد موجود فعلا.. كل الوقائع تدل عليه.. المناخ الخاص بما بين البابين.. النظافة ذات الوسواس المعلنة بينهما.. الرائحة الغريبة المريبة ذات الصلة بسعال الرجل المتقطع طول الليل.. والملفوف عليها جلبابه والمستوطنة داخل منخريه.. نسيم النعناع المطبوخ حتى طفو الزبد.. بعد شرب الشاي تستمر نكهته تعطر المكان إلى موعد إعداد شاي جديد.. جو الساكن القار بدهونه وعرقه وتومه وبصله وعاداته ولوازمه المألوفة الاستعمال.. لكن التعاقد غير المعلن كان على ممر.. من أجل الإقامة في مدخل معد للاستعمال شبه العام.. وظيفته الأساسية الإرسال والاستقبال.. عش طائر في معترك الرياح الأربع.. حيث يطيب لها الصراع من أجل تغيير الاتجاه.. السكن بين باب فتوح وباب عجيسة حين يكثر الداخلون والخارجون بين هذه وتلك.. خصوصا أيام الاضطرابات.. إقامة الإنسان في هذه الدنيا.. معبر الوافدين عليها إلى الآخرة.. يجرون أحمالهم وخطاياهم وأموالهم وأفراحهم ومآسيهم ليتركوها على حافات القبور ويمضوا.. قنع (منقار) بهذا الممر..

يقيم وسط أقدام تتحرك في هذا الاتجاه وفي الاتجاه المضاد.. هو ممر له أيضا.. ممر قار لإطالة المكوث فيه أطول فترة ممكنة.. ثبات وسط التغير.. سكون خلال الحركة.. وقوف في الاتجاه المضاد للتيار.. حيث لا راحة إلا نادرا.. عندما يغلق البا بان مساء، وبعد انقطاع حركة المرور بينهما يأخذ الممر معنى البيت الموقت.. بيت للمبيت قبل كل شيء.. مهمته التاريخية الأصيلة.. أيام التسكع في الطبيعة بحثا عن المجهول والتماسا للأمن.. في الصباح تستأنف الحياة رحلتها من هذا الممر.. يفتح البا بان فيصير السرير الحجري في مجرى الهواء مباشرة.. لا يبقى البيت بيتا.. أدى مهمة المبيت وتحول إلى طريق.. طريق محروس غالبا.. موضع انحباس مؤقت للهواء أثناء تحوله عبر الحنجرة.. موضع انسداد مسيل الماء الجاري لينفتح بسرعة قصد تجاوز العائق.. كان منقار في هذا الموقف كالوكيل بالنسبة لصاحب القضية.. يتحمل كل أوزارها لصالح الغير.. يعيش منها أكثر جوانبها ثقلا ومسؤولية..

الباب الداخلي ينفتح على الفصل الأخير من حياة كانت تتلألأ وقد سيجها العز من كل جانب.. وفتحت في السياج ثغرات.. ووجدت الأيام لمكارهها مداخل.. واختلط العمل الصالح بالعمل السيء.. وبدت جوانب مصرة على الاحتفاظ بالمنزلة العالية.. بينما هبطت جوانب أخرى مضطرة هبوط الكريم حين يخونه السند في وقفته الصامدة المهددة.. وجاء منقار ليعيش الأمل الأخير في صيانة الكرامة وحفظ ماء الوجه.. والباب الخارجي ينفتح على الضياع البشع.. المشبع باللا مبالاة والإهمال التام.. زقاق طويل تتخلله منحدرات تفضي إلى الوادي الحار.. خاتمة مطاف النفايات والفضلات والسمك الفاسد والطعام العفن وما

تلفظه أمعاء المدينة.. مرات عديدة وضع رجليه على أرض الزقاق التربة وقد قرر البيت فصله أو فصل نفسه.. كمن يطأ حافة هاوية وقد ضاع منه التوازن.. لكن قدمه غالبا ما تقال عثرتها وتثبت على الطريق.. ولو أنه معروف البداية مجهول النهاية.. نهايته كنهاية الأساطير.. متنوعة الاحتمالات.. ولا تمر أيام معدودات حتى يسترد الزقاق صاحبنا مرة أخرى ليجد ما بين البابين ما زال على العهد.. ويعود للمر معنى أن ينقلب بيتا.. أن ينغلق من جهتيه على حياة فيها نشوة وأحلام.. ويشعر أهل البيت أن حدودهم مع الخارج بها نقطة مراقبة.. وأن يدا تدق الباب الخارجي لا بد أن يكون عندها إحساس بالحذر.. أحيانا يكون الباب الكبير ناقص الوجاهة.. فلا بد من تعزيزه بقوة إضافية.. تمنحه مزيدا من هيبة ووقار.. كان وجود منقار خلف الباب إلى الداخل القوة الإضافية.. لجعل الباب ذا شخصية مهيبة الجانب.. لكي لا يكون بابا فقط.. بل بابا وعقبة في آن واحد.. يؤدي وظيفة الباب المغلق حتى ولو كان متباعد ما بين المصراعين.. الهواء المار عبر البابين يخضع لتكييف خاص.. لأن احتجازه بينهما ولو لفترة قصيرة، وإرغامه على تنفس حالة الطقس القارة بينهما إلى حين، مما يخضعه لعملية تحويل.. فيها بقايا الغاز المحترق.. وأنفاس نار خمدت واستمرت آثار روائحها عالقة بالخشب العتيق والجدران الواقفة مدة قرن كامل أو أكثر.. تمتص غبار الأيام في صبر.. يشكل منقار عنصرا هاما من عناصر الهواء المحتجز في هذا المكان.. فهو المحرك الأول المشغل لكل مواده الكيماوية.. محرك يدور بنشاط نافثا كتلا من الدخان الرمادي المشوب بالسواد.. ذي الاستعداد الخاص للإمساك بالملابس والآنية وقطعة الخشب ومساحة

الحائط لمدة طويلة.. يجدد خلالها نفسه بإمدادات متتابعة من مدخنة المحرك المتخلف عن عصر تشغيل الآلة بالفحم الحجري.. الهواء هنا - كما في أماكن أخرى - منحاز تماما.. محصن بين أربعة جدران وبابين عندما يغلقان يظن أن عودتهما إلى الانفتاح أمر بعيد الاحتمال.. المرور بينهما دائما يشعر بأن منقار موجود.. حتى لو كان غائبا منيبا عنه طيفه فقط.. صار للهواء هنا مسكن يؤويه.. تجرفه موجات هوائية لدى انفتاح البابين فيضطر إلى الجلاء المؤقت.. لكنه ما يلبث أن يعود وهو أقوى إصرارا.. إذ تكونت له صلة راسخة بذاكرة الأشياء البسيطة المشغولة بأصابع منقار يوميا.. الغليون الطويل المخروط بعناية، الزاهي بنقوشه المحفورة في عوده الأملس، وقد تشعب منها خط أحمر دقيق آخذا عدة اتجاهات أفقية وعمودية ودائرية.. على رأسه استقرت مدخنته الصغيرة، المسؤولة عن تمرير كتل الدخان.. تتوهج وتعيش لحظة رائعة يعقبها فورا خمود قاتل.. ما بين فتحتي هذا الغليون (السبسي) يخزن صاحبنا كل مسراته وأحلامه الجميلة.. كل حظه من هذا العالم.. إلى جانب الغليون يرقد (المطوي).. وهو عبارة عن جيب جلدي طويل يطوى على نفسه عدة طيات..وفي أعماقه تنبعج مادة الحشيش المدقوقة بعد الشفرة بعناية.. بينما أوى مجمر صغير إلى بعض الزوايا وناره دائما خامدة تحت طبقة من الرماد الكثيف، بنفخة أو نفختين تطرح عنها غطاءها الرمادي فتبدو شديدة التوهج.. جلسة قصيرة هاهنا مع صاحبنا كافية لهيمنته على جليسه واحتوائه في سحابة تلفه من الرأس إلى القدم.. وتندس في حواسه ومسام جسمه لتمطر من الداخل، وتجعله مدخنا بالرغم عنه.. إذا لم يكن

واحدا من هواة الاحتراق الأوفياء.. يكتفي بأن يعيش الجو.. ويتنفس البيئة.. ليشارك جليسه بعض نشوته المتوخاة بإعداد سابق.. والمدفوع ثمنها مقدما اشتقاقا من عوز مقرون بإحسان لتكون بضعة ريالات حاصل جمع الطرفين.. ولا تجمع هذه الريالات ولا يقف بعضها إلى جانب بعض أو ينام فوقه إلا خلسة لتتبدد في الحين.. الزمن هنا عند منقار هو اللحظة.. هربت مما قبلها.. وانقبضت عما بعدها.. وانفصلت عن مجرى التاريخ.. لحظة وجودية.. عدمية.. شاعرية.. لا معقولة.. الحقيقة الوحيدة وسط عالم من الأوهام.. أو وهم وحيد وسط عالم من الحقائق.. أمرها يختلف بحسب زاوية الرؤيا واتجاهها.. لحظة المزاج عنده تستمد أبعادها من طبيعتها.. قد تكون حسب تقويمنا الفلكي ساعة أو بعض أجزاء الساعة.. لكنها دورة تاريخية كاملة طبقا لمنطقها الخاص.. أثناء هذه اللحظة كثيرا ما استمعت إليه وهو يثب فوق رؤوس عقود من السنين على متن كلمات قليلة قوية الإضاءة سريعة الانطفاء كالشهب .. وبعد أن يتمكن من إحراق المراحل وإلغاء المسافات يلوذ بصمت عميق.. حينئذ أشعر بانفصاله عني.. ومواصلة تحويماته في عالم لا أعرف له اسما ولا جغرافيا.. فقط أتلقى إشارات خاطفة وآنية من باصرتيه الغائمتين الآتيتين من حدود جد بعيدة.. ربما كنت الشاهد الوحيد على أن هناك أشياء خارج حلقات الدخان... أراه من خلال ما تبقى من قدرتي على التركيز يحترق تدريجيا ويتلاشى في دخان ناره المقدسة كأنه بوذي فقير يمارس بعض طقوس العبادة.. أدخل عليه عاقلا أزن الأشياء بميزان الذهب.. وأحمل قاموسا متكاملا لا أضل فاضع كلمة منه على معنى غريب عنها.. فما أن يلفني

في سحابته تلك بضع لحظات حتى أضيع ميزاني.. فيستوي عندي الجبل والنملة.. والفيل والذبابة.. ويصير قاموسي ردهة لحفلة تنكرية.. اختلطت فيها الأقنعة وصار كل شيء ظنونا وتهاويل.. كل أسلحتي الذهنية تشرع في التخلي عني.. وأبدأ في خسران مواقعي.. كلما ابتلعت مزيدا من الدخان في جلستنا الخرافية.. ربما كانت الخرافة في هذا الموقع هي الحقيقة المضيعة لهويتها.. خرجت من حدود المعرفة إلى حدود النكرة.. ورمت بكل النعوت والصفات.. وانسحبت من جميع المواقف المحددة.. وتاهت في (عالم بلا خرائط) كنت حينئذ أحيا تجربة لست طرفا مباشرا فيها.. أنا مجرد شاهد عليها.. شاهد يملك الحد الأدنى من الاستعداد للمشاركة غير المتكافئة الطرفين.. منقار يحيا تجربته وحدها.. وأنا أحيا تجربتي وتجربته في آن واحد.. أعبر إليه من حدودي الوهمية لألقاه فوق أرضه المهتزة دون أن تسقط منها طوبة واحدة.. أما هو فليس عنده شيء يخسره.. وأما أنا فكنت أخسر الكثير.. قواعدي المحددة لي مقدما.. معاييري المخبوءة تحت نظراتي.. وخلال تلافيف دماغي.. ووراء تصرفاتي.. ثقتي بأن ثلاثة زائد ثلاثة دائما تساوي ستة.. وأن الطريق إلى الشمال دائما تتجه إلى فوق.. وأن النجوم لا تظهر إلا ليلا.. أثناء ذلك يخيل إلي أن لسانه العصبي إلى حد الاستهتار قد جف والتصق بفراشه اللزج في تجويف الفم كرأس أفعوان نائم غابت أصوله في باطن حنجرعميق. لو أراد صاحبه إدارته بكلمة لكان عليه القيام بجهد عضلي باهظ كأنما يمتح من بئر عميقة جدا شحيحة الماء والدلو قصير الحبل والعطش يزيد في تعقيد الموقف.. وأخيرا استل نفسي من سحابة منقار بتثاقل كبير..

لأسحبها إلى خارج القبو العامر بالأشباح.. بعيدا عن دولة الحشيش ذات السيادة.. وأنا كمن يعبر الطريق الشاحب من النوم إلى اليقظة.. وثلاثة أرباع رؤيتي منفلت مني.. والباقي هو الخاضع لمراقبتي.. لكنه بعد قليل يبدأ في الزحف على شواردي الهائمة.. قصد ردها إلى الوضوح والانتظام.. إنه الانسحاب من ليل منقار.. وليل الرجل يختلف عن نهاره تماما.. لا بمعنى أن النهار للحركة والليل للنوم.. هذا معنى دارج خال من الذكاء.. لا يحتاج الإنسان في الوفاء له إلا أن يكون طبيعيا جدا.. مطيعا لنظام الحياة اليومية طاعة عمياء.. يغلق الظلام عينيه لتستمرا مغلقتين إلى أن تفتحهما أشعة الصباح.. لا يملك الجرأة على كسر هذه العادة وتعليمها كيف تجمع أشياءها المبعثرة وتبحث عن الضائعة وبأمل ضعيف في التماسك من جديد.. نهاره ليس له.. للذين اشتروه منه بأن منحوه الليل.. الليل الآمن الهادئ المحصن بين بابين ثقيلين مغلقين من الداخل.. شراء الاستقرار بالقلق.. والنوم باليقظة.. والأمن بالخوف.. والهدوء بالاضطراب.. وينبغي التذكير هنا بأن الرجل لم يكن (خادما) بالمعنى النازل إلى حضيض القيم الاجتماعية.. مع إناطة (الخدمة) به على أنحاء متنوعة.. وظيفة يشغلها بشرف.. في الحدود التي يضع الشرف فيها.. فيه شيء من صفات (الصاحب) وشيء من صفات (الخادم).. تواضع فيه الصاحب وقدم عدة تنازلات قانعا من الصحبة بالتبعية غير المشروطة.. وتجرأ فيه الخادم وتجاوز حده مغتصبا بعض حقوق السيادة.. يمارسها بأسلوب مختلف عن أسلوب أصحاب الشأن.. لأنه سرقها منهم.. وليست له في الأصل..لاثقة له بنفسه عند استعمالها..كأن فيموقفه اعتذارا ضمنيا عن تجاوز الحد وتضخيم الاختصاص..الصاحب والخادم يتعادلان فيه..دون أن

يجور أحدهما على الآخر.. حتى إذا طاب للصاحب مرة أن يسطو على حدود الخادم تصدى له هذا الأخير فرده إلى حجمه العادي.. ومتى رضي الخادم بالدونية رفع الصاحب من روحه المعنوية وأعاده إلى مركزه القوي.. وحين تقترن الصحبة بالخدمة متعايشتين في شخص واحد، يطلع منهما مركب يجمع بين الطبيعتين.. ويمكن وضعه في خانة متميزة.. الخادم ينفذ الأوامر، والصاحب يبدي موافقته عليها.. فيجيء تنفيذها طاعة من غير إذلال.. واستجابة دون تطاول.. حين يسعى الخادم مسرعا لإنجاز المهام قد يدركه الصاحب ليتباطأ به محببا إليه ترك الاستعجال.. دفعا لشبهة الخنوع.. وتجافيا عن مخاطر الخضوع.. والخدم الأصحاب لهم في المغرب تقاليد عريقة.. منهم من جملوا الخدمة، وأدبوا الصحبة، وجمعوا بين الأمانة والنصيحة، والحذر والحب، والبعد والقرب، والشهامة والطاعة، والطمع والقناعة، يعرفون للصمت أوقاته، وللكلام آدابه، خطوة تتقدم بهم إلى أمام، وخطوتان تعودان بهم إلى خلف، بعداء كالأقرباء، وأقرباء كالبعداء، لهم في الميراث الأدبي لمخدوميهم نصيب، ينالونه بالانتساب لا بالنسب، وبالإلحاق لا بالاستحقاق.. (الصاحب) هو الإطار الاجتماعي الذي كان يعمل الخادم ضمنه أحيانا مبتعدا عن وضاعة الرقيق، مقتربا من الصحبة المتراجعة عن معناها الأصيل، وفي هذا الوضع عاش منقار حياته بين البابين، يؤدي عملا ذا اسم مستعار كغيره من الخدمات الطارحة لأسمائها الحقيقية، دفعا للدونية وضآلة الشأن، وجلبا لشيء من احترام..

وتطورت منزلته مع مرور الأيام، فحصل على ترقية في البيت الكبير.. سمح له بالتقدم خطوات نحو الداخل.. أصوات السكان أخذت تقترب .كلما تقدم خطوات أخرى ازدادت وضوحا.. يمكن تمييز بعضها عن بعض مع بعض الصعوبة.. أصوات نسائية طبعا.. آتية من وراء عشرات السنين.. الأيام تشجعه على التوغل في الداخل، تثبت الأرض تحت قدميه، الأمر كان تلقائيا، والخطوات عفوية، كخطوات ضيف مقيم لمدة طويلة.. بين الخطوة وتاليتها إمكان الارتداد إلى وراء الوراء.. لمجرد خطإ بسيط في السلوك، مع بدء المحاولة ابتداء من الخطوة الأولى.. وجاء وقت صار فيه صاحبنا يقطع المسافة الطويلة الممتدة بين جنوب البيت الكبير وشماله في دقيقة واحدة.. وجريا إذا اقتضى الحال ذلك، وقفزا على الأدراج الصاعدة إلى فوق، ممعنة في الصعود كأنها المرتقى إلى حدائق بابل المعلقة.. ودونما حاجز أو عائق والرجل عفيف النظر، عندما يلوح طيف امرأة أمامه يغضي.. لا إغضاء الفاجر المضبوط في شبهة.. ولا إغضاء المأخوذ يلوذ بقناعه من نفسه الأمارة بالسوء.. ولا إغضاء المفتون كبر عليه أن ينقاد لوسواسه بسهولة.. ولا إغضاء المذنب يتضاءل لدى وخزة من وخزات الضمير.. وإنما يغضي اغضاء الأمين القوي الخالي من أي مركب.. المتسق مع نفسه المشغولة بما تلقاه من عنت.. مكث بالباب طويلا قبل أن يصير له امتداد داخلي يقابل امتداده الخارجي.. واحتاج إلى استهلاك فصول من عمره قبل التمكن من غرس ذاته بجانب شجرة الأسرة، دون التعرض لاقتلاعه بضربة فاس قاتلة.. فقد غرس ذاته مرارا.. واقتلع مرارا.. فلم تمت جذوره، وإنما كانت قابلة للامتداد في عمق التربة.. ولو أنها ـ أي التربة ـ لم تكن من الخصب

بحيث تمد جذوره بكثير من الثقة.. الأمر الذي يتطلب جهدا إضافيا لترسيخ انتمائها وإعطائها صفة الظاهرة الطبيعية.. وتحمل الرجل مستعينا على المصاعب أحيانا بالمرح يغتصبه من قلب وضعه الدقيق.. قد يزيح عنه جبال الهموم بابتسامة.. ويخرج من تحت الأنقاض بنكتة.. ويضحك والألم يقبض ملامحه كما تشرق الشمس حين اكفهرار وجه الطبيعة.. فيحول دموع الحزن إلى دموع فرح.. ويكتشف الجوانب الهزلية من مآسيه فيطرحها مادة للتسلية.. ويمتلك قدرة خارقة على الاستغراق في لحظة مزاجية تكتنفها الغوائل زاحفة نحوها من كل اتجاه.. كالجندي حين يخرج رسم زوجته المنتظرة بشوق ليتملاه ودوي القنابل يزلزل الأرض تحت قدميه.. وهو منبطح في خندق مزدحم بالجثث.. عاش دون مظلة.. فاضطر إلى اصطناع مظلة وهمية.. من دخان غليونه الصديق.. من مرحه ذي البطانة المأساوية.. لكن مظلة الدخان ما تلبث أن تتلاشى.. والمرح عنده سريعا ما يندم.. ويتكشف عن حقيقته الباطنية.. فيشعر أنه في العراء.. دون وقاية تذكر.. تطاير السقف.. وتهاوت الجدران.. وزالت كل الموانع أمام الزواحف والهوام والحر والريح والثلوج، فصار تحت رحمتها مباشرة.. ويعود للبحث عن الظل.. عن مظلة يستريح تحتها ولو بضعة أيام.. وهو واجدها لا محالة.. فاقد إياها يوما لا محالة.. مقضي عليه بالبحث عنها دائما.. قدر لا مفر له منه.. ومظلات الناس يومئذ كريمة.. كثيرا ما تؤوي الغرباء.. وقد تمنحهم من الظلال نفس المساحة الممنوحة للأقارب أنفسهم.. لكنها قد تتقلص عن الغريب يوما.. ودون إشعار سابق.. لأن الغريب لا يملك في الأصل من مساحة الظل شبرا.. لا

ملكية مادية ولا ملكية أدبية.. هي قضية إحسان فقط.. والإحسان يذهب بنفس الطريقة التي أتى بها.. حسب المزاج والقابلية لا غير..

الباب الخارجي الشامخ المفتوح على الزقاق تعرض لمكروه يوما.. استعاض عن مصراعيه الهائلين بلوحين من خشب خليق بهما أن ينغلقا على دكان أو على بيت تعبره بضع خطوات إلى يمين.. وأخرى إلى شمال.. زائد خطوات إلى أمام.. صار الباب عنوانا مبتذلا لألف ليلة وليلة.. مدخلا متواضعا لدنيا واسعة... اكتأب منقار للحادث يومئذ... كان يواجه الزقاق بدرع من فولاذ فصار يواجهه بلوح من خشب.. ما كان مستحيلا تحول إلى ممكن.. الممكن الآتي من الزقاق يقلقه كثيرا.. لأنه كريه غالبا.. ويضيف إليه أعباء جديدة.. تلاءم الباب في وضعه الجديد مع الخارج بقدر ما تلاءم مع الداخل.. جاء حينئذ اشعارا بأن التراث العائلي المخبوء وراءه قد تواضع.. وربما دخل دور التصفية الأخيرة والنهائية.. وتأكد عندي اهتزاز ثقة منقار بالباب المسخ ذات ليلة.. هي ليلة من ليالي فصل الربيع الرقيقة.. جمعتني به خلال البابين جمع الحقيقة والمجاز في سياق واحد.. أينا كان الحقيقة وأينا كان المجاز.. هذا أمر موكول لمن يضعني وإياه موضع التأمل.. أما إذا اعتبرت الحقيقة والمجاز وجهين لشيء واحد، فكل منا انعكاس للآخر.. فجأة اضطرب سياقنا وتطلب شيئا من تصحيح.. على ضوء الواقع الزاحف بخطى شديدة الوقع.. أهو زلزال يتوعدنا من بعيد.. ويرسل إنذاراته المبكرة قبل تشريفه البغيض.. أم هو رعد قاصف ضرب بأحجاره المشتعلة منطقة نائية واكتفى بإشعارنا بواسطة البرق.. وكيف والليلة كالعروس النائمة على فراش من ريش النعام اثر الحادث السعيد؟..

الآن فقط اتضح أنها أقدام كثيرة ثقيلة تضرب الأرض ذات الحجارة المربعة الملساء الناتئة.. لا شك أن الشرر كان يتطاير منها حينئذ.. ضرباتها منتظمة كأنها مجموعة قنابل ذات توقيت واحد عند الانفجار.. الانفجارات متوالية تهز جدران الحي وتلقيه تحت كابوس مرعب.. مع وقع الخطوات الكريه تقترب همهمة كأنها زئير مكتوم لمئات الأسود.. حينئذ رأيت الصفرة تمتص الدم من وجه صاحبي والرعشة تنفض أطرافه نفضاقويامشعرا بأن أسلاك جهازه العصبىاهتزت ووقع لها تماس كهربائي مروع..إنهم جنوداللفيف الأجنبى يهبطون مدينةفاس فيمنتصف الليل لإخماد نارالوطنية المقدسة فيقلب المدينة المتوثب..اوما أن يصبح الصباح حتى تلفى فاس جسمها محتلا بشكل بشع.. الأسلاك الشائكة تجعل الانتقال من هذا الدراع إلى الآخر مخاطرة حقيقية.. والبنادق المتعانقة الرؤوس في جميع نقاطه الحساسة توحي بأن الموت صار قضية في منتهى البساطة.. يمكن توقعه في كل خطوة.. والدوريات تحرث المدينة وتمشطها منتهكة عرضها بوحشية.. حدث ذلك مرارا.. وها هو يتكرر الليلة.. قام صاحبي فورا فأطفأ المصباح الكهربائي قبل وصول الغابة ألزاحفة بكل رعونتها ومخاطرها المحتملة.. وبعد مرور العاصفة أنار المصباح واتجهت نظراته نحو الباب وكلها سخرية واستخفاف.. صار الباب إذن ثغرة في خط دفاعه الخارجي.. تزداد اتساعا كلما تقدم الليل.. ترمي نومه بعقدة تندس فيه كالشوكة في جنب تمدد متعبا ملتمسا الراحة الكاملة.. تفرض الاستعداد للدفاع عن النفس في أية لحظة.. حالة تأهب قائمة ما امتد الليل.. لما تخلت عن الباب كفاءته العريقة أحس منقار

بأعبائه تضاعفت.. كان الباب يحرسه لمدة طويلة، والآن جاء وقت تبادل الأدوار.. الدور البديل خالق لإرهاق نفسي مضاف.. لو أن هذا الباب كان هكذا منذ التحق منقار بهذه الدار لحصل التكيف النفسي منذ وقت مبكر.. ولاعتبر نفسه أسعد حظا من الحارس الليلي المتجول بين الدكاكين المغلقة.. لكن أن ينام زمنا وراء بوابة لا يقتلعها جيش.. وفجأة يجد نفسه نائما وراء لوح خشبي مهندم أملس الأديم قل حظه من العناد والتحدي، فأمر يفرغ النفس من الثقة ويملأها بالوساوس.. لكن الزمن كفيل بتطبيع كل الحالات النفسية غير المستقرة، بعد تجريدها من صفات القلق والتوجس والريبة، مع ضبطها بالتعود لتصير واقعا أقل إثارة لعقارب الانتباه.. وتحريكا لهواجس الترقب.. وهكذا بدأ منقار يسترد ثقته بالباب، رغم نزول احترامه له عن مستواه السابق.. وأثبت الباب الجديد بحكم التجربة أنه صالح لصيانة شيء من الهيبة السالفة، فلم يضعها كلها، هو تحوير عصري لهيكل عتيق حاول الإمساك ببعض صفات الوجاهة... بأخفها وزنا وأضعفها حملا جهد ما يستطيع.. خان النموذج الأصلي بشكل واضح.. وتواضع قانعا منه بما يقي وقفته شر التهالك لدى الصدمة الأولى أو الثانية يتلقاها من قدم قوية.. يأتنس به الكبير، ولا يخافه الصغير، ويدق عروته الحديدية الخفيفة الهيابة الوجل وهو آمن.. أبواب المنازل المجاورة وجدت لها بالقرب منه أسلوبا للمعايشة، بعد أن اضطر إلى الاستجابة لمطالب الوقت، وغير ذوقه الكلاسيكي الصارم، مقتربا من الذوق الحديث.. ومع بقاء الباب الداخلي يجدد ذكرى مجده القديم كل يوم، يكون منقار بين البابين مترددا خلال الأصالة والمعاصرة.. يعيش مقدمة عصرية لباب عتيق من أبواب

كتاب حضارتنا الغاربة. إذا أتى من الزقاق اجتاز القرن العشرين إلى القرن الثامن عشر.. وإذا انحدر من الداخل أحرق عصرين فيما بين البا بين متحولا إلى الخارج.. طبعا لم يكن هو نهبا لهذه المفارقات.. ولم يكن ذهنه قناصا يضع أمام عدسته مثل هذه الأهداف.. ومع ذلك فالظن به أن يشعر بها وساوس إذا لم يتبينها معاني.. فنفسه لا يعوزها الخصب.. وإن كان خصبا بدائيا لم يخضع لأي تحويل.. كاستمداد أرض تجهل مواهبها الطبيعية.. لا شك أن لكم تصورا للذكاء غير الموظف.. والبصيرة المهملة في قبو.. والمعاني المحرومة من التنمية.. والذوق المحروم من حق التعلم.. والعقل المتروك لمحض المصادفة.. هذه هي المواد الأولية التي يتكون منها الخصب النفسي لهذا الرجل.. مجرد مواد أولية.. تذكرنا بالذهب ما زال متعايشا مع التراب.. وبالنار ما زالت احتمالا في طبيعة الحجارة.. وبالفواكه وهي مجرد إمكان في صلب البذور.. بعض هذه المواد انفلق في نفسه.. وصار له امتداد.. ولكن مع بقاء خصائصه، كالماء بالقياس إلى كتل الثلج التي يسيل منها.. عنصر الماء واحد في الحالتين.. حالة التجمد وحالة الذوبان.. كل ما يصدر عن تلك المواد كان مجرد إفراز.. مع الافتقار إلى التحويل.. والتصنيع.. إلى معادل من نوع مختلف.. إلى الدخول في دورة تثقيفية منظمة هادفة..

كان منقار وسيطا بين السوق وأهل المنزل.. يحمل إليهم الطيبات ويكفيهم شر الزحام والعرق والشتيمة.. فخبرتهم بالسوق تافهة.. وتقاليد الأسرة تمنعهم من تنميتها.. لأن مطالب التنمية غير مقبولة.. بل مرفوضة قطعا.. لو نزلوا إليه لأمكن أن يشتروا الخيار بثمن التفاح.. والخل بثمن العسل.. والبصل بثمن الكمثري.. ويخرجوا بصفقة المغبون.. لذلك اكتفوا

بتوجيه تعليمات إلى منقار تاركين له الباقي ليتصرف.. لكن التعليمات الصادرة إليه لا تأتي أحيانا من جهة واحدة.. بل تأتي من مصادر متعددة.. وكثيرا ما يكون بينها تعارض.. فيقع تخبط عند التنفيذ.. بعضها يبقى معطلا لا محالة.. حين يكون الفرق بينها كالفرق بين الحلال والحرام.. العمل بأحدهما لا بد من اقترانه بترك الآخر.. تتنازعه الأطراف المتعارضة ساعة يتعين عليه إرضاؤها كلها.. لأنها جميعا ممسكة به.. ولها دخل في تعكير مزاجه إذا اقتضى الحال ذلك.. وإرضاء جهات مختصمة في وقت واحد كالجمع بين أكثر من عامل واحد عند التنازع على العمل في الجملة ذات التركيب المعقد.. كإيجاد صيغة للتفاهم بين المدعي والمدعى عليه في قضية شائكة هي موضع خلاف جذري.. وبين البابين يستريح منقار من هذا الصداع ساعة يضع نفسه بين قوسين مقفلين في سياق الحياة الجارية.. والحريصة على فتح كل الأقواس وإزاحة جميع العوارض كي تتدفق بحرية.. لكن قوسي صاحبنا يظلان صامدين.. يتقاربان من حوله أحيانا حتى يكادا يخنقانه ويضغطان عظامه الهشة.. ويتباعدان أحيانا حتى لكأن أحدهما بوابة للشرق والآخر بوابة للغرب.. وخلالهما ينداح عالم من متع.. الأمر متوقف على الظرف النفسي وحالة المزاج.. حين سكن منقار بين هذين القوسين ضمن سياق الحياة المتحرك وضع نفسه أو وضعه القدر في نقطة حساسة.. قلقة.. متوترة.. في ملتقى المشاكل.. في المنطقة المتنازع عليها بين الرياح.. في مركز التجاذب والتدافع.. عند مفترق الطرق.. في قلب حركة المرور.. لم يأو من الحياة إلى ركن ركين ... أو غير ركين ... أول ما وضع قدميه في الدنيا وجد نفسه دون حصانة ... ومن ثم وهو

مشغول بقدميه.. يثبتهما خشية السقوط.. ولازمته عادة تعلم المشي والانتصاب الكامل من الطفولة إلى الشيخوخة.. لم يتمكن من أن يعيش مسلحا وسط معركة الحياة الشرسة.. ليس له من الأسلحة إلا لسان طويل.. وحنجرة هادرة.. وقطع الألسنة الطويلة قد لا يكون بالأمر الصعب.. وردم الحنجرة الهادرة بالحجارة والتراب قد لا يحتاج إلى تكاليف تذكر..

وأخيرا تحطم القوسان.. وفتح الطريق عنوة أمام جرافات الحياة.. والفى مقام منقار في نقطة من هذا الكوكب الكبير.. وعليه القيام بمسح جغرافي للعثور على مأوى جديد.. يشتري الإقامة فيه بنفس الثمن.. ليس له إلا ثمن واحد يؤديه لنفس البائعين.. بائعي النوم والأمن بين أربعة جدران.. مع بقاء الأرض خارج الاتفاق.. وكذلك الجو.. والحواجز المقامة على الجانبين.. وكل ما في الأمر أن البيت الكبير تحولت ملكيته إلى مالك جديد.. له في هندسة البناء ذوق مختلف.. وكل معدات الهدم والبناء متوفرة لديه.. ويود العمل بسرعة.. لنسف كل شيء.. قبل اعطاء رسومه الهندسية فرصة ترجمتها إلى لغة الحديد والإسمنت والحجارة والخشب.. لا يرى أن من اللائق وضع ملابس عصرية فوق ملابس أثرية.. أو اعطاء القرن الثامن عشر الحق في التساكن مع القرن العشرين.. هو اشترى الماضي ليهدمه بتطلعات المستقبل.. امتلك دار شهرزاد ذات الجو الشاعري والرؤى الأسطورية ليحوله إلى مشروع فخم ذي صلاحيات عصرية.. الشاعرية فيه باهضة الثمن.. وليس عندها استعداد لمنح نفسها بالمجان.. أو مقابل نظرة إعجاب لا غير.. ذلك صنيع الشاعرية البلهاء.. العاطلة عن الشغل.. الغافلة عن مواطن المصلحة.. وعن الأسلوب الذكي لجلب احترام المعجبين.. لم تعرف يوما كيف تصل بين الجيب والقلب..

والمنفعة والحب.. كي تكون لطلعتها قيمة.. وتؤمن مستقبلها برصيد محترم في البنك..!

وعندما أخذ منقار يبحث عن مأوى جديد كان قد تجاوز عقده السادس.. وهبطت كفاءته النوعية عن مستواها السابق.. وتحولت الطرق المنبسطة أمامه إلى عقبات.. والعقبات إلى جبال.. وزاد حجم المستحيلات عنده قياسا على الممكنات.. وازدادت معركة الحياة ضراوة.. واستمرت أخلاق المقاتلين في الهبوط بشكل بشع.. بينما أخذت أخلاق السوق في الهيمنة.. وأوشكت كل العلاقات الإنسانية أن تقيم بثمن.. وأن تدار على مصلحة.. انهار البيت الكبير فانهار معه الرجل.. جاء انهيارهما في موعد واحد.. لأن منقارا ارتبط به لزمن طويل.. وتعود كل منهما على طباع الآخر.. تخاصما وتصالحا مرارا.. وأحس كل منهما بحاجته إلى صاحبه في جميع الحالات.. غير أن البيت انهار ليرتفع مرة أخرى براقا رائعا مستعدا للحياة في القرون الثلاثة أو الأربعة الآتية.. أما منقار فقد انهار ليموت داخل رماده.. فلن يكون له بعث إلا في العالم الآخر.. ليحاسب أمام الله عز وجل.. ويكون عليه تبرير أخطائه..

وانقطعت عني أخباره زمنا.. خلاله كان بناء هائل ينهض على أنقاض البيت المنهار آخذا أهبته للخلود.. كأن ليس في نيته أن يتراجع عن وقفته الراسخة أبدا.. ثم صرت القى منقارا بين الحين والآخر، فألفيه في كل مرة يزداد جلده جفافا، وعظامه نتوءا، وأنفه استطالة.. أمسكت به الحياة طويلا لتعتصره تدريجيا، وتقتل فيه الخلايا واحدة بعد الأخرى، وتسحب منه رخصة العيش بعد إنذاره بصورة متكررة.. بينما

الموت يقدم لها الدعم والمساعدة.. زاحفا نحوه بتصميم وتؤدة.. ليغتصب روحه المتهاوية في لحظة الصفر.. وذات يوم بلغني نعيه فحزنت.. وضاعف حزني شعوري بالذنب.. إذ اهملته وهو حي.. فما جدوى البكاء عليه وهو ميت..؟

فـاس عبد العلي الوزانــي

الدبلوماسيون المغاربة
وانطباعاتهم حول المجتمع الإنجليزي

د. عبد الهادي التازي

عرفت العلاقات المغربية الانجليزية طريقها منذ العصور الوسطى عندما تحدث التاريخ عن وصول بعثة عن الملك جوهن إلى بلاط الخليفة الناصر الموحدي عام 1213م، بعد أن شعر جوهن بالخطر الذي يهدده من جانب ملك فرنسا من ناحية، ومن ثورة السادة الإقطاعيين من ناحية أخرى، علاوة على الحكم الذي كان البابا أصدره ضد جوهن من ناحية ثالثة !

هنا وجدنا آثار ذلك اللقاء التاريخي في الكتب القديمة...

ولم تلبث تلك العلاقات ان تطورت عندما أصبح سفراؤنا يترددون بكثرة على انجلترا، وبخاصة أيام الملكة اليزابيت الأولى التي كانت تعاصر الامبراطور المغربي السلطان أحمد المنصور الذهبي 1578م.

ولقد أخذ سفراؤنا يسجلون انطباعاتهم عن الزيارات التي يقومون بها لانجلترا لهدفين إثنين :

- أولا : ارضاء لاستطلاعهم هم حيث انهم كانوا يشاهدون في الأراضي الانجليزية ما لم يكونوا قد اعتادوه على أرضهم...

ـ ثانيا : ان يقدموا للشعب المغربي صورًا ناطقة عن انجلترا باعتبارها المملكة المثالية في الديار الأروبية...

وكانوا يقصدون ـ دون شك أن يفتحوا عيون المواطنين المغاربة ويطلعوا أعضاء الحكومة عن آخر التطورات التي وصلت إليها تلك البلاد.

وهكذا نجدهم بمثابة المرشدين الأمناء لمواطنيهم وأبناء جلدتهم... شاهدنا بعضهم يكتب مذكراته بطريقة الرموز والشفرة على نحو ما نقل عن السفير عبد الواحد عنون الذي عهد إليه بمهمة دقيقة لدى الملكة اليزابيت الأولى، حيث كان يبحث في لندن طرق تعاون مغربي انجليزي للنزول في أمريكا والهند !!

لقد اتصل السفير عنون بمختلف الأوساط الانجليزية، وأخذ فكرة كاملة عن المجتمع الانجليزي ورأيناه يقوم بإجراء مفاوضات مع بعض العلماء، كان القصد منها العمل على دعوة عالم بريطاني للقيام بإلقاء دروس بالعواصم المغربية...

وقد شاهدنا أيام الملك شارل الثاني في بداية عام 1682 سفارة مغربية مهمة برئاسة الدبلوماسي المغربي المعروف ابن حدو الذي كان يفاوض من أجل الإجلاء عن مدينة طنجة، مبعوثا من ملك المغرب السلطان مولاي اسماعيل.

لقد ترك ابن حدو هذا انطباعا طريفا جدا لدى الشعب البريطاني، الأمر الذي تحدثت عنه المصادر الأروبية بكثير من الاسهاب، وخاصة وقد كان يعرف اللغة الانجليزية، وكان بطلا في ركوب الخيل والفروسية ! ويكفي أن نعرف أن هذا الدبلوماسي هو المغربي الأول الذي حصل على عضوية الأكاديمية البريطانية أو (الجمعية الملكية

البريطانية (Royale Society على ذلك العهد حسبما يحكيه جوهن إيفيلين (J. Evelyn الذي قام بإلقاء خطاب الترحيب بالعضو الجديد في الأكاديمية المشار إليها، وإذا كانت المصادر المغربية ظلت صامتة إزاء مرويات السفير ابن حدو عن هذه المهمة، فإن المصادر الانجليزية على العكس من ذلك كانت غنية بالمعلومات والانطباعات التي خلفتها زيارة السفير المغربي، بما في ذلك إشادته بخصال المجتمع البريطاني.

وهكذا فإن الزيارات المغربية لبريطانيا لم تنفك مستمرة ومتوالية، ونرى أنها كانت تحمل معها أفكارا جديدة ومعلومات مفيدة.

وقد شاهدت سنة 1860 سفارة مغربية هامة من الملك محمد الرابع إلى الملك فيكتوريا... ويتعلق الأمر بالسفارة التي تألفت من السيد عبد الرحمن العاجي ومحمد الشامي والطاهر الفاسي. هنا وجدنا كاتب السفارة يقوم بتسجيل كامل لسائر تنقلات السفارة داخل بريطانيا.

قرأنا وصفا دقيقا لاستقبال الدبلوماسيين المغاربة من لدن الملكة فيكتوريا...

ومن هنا يتحدث سكرتير السفارة عن الجيش البريطاني وعن الاستعراض لمختلف القوات العسكرية والمناورات الحربية... ومعامل السلاح، ولا يهمل الديبلوماسي المغربي الحديث عن التطور الذي حدث في أوروبا وبهذه المناسبة يعرض لأسباب اكتشاف القوة البخارية...

وقد انتقل سكرتير السفارة من هنا للحديث عن زيارته للمعارض والمتاحف والقناطر والمعامل والمؤسسات الحكومية بما فيها إدارة البريد والمواصلات...

وإذا كان المدونون لمثل هذه المذكرات لم يفصحوا بالضبط عن الغرض من حمل هذه المعلومات إلى المغرب، فإن كل الإشارات تدل - على ما أشرنا - على انهم كانوا يقصدون الفات النظر إلى التطورات الحاصلة في البلاد الأروبية حتى يأخذ المسؤولون المغاربة علما بما يجري ويظلوا مواكبين للمسيرة العالمية.

وبين أيدينا مخطوطه طريفه لأحد الدبلوماسيين المغاربة قصد - في بداية هذا القرن - الديار البريطانية، ويتعلق الأمر بالكاتب السيد الحسن الغسال الذي كان يرافق السفارة المغربية برئاسة القائد عبد الرحمن بن عبد الصادق، تلك السفارة التي قصدت العاصمة البريطانية موفدة من قبل جلالة السلطان مولاي عبد العزيز إلى جلالة الملك ادوارد السابع...

لقد قدم إلينا السيد الغسال معلومات طريفة عن الشعب البريطاني في هذا الوقت، وبخاصة سكان لندن العاصمة بمؤسساتها وسكانها، وبعض عادات أهلها.

ولقد اهتم الدبلوماسي المغربي منذ اليوم الذي حل فيه بلندن، وهو يوم الجمعة 27 يونيه 1902، بعدد في القضايا التي كانت بالنسبة للزائر المغربي جديرة بالاهتمام والتنويه.

لقد انزلت السفارة المغربية بحي الأعيان والكبراء جيمس سكوير (James Square)، رقم 74.

ولقد رسم الكاتب صورة للعمارات والشوارع والحدائق اللندنية آنذاك، كما وصف نهر التيمس (Thams) بما يخترقه من مراكب وما يركبه من جسور وخاصة الجسر الحديدي (البيرت بريدج Albert Bridge) ولم يهمل النفق الذي كان ينساب منه القطار الحديدي...

لقد استغرب الكاتب أن يلاحظ أن هناك ممرات ثلاثة في الوقت الواحد احدهما تحت الماء وثانيها على الماء، وثالثها على الجسر...

وفي الوقت الذي تحدث فيه عن مسلة الأسكندرية (Cléopatra's Needle) تحدث فيه عن المصابيح الكهربائية التي كانت قد وصلت إلى العاصمة من ذي قبل ! لقد شعر الكاتب المغربي وهو يتجول ليلا في شوارع لندن، وكأنه يتمشى في نهار مشمس لكثرة الأنوار....

وكم كان طريفا أن تقرأ في هذه المذكرات عن عربات لندن ونظام سيرها وعن رجال الأمن وأزيائهم وعن رجال المطافىء.

ثم عن الدور التجارية الكبرى بمصاعدها الكهربائية وحركاتها الدائبة. ولقد قدم لندن في هذه العبارة : «لقد انفردت لندرة على مدن المعمور بشدة الحركة في أشغال التجارة، وان قدر سكانها ما يقرب من ستة ملايين نسمة ويرى مصداق ذلك في الطرقات والأسواق والحدائق سيما في محطة طرق سكة الحديد التي هي مبسوطة في الأرض كالجداول متفرعة إلى جميع الجهات...».

وقد استغرب الدبلوماسي المغربي من الغيوم المتلبدة باستمرار في سماء العاصمة البريطانية وخصص فقرات من مذكراته لهذه الظاهرة التي لم يعتدها في السماء المغربية المشمسة باستمرار..!

وبعد أن يستعرض عددا من الأماكن التي زارها في العاصمة بما فيها المتاحف التاريخية والمسارح... وعددا من تقاليد القصر الملكي، نرى أن من أهم الانطباعات التي ارتسمت في ذهن الدبلوماسي المغربي كان ما يتعلق بمجلس العموم البريطاني...

فلقد حضر الفسال عشية يوم الجمعة 4 يوليه 1902 إحدى جلسات المجلس الذي سماه بدار مجمع نواب الأمة.

وبعد أن قدم تاريخا دقيقا لإنشاء البرلمان وقدم كذلك وصفا مفصلا للبناية، بما تضمه من صور ورسوم... قال : عنه «انه يحضره نائب عن كل ايالة أو عمالة وكيلا عنها في جميع مصالحها ودفع مضارها...

وهذا المجلس يقول الدبلوماسي المغربي مؤلف من فرقتين : فرقة إلى جانب المخزن (أي الحكومة) يحضرها كبراء الدولة والوزير المناسب لتلك المسألة التي تقع المفاوضة فيها، فإن كانت من أشغال الداخلية فيحضر وزيرها، وإن كانت من قبيل أشغال الخارجية فيحضر وزيرها أيضا، وهكذا العمل في كل قضية، اما الفرقة الأخرى فهي مقابلة للأولى، وتسمى بحزب الأحرار، وكيفية المفاوضة عندهم في سائر القضايا، أن يقوم خطيب من إحدى الفرقتين فيخطب على رؤوسهم بورقة بيده متضمنة لما دار في المسألة، ثم يقوم خطيب من الفرقة الأخرى مقابلا (معارضا) لها أو مسلما بحسب ما يقتضيه المقام، وفي صدر هذا المجلس محل مرتفع على هيئة المنبر يجلس فيه رئيس المجلس، وعلى رأسه قلنسوة بيضاء يتميز بها عن غيره، وأمامه كتاب يرسمون به ما يتلقونه من أفواه الخطباء في سرعة باهرة، ثم يقوم هذا الرئيس ويخطب خطبة متضمنة لما ترجح عنده من الخلاف الواقع بين الفرقتين، ويقيم على كل فصل من الفصول أدلة راجحة وبراهين قاطعة تشهد على ترجيحه حتى تكون المسألة واضحة كالشمس في الظهيرة...».

هذا ملخص الوصف الذي قدمه الغسال لمجلس العموم البريطاني.

ه ه ه

لقد كان المغرب يعاني قبل قرن من الزمان من متاعب الحمايات القنصلية الأجنبية، عندما توجه السيد محمد بركاش وزير الخارجية

المغربية باحتجاج ذات يوم إلى القنصل الأمريكي فيليكس ماثيوس، أجاب عنه هذا الأخير في رسالة بتاريخ 11 مارس 1880 بأنه مادام المغرب لا يتوفر على برلمان يحمي حقوق المواطنين سوف لا تكون هناك سيطرة على الذين يحتمون بالأجنبي ! ومن هنا وجدنا أن المغرب علاوة على مجالس العلماء الاستشارية يأخذ في توسيع دائرة الشورى بين الأعيان والتجار والصناع.

وقد كان وصف الدبلوماسي المغربي لمجلس العموم البريطاني مما لفت النظر مرة أخرى وبصفة جدية إلى ضرورة الاعتماد على مجالس الشورى...

وقد عرفنا من خلال تاريخ التطور الدستوري في المغرب عن الخطوات التي تمت في 1901 عندما استمزج السلطان مولاي عبد العزيز رأى رجالات المغرب من أمثال القائد عبد الله ابن سعيد عضو اللجنة السياسية بدار النيابة في طنجة...

وكذلك عام 1905 عندما وضع أمام الحكومة المغربية مشروع الإصلاحات العمرانية والاقتصادية والمالية... حيث وجدنا السلطان المذكور يستدعي كبار رجالات الدولة للاجتماع بمدينة فاس من أجل إبداء الرأي...

ان الذي يتتبع مظاهر الحياة في المملكة المغربية بما فيها بعض التقاليد التي تمس الحياة اليومية سيمكنه أن يلاحظ أن بعض تلك العادات كانت بتأثير من اتصالنا بأروبا وبخاصة بريطانيا التي ما انفكت علاقتنا بها متزايدة مستمرة منذ العصور الأولى التي أشرنا إليها...

ولا بد أن دراسة دقيقة لمذكرات الدبلوماسيين المغاربة ستزيد من معلوماتنا عن الشعب البريطاني، بل ان تلك المذكرات ستقدم للمجتمع البريطاني صورة طريفة لانجلترا ولعاصمتها بالأمس، كما أنها من جهة ثالثة ستعطي دليلا آخر على أن الماضي يعكس بظلاله دائما على الحاضر والمستقبل...

الرباط   **د. عبد الهادي التازي**

المغرب ودول الخليج
عبر التاريخ الإسلامي

محمد ابن تاويت

في نطاق الروابط بين دول الخليج والجزيرة العربية وبين المغرب، سأقتصر على هذه اللمحات التي تتضمنها الصلات التاريخية ومظاهر التبادل الحضاري.

إنها لمحات لا تعدو أن تكون منبعثة عن وقفات قصيرة إن دلت على شيء فإنها تدل على شدة التلاحم الذي كان يحكمه الحب الخالص والصفاء القلبي والميل المتبادل التلقائي، فكان القوم من الجانبين يعرف بعضهم الكثير عن بعض في تطلع دائب وشوق متلهف، كانوا يعرفون أكثر مما يعرفون في هذا العصر، الذي أصبحت فيه الدنيا عبارة عن بيت واحد تسكنه الأسرة الإنسانية جمعاء.

وهكذا كان المغرب العربي، بما فيه الأندلس، يعرف عن الشرق كل شيء، كما كان هذا الشرق يعرف عن المغرب كل شيء، ويطلع

كلاهما على كل ما جد في الآخر وعلى كل من ينجم في علم بتفوقه أو في فن بمهارته، أو يتجلى على مسرح الحياة بحكمه وسياسته.

لهذا لم يكن مستغربا من عباس بن ناصح إزاء أبي نواس، ولا كان بدعا من هذا أن يكون على اطلاع بزملائه في الأندلس وبالدولة التي كانت تهيمن عليه.

لقد حدث في هذا المضمار ما يقصه علينا ابنه عبد الوهاب قال :

كان أبي لا يقدم من المشرق قادم إلا كاشفه عمن نجم في الشعر، بعد ابن هرمة. حتى أتاه رجل من التجار، فأعلمه بظهور حسن بن هانئ، وارتحاله من البصرة إلى بغداد، والمحل الذي حله من الأمين، وبني برمك، فأتاه من شعره بقصيدتين احداهما قوله :

جريت مع الصبا طلق الجموح

والثانية :

أما ترى الشمس حلت الحملا

(2)

فقال أبي : هذا أشعر الجن والإنس، والله لا حبسني حابس عنه فتجهز إلى المشرق فأخبرني، قال : لما حللت بغداد نزلت منزلة المسافرين، ثم كشفت عن منزل الحسن فأرشدت إليه، فإذا بقصر على بابه حفدة وخدام، فدخلت مع الداخلين فوجدت الحسن جالسا في مقعد نبيل، وحوله أكثر متأدبي بغداد، يجري بينهم المثل والتمثيل والكلام في المعاني، فسلمت وجلست حيث انتهى بي المجلس، وأنا في هيأة السفر، فلما كاد المجلس ينقضي قال لي : من الرجل ؟ قلت : باغي أدب، قال : أهلا وسهلا، من أين تكون ؟ قلت من المغرب الأقصى،

وانتسبت له إلى قرطبة. فقال لي ، دار القوم ؟ قلت نعم، قال لي ، أتروي من شعر أبي المخشى شيئا من الذي قاله عندكم ؟ قلت له ، نعم. قال ، فأنشدني، فأنشدته شعره في العمى، فلما بلغت ،

كنت أبا للدرى إلا الدرى   ما فقأت عيني إلا الدنا

فقال ، هذا الذي طلبته الشعراء فأضلته.

ثم قال ، أنشدني لأبي الأجرب، فأنشدته،

ثم قال ، أنشدني لأبي بكر الكناني فأنشدته.

قال ، شاعر البلد اليوم عباس بن ناصح ؟

قلت ، نعم. قال ، فأنشدني، فأنشدته ،

فأدت القريض ومن ذا فأد

قال لي ، أنت عباس ؟ قلت ، نعم

فنهض إلي، فتلقيته، فاعتنقني، وضمني إلى نفسه، وانحرف لي عن مجلسه.... ثم نقلني إلى نفسه فكنت في ضيافته عاما.

(3)

هذه قصة ذكرها الزبيدي في طبقاته، وهي تحمل أكثر من معنى، ولكن كل ذلك يجعلنا نفهم وندرك تماما مدى ما كان عليه الرجلان، كغيرهما من رجالات الأندلس والمغرب الأقصى عامة ورجالات المشرق عامة من تتبع لأخبار أقطارهما في العلم والسياسة. التي اكتفى فيها أبو نواس بقوله عن قرطبة «دار القوم ؟» ويعرف من الشعراء المعاصرين أكثر مما نعرف عن معاصرنا.

هذا من جانبه، أما من جانب عباس فاهتمامه بما في المشرق، واتصاله الدائب به، واستطلاعه عنه حتى من التجار القادمين منه، حمله

كل ذلك على الاستهانة بمتاعب السفر الشاق، ولم يحل دونه في الاتصال بأبي نواس أي حائل، مهما ترامت الأقطار وتباعدت الشقات واختلفت السياسات.

كانت هذه الواقعة ـ كما رأينا ـ أيام الأمين، والمغرب والأندلس منفصلان تمام الانفصال عن الشرق في الحكم والمذهب.

أما فيما قبل هذا، فماذا حدث ؟

لقد حدث أيام أبي جعفر المنصور أن عبد الرحمن بن معاوية لجأ إلى المغرب حيث كان به أخواله وأخوال أبي جعفر المنصور، قبيل نفزة فمكث عبد الرحمن عندهم وتردد على طنجة كثيرا، وأخيرا استقر بالمزمة من الريف، حيث كان أخواله من نفزة كذلك، ومن هناك كان يجري الاتصالات بالأندلس ويمس النبض عن كثب، مستعملا مولاه بدرا في هذه المهمة. فلما رأى الفرصة سانحة ركب السفين، ومعه رجال من قبل أخواله نفزة ـ لا محالة ـ حيث رسا بالمنكب، شرقي مالقة، وبعد عراك مرير مع زعماء العرب والبربر تمكن من بسط سلطانه وإقامة عرش الدولة الأموية التي قدر لها أن تعيش بالأندلس أضعافا مضاعفة، مما عاشته في المشرق.

وفي نفس السنة التي توفي بها عبد الرحمن الداخل كانت دولة أخرى تنبثق من الشرق أيضا مدفوعة بالاضطهاد الذي دفع به عبد الرحمن ـ وحيا الله الاضطهاد فإنه قد يأتي بالعجائب التي لم تكن في الحسبان.

تلك دولة الأدارسة التي كانت كسابقتها أول دولة حقيقية تتأسس بالمغرب والإجماع من المؤرخين على أن هذه الدولة أقضت مضاجع بني

العباس فعملوا كل ما أمكنهم لوأدها في مهدها، بعدما فشلوا في بث الاضطراب حيال الدولة السالفة فلقنهم عبد الرحمن درسا صامتا شهده الحجيج في مكة، تلقنهم فيه الرؤوس المقطوعة ومع هذا كله فإن عبد الرحمن لم يجرؤ على اعلان الانفصال التام، بل كان في خطبه يذكر الخليفة العباسي كأنه كان واليا من قبله، ولقبه أبو جعفر بصقر قريش تعبيرا منه عن إعجابه العظيم بهذا الرجل العصامي.

أما إدريس ومن بعده فإن الموقف منه كان يختلف عن الآخر، هذا الاختلاف يكمن بادئا في المذهب العقلي، ولم يكن هذا له وجود فيما بين الأمويين والعباسيين حيث كان الاختلاف سياسيا وإن استغل الأول ردحا من الزمن، لكن القوم ما وصلوا إلى هدفهم حتى خلعوا ربقته من عنقهم، وأصبحوا أشد خصومة له من الأمويين...

كان التشيع ولا شك مصاحبا لإدريس وقد نجا بنفسه من المذبحة التي أجريت على قومه في موقعة فخ أيام الخليفة الهادي. وهذا ما يجعلنا نفهم الدافع الذي جعل المتشيعين من الفرس بالعراق يهرعون إلى المغرب حيث يجدون المولى إدريس الأصغر وهو يبني عاصمته العتيدة فاس، فيعملون بأنفسهم في بنائها، كما نفهم مما ذكره المؤرخون أن جدارا من سورها سقط على بعضهم فقتلوا وأقيم بالمكان باب نسب إليهم، وكان المولى إدريس قد عين لهم مكانا من العاصمة الناشئة يسكنونه وهو المدعو «عين علون» والمعروف حتى وقتنا بعين علو.

ولما مات المولى إدريس الأصغر وتوزعت المملكة بين أولاده كان منهم ومن أحفاده من كانت عاصمة إمارته مدينة البصرة. ولا شك أننا نتساءل لماذا سميت باسم المدينة العراقية. ألا يكون هذا نوعا من

الارتباط أو الالتزام الذي كان يتمثل في العراق عامة والبصرة منه خاصة، ألا يكون الأمير الإدريسي يحلم في مدينة إمارته أو عاصمتها بما كانت عليه مدينة البصرة عاصمة العلم والأدب والتفكير والإبداع القائم على القياس ومناهج العقل المنظم.

ربما كان هذا أو شيئا من هذا، فقد عرفت مدينة البصرة المغربية ازدهارا علميا وأدبيا وتفتحت على آفاق واسعة وقصدها الأدباء والعلماء والشعراء من المغرب والأندلس والمشرق، وكان من هذا المشرق شاعر أتى من المدينة وأقام في جوار وادي ورغة وقال شعرا يحن إلى مدينته، ويصف فيه أهل ورغة بكونهم لا يفهمونه تماما، كما ذكر ذلك ابن عذاري

وهذا عجيب على عكس ما كان واقعا من المغرب تجاه مكة والمدينة ارتباطا بأداء فريضة الحج فتكون الهجرة منهم شيئا مفروضا لا يسترعي الانتباه ولا يستحق التنبيه، بخلاف العكس حيث نجد الشاعر المديني أو المدني يؤم بصرة المغرب، ولكن ربما كان هذا ارتباطا بهؤلاء الذين كانوا بتلك الجهات من المشرق وجرت عليهم كارثة الإبادة التي منوا بها من قبل العباسيين.

وسبق أن وصفنا دولة الأدارسة بأنها كانت أول دولة حقيقية تتأسس بالمغرب. نعم إنها لكذلك أما دولة بني مدرار، التي تقدمتها بنحو نصف قرن وجعلت عاصمتها بالجنوب حيث سجلماسة، فإنها لم تكن بتلك الصفة من النظام والاعتدال والاستقرار والاتساع بل كانت إمارة خارجية صفرية، تتسم ـ كما هو معروف من الخوارج الصفرية ـ بالشدة في المراس والعناد في المذهب، فكانت بهذا شبه منقطعة، منطوية على

نفسها، وإن حاولت بعد أن تربط علائقها بالأندلس، بعد أن ارتبطت بدويلة أخرى خارجية، تأسست بعدها في الجزائر، حيث تاهرت أو تيارت، قريبا من وهران، وهذه وإن كانت على الخارجية إلا أن خارجيتها كانت معتدلة تتسم بالتسامح، ويقوم عليها علماء، تكونوا في مدارس الشرق العربي والحجاز، وكان في مقدمتهم مؤسس هذه الإمارة، عبد الرحمن بن رستم.

كان هؤلاء بذلك الاعتدال لأنهم خوارج إباضية يشبهون في مرونتهم وسماحتهم الزيدية من أهل الشيعة، وقد بلغ بهم هذا التسامح أن جامعهم كان يضم حلقا علمية من مختلف المذاهب والنحل الإسلامية، وكان اتصالهم بالأندلس أشد من اتصال هؤلاء المدراريين بها لدرجة أن كان بعض وزراء الأمويين منهم، وذكر مصحفا في نصوص التاريخ با بن وسيم، مع أنه ا بن رستم، كما تنبه لذلك ليڤي بروفنسال.

ومن الملاحظ على هذه الدولة أنها كانت دولة علم وأدب في أمرائها وفي رجالها المبكرين بنبوغهم مثل بكر بن حماد العالم الضليع والشاعر الذي عرفت شاعريته قصور العباسيين فكان يزامل أبا تمام في أمداحه للمعتصم الخليفة العباسي.

ثم عاد إلى المغرب وتوجه إلى البصرة حيث مدح أميرها الإدريسي وكان في ركابه . ويشارك بأشعاره في نضاله فوجدنا له أشعارا ذكرت في كتب التاريخ السياسي ككتاب البيان لا بن عذاري.

والمهم أن الانفصام السياسي أو المذهبي لم يكن بتلك الحدود التي نتصورها ولم يكن بتلك الحدة التي تطبع بعض المواقف منه، بل كانت

الاتصالات حتى في الشدة. كما نجد بين الأدارسة والأغالبة. مثالا لذلك في كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب ومما يسمى الآن بالاتصالات الد بلوماسية

وإذا تركنا العراق جانبا وعشرات العلماء من المغرب والأندلس وكذا الأدباء يحكمون الصلة معه، وفي هؤلاء من الأندلسيين مثل الهواري أبي موسى، والغازي بن قيس، وجودى النحوي، والشمر بن نمير المحدث وعبد الله بن الغازي، وابنه محمد، ويحيى الغزال، وعثمان بن المثنى، ومحمد بن عبد الله الغازي المتوفي بطنجة بعد الآخر بنحو عشرين سنة، ومحمد الخشني، ومحمد بن موسى الأقشتين، ومنذر بن سعيد البلوطي، وثابت السرقسطي، وغيرهم كثيرون مذكورون بطبقات اللغويين والنحاة وفقهاء المالكية وفي سجل الأدباء الشعراء بنحو اليتيمة، وكلهم كانوا في عهد مبكر يبتدئ بأواخر القرن الثاني وينتمي إلى الرابع وفيما بعد هؤلاء نجد آخرين في مثل الخريدة للأصفهان ومعجم السفر للسلفي وغيرهما ممن ذكره المقري في نفحه من الجانبين ومن هؤلاء من توجهوا إلى اليمن وخصوصا منه زبيد، وقد كان اليمن منتمي لكثير من العلماء الأندلسيين والمغاربة على السواء منهم القاضي عياض وزميله القاضي ابن زنباع في العصر المرابطي والقاضي الأغماتي في العصر الموحدي لأن الفاتحين الأوّل كانوا من اليمن في مغلبهم، ثم كانوا من غيرهم وفيهم مثل أسد بن الفرات فاتح صقلية من قبل الأغالبة فهو من فقهاء العراق الذين كان لهم صيت عظيم بين المالكية وإن لم يكن على مذهبهم، أما غير هؤلاء من العراقيين، فكان زرياب من المهاجرين إلى المغرب الذي أقام به ثم عبر الزقاق إلى الأندلس حينما وجه في

طلبه الحكم الأموي اليهودي منصور فاستجاب لطلبه وكان منه ما كان ولما توفي الحكم هم زرياب بالرجوع إلى المغرب وعبور الزقاق مرة أخرى، غير أن منصور نصحه بالعدول عن الفكرة ولعل إقامته أولا كانت بسبتة أو بطنجة لأن التاريخ يلح في عبوره على ذكر الزقاق المذكور وبعد زرياب الذي كان له دور حضاري في الأندلس، نجد القالي يعبر من المغرب إلى الأندلس ويكون له مدرسة أدبية لغوية كان منها مثل ابن القوطية العالم الموسوعي.

وبعد القالي نجد صاعدا البغدادي العالم اللغوي والأديب الحافظ الذي لا يجحد علمه ولا تنكر فصوصه، بالرغم من التألب الذي واجهه والإغراض الذي عاناه كما كان آخرون من العراق مثل أبي جعفر بن محمد البغدادي الذي أقام بالنكور ثم عبر إلى الأندلس، وبعدها عاد إلى المغرب فسئل عن الأندلس فأجاب ، والله لقيت بها مالم أتوهم أن أراه، مع نأي دارها، لقد رأيت فقهاء وشعراء، ونحويين وأدباء.

سوى هؤلاء في هذا العهد كان آخرون من الشعراء المتكسبين مثل محمد بن زريق البغدادي

كما كان آخرون وإن لم يرحلوا إلى الأندلس فقد رحلت كتبهم إليها مثل الأصفهاني الذي ظهرت أغانيه بالأندلس قبل أن تظهر بالمشرق ومثل كتاب العين للخليل الحضرمي أكب عليه الأندلسيون وتناوله الزبيدي بالتهذيب الذي حافظ عليه فاعتمد كأنه أصل (كما فعل الزبيدي فيما بعد بلسان العرب).

كما كان آخرون من الأندلس هاجر ذكرهم إلى الشرق العربي مثل القلفاط الذي فضله في بغداد المعوج على ابن عبد ربه لقوله ،

يا غـزالا عـن لـي فابـتز قلبـي ثـم ولـى
أنت مني بفـؤادي   يـا منـى نفسـي أولـى

ومما ذكر في النسبة إلى حضرموت، أنها ظلت باقية في الأندلس وعاشت في المغرب حيث وجدنا منهم مثل عائلة عبد المهيمن الحضرمي ثم في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع كان منهم صاحب كتاب «بلغة الأمنية» وأما المنسوبون إلى زبيد، فكان منهم من تقدم ذكره وابن عم له عبد الله بن حمود.

وبالاختصار فإن الانتساب إلى البلاد العربية (أو الفرق والأفراد) في الشرق العربي لم يكن قاصرا على الشعب من أندلسيين ومغاربة أفرادا وأسرا، من مثل العراقيين في المغرب والحميريين في الأندلس والمغرب، حيث وجدنا في سبتة منهم الحميري صاحب الروض المعطار، بل حتى أسر الأمراء والملوك الذين كان منهم بنو صالح أصحاب النكور والريف من مليلية أو «روسادير» الفنيقية شرقا إلى «بادس» المرفأ الفنيقي غربا، ثم كانت الدولة المرابطية تنسب إلى اليمن وذكرها شعراء الأندلس بالنسبة الحميرية وكانت تدين بخلافة العباسيين وتذكر خلفاءهم في خطبها وتنقش أسماءهم على عملتها وتتخذ السواد في أعلامها، وكذا الموحدون، وإن لم يعترفوا بالخلافة لغيرهم، فقد كانوا ينتمون إلى قيس عيلان ويذكرهم شاعر الخلافة بذلك. وتلاهم المرينيون الذين وإن ينتسبوا إلى أصل عربي فقد كانوا هائمين بالشرق الإسلامي العربي والبلاد المقدسة منه خاصة. وبعدهم السعديون الذين لا شك في أن أصلهم من الجزيرة العربية، كما أن العلويين كانوا قد هاجروا إلى المغرب منها.

أما في الأندلس فأغلبها كان ينتمي إلى الشرق العربي، علماء وأدباء وأمراء، وأقليتهم كانوا من المغرب مثل بني شهيد وابن دراج وابن خفاجة وبني حمود أو ينتسبون إلى فارس مثل ابن حزم.

وعلى كل حال فهكذا كان القوم متفتحين على العالم الذي كانوا سادته، متفرغين له متمتعين بنعيمه، مبتهجين بحالهم، مطمئنين إلى مآلهم، فكان التعارف التلقائي والاتصال الذي كان دوما يساهم فيه حتى التجار، فيحملون الكتب والقصائد الشعرية أو دواوينها، ويعرفون برجالهم، كما يعرفون برجالها، فكان النشاط مستمرا والتعبئة عامة من الجميع، من المحيط إلى الخليج.

تطوان محمد بن تاويت

مشاركة علماء العربية في

مباحث نشأة اللغة

د. صلاح الفرطوسي
كلية التربية/جامعة بغداد

ما من شك في أن اللغة مظهر لكل نشاط يصدر عن العقل، وهي سلاح نفسي نسيطر به على أفكارنا، لذا يقول ماكس مولر ، لا أفكار بلا كلمات (1). كما أن برگسون يرى أن الذكاء لا يستطيع التحرر من روابط الغريزة إلا باللغة إذ أنها وسيلة التحول من السلوك الغريزي إلى السلوك الذكي. وهي أداة التفكير في المعنى حتى أن فرويد يرى أن الشعور ليس أكثر من نشاط عقلي يرمز إليه برمز بطقي (2). واللغة فوق هذا وعاء لتجارب الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم، وهي ليست هبة من هبات الطبيعة التي قدمتها للإنسان إنما الحاجة إلى الاتصال هي منبع اللغة (3).

1) اللغة في المجتمع 116 و 119 ومناهج البحث في اللغة 10.
2) اللغة في المجتمع 120.
3) اللغة في المجتمع 115 ومناهج البحث في اللغة 9.

من هنا فقد لقي البحث اللغوي عناية خاصة من جمهور كبير من العلماء في شتى أرجاء المعمورة، وفي كل عصور الحضارة الإنسانية وكان من بين بحوث اللغة المهمة التي شغلت أذهان الدارسين منذ القدم وحتى الآن البحث في نشأتها. وقد بذلت في هذا الجانب جهود كبيرة وكان للعقل العربي الإسلامي مساهماته الجادة في هذا الميدان ونحن نهدف من وراء هذا البحث أن نسلط الضوء على هذه الإسهامات في ضوء كل الجهود التي بذلت في هذا الميدان.

واللغة عند ابن جني «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» (4). والملاحظ أن أغلب التعريفات الحديثة للغة يمكن أن تندرج فيه. فسوسير يرى أن اللغة مجموعة من الصور الذهنية التي توجد في عقل جماعة من الجماعات، والتي يمكن أن تخرج إلى الوجود على شكل كلام، والكلام هو ما يحدث من أصوات لغوية صادرة من الإنسان كما أنه يرى أن للغة وجهين : الأول فردي والثاني اجتماعي ولا يمكن تصور أحد هذين الوجهين دون الآخر (5). ويرتضي ابراهيم أنيس التعريف القائل بأن اللغة (نظام عرفي لرموز صوتية يستعملها الناس في الاتصال بعضهم ببعض) (6) إذ أنها تتألف من أشياء مترابطة يحكمها نظام معين في توزيع أصواتها ونماذج محددة في بناء كلماتها كما أن لها عرفا اجتماعيا يحكمها. وأصواتها أوضح مظاهرها (7) كما أنها (منظمة عرفية للرمز إلى نشاط المجتمع تشتمل على عدد من الأنظمة يتألف كل واحد منها من

---

4) الخصائص 1 / 33.
5) أصوات اللغة 16 و في علم اللغة العام 32.
6) اللغة بين القومية والعالمية 11.
7) المصدر السابق 11 ـ 19.

مجموعة من المعاني تقف بإزائها مجموعة من الوحدات التنظيمية المعبرة عن هذه المعاني) (8) ولها نظام من الرموز الصوتية قيمته في الاتفاق عليه بين الأطراف التي تتعامل به (9). وأنت تلاحظ حينما تعود إلى تعريف ابن جني للغة أنه قد تضمن أهم عناصرها وذلك بتأكيده على طبيعتها الصوتيــة ووظيفتهــا الاجتماعيــة واختلافهــا باختــلاف المجتمعــات الإنسانية (10).

البحث في نشأة اللغة

على الرغم من أن البحث في نشأة اللغة كاد يتوقف منذ فترة طويلة لوعورته، وخاصة بعد أن وجد العلماء القدامى منهم والمحدثون أن الاستمرار فيه لا يؤدي إلى نتيجة علمية مقبولة من كل الوجوه، ولعل أقدم من اشار إلى الانصراف عنه من علماء المسلمين تاج الدين السبكي (11) وقد رد السيوطي على من ذهب إلى هذا الرأي بقوله : إن في البحث في نشأة اللغة فائدتين : الأولى فقهية والثانية نحوية (12) كما أن أي دارس للغة يجد نفسه مدفوعا للتفكير في نشأتها إذ أنه من القضايا الهامة التي تثار في ذهنه بالإضافة إلى كونه من مسائل فقه اللغة الهامة (13).

ويبدو أن التفكير في نشأة اللغة بدأ منذ مرحلة مبكرة من مراحل الفكر الإنساني فقد تناوله بالبحث عدد من فلاسفة اليونان كما أغرى

8) اللغة العربية معناها ومبناها 24.
9) علم اللغة العربية 10.
10) مدخل إلى علم اللغة 10.
11) المزهر 1 / 26 وينظر أيضا في علم اللغة العام 81 وعلم اللغة مقدمة للقارىء العربي 56.
12) الاقتراح 33.
13) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي 55.

بعض الملوك القدماء إذ روى (هيرودوت) أن أحد الفراعنة المصريين أراد البرهنة على أن اللغة المصرية القديمة هي أصل اللغات في العالم وقام من أجل ذلك بتجربة علمية فريدة، فعزل طفلين منذ ولادتهما وكفل لهما الغذاء في صمت تام، ثم انتظر حتى سمعهما ينطقان أول كلمة (14) ولا تهمنا خيبة الأمل التي أصيب بها هذا الفرعون في تجربته وما كان يتوخاه من نتيجة بقدر ما يهمنا أن نشير إلى أن البحث في هذا الميدان من أقدم البحوث التي واكبت الحضارة الإنسانية. فالفرعون المصري أراد أن يبرهن أن اللغة المصرية هي أصل اللغات وأراد أن يبني برهانه على أسس علمية، وهذا يدل على أن البحث في هذا الميدان قطع شوطا بعيدا حتى وصل إلى ما وصل إليه في تلك الفترة.

وقد حاول العلماء بطرق شتى الوصول إلى نظرية مقبولة في هذا الميدان وبذلوا جهودا مضنية فراقبوا لغات القبائل، ودرسوا لغات الإشارة عند بعضها بعد أن وجد (تيلور) أن لها قواعدها كما أن الوقت الذي تستغرقه لا يزيد كثيرا عن الوقت الذي يستغرقه تعبيرنا باللغة الكلامية، كما راقبوا سلوك الحيوانات والطيور (15).

وحاول بعضهم استكشاف بعض أسرار نشأتها الأولى بدراسة النشأة اللغوية عند بعض الأطفال الذين عثر عليهم في الغابات والصحاري غير أن ما توصلوا إليه يدعو إلى خيبة الأمل إذ أن الأطفال بعد انتقالهم إلى البيئات الإنسانية الجديدة ما لبثوا أن نطقوا كما ينطق الناس في مجتمعهم الجديد (16).

---

14) دلالة الألفاظ 13 ـ 14.

15) علم اللغة 81 ـ 96.

16) دلالة الألفاظ 14 ـ 15.

وأنت تقرأ في هذا الجانب من البحث أشياء طريفة، ففي القرن السابع كان عالم سويدي يؤكد لمستمعيه أن الرب في جنة عدن يتكلم السويدية وأن آدم كان يتكلم اللغة الدنيمركية وأن الحية كانت تتكلم الفرنسية. وفي العقد الرابع من القرن العشرين يؤكد عالم تركي أن اللغة التركية هي الأساس الذي اشتقت منه بقية اللغات (17).

والأثر الديني في تفسير نشأة اللغة واضح ليس عند علماء المسلمين فحسب إنما عند غيرهم فذهبوا إلى أنها وحي وإلهام، وكان اعتماد الأوربيين في هذا الشأن على ما جاء في سفر التكوين (والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الإسم الذي يضعه له الإنسان، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول) (18)، ويستدلون أيضا بما جاء في السفر نفسه في قصة بابل من أن الناس حاولوا اتخاذ مدينة عظيمة وبرجا شامخا يطاول السماء، فبلبل الله ألسنتهم وجعلهم فرقا وشيعا لكل فرقة لغتها الخاصة وانتشروا في الأرض وهكذا تعددت لغات البشر، غير أن بعض الباحثين يؤكد أن (بابل) ليست من البلبلة إنما هي (باب إيل أي ، باب الرب) (19). وذهب إلى هذا الاتجاه في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني (هيراكليس) وفي العصر الحديث الأب لامي في كتابه فن الكلام (20).

---

17) دلالة الألفاظ 14 ـ 15.

18) عن علم اللغة 98.

19) دلالة الألفاظ 15.

20) علم اللغة 98 ودلالة الألفاظ 15.

جهود علماء العربية في مباحث نشأة اللغة

أشاد بعض المنصفين من المستشرقين بالجهود الكبيرة التي بذلها علماء العربية وبالإسهامات الجادة التي لم يسبقوا إليها (21) وليس من شك في أن كل تلك الجهود حدثت عقب ظهور الإسلام وبعد أن تحولت العربية إلى لغة دعوة عالمية تتكلم بها شعوب مختلفة (21). وكما اهتم علماء العربية في كثير من مشكلاتها اهتموا اهتماما خاصا بنشأتها ودارت بينهم مناقشات جادة استمرت لقرون عدة. ولأهمية هذا الجانب من البحث أفرد له كل من ابن فارس والسيوطي الباب الأول من كتابيهما الصاحبي والمزهر، وكأنهما أرادا أن يكون فاتحة للبحث في موضوعات علم اللغة وفقهها، كما أفرد له ابن جني بابا من كتابه الخصائص.

ويبدو أن أقدم رأي عربي في أصل نشأة اللغة ما نقل عن ابن عباس إذ قال : إنها وحي وتوقيف من عند الله إذ (علمه الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل) (22) ووافقه مجاهد فروى عنه قوله ان الله سبحانه علم آدم اسم كل شيء وقال غيرهما إنما علمه أسماء الملائكة. وقال آخرون : إنما علمه أسماء ذريته أجمعين (23) مستندين في ذلك على قوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) (24). وقد وافق أحمد بن فارس في كتابه الصاحبي في فقه اللغة ابن عباس فقال : اعلم أن لغة العرب توقيف ودليل ذلك قوله تعالى.. الآية. مشيرا في ذات الوقت إلى ما ذهب إليه ابن عباس. ثم بسط لنا

---

21) في علم اللغة العام 21 وينظر أيضا تاريخ اللغات السامية 215 والعربية 61.
22) الصاحبي 6 وينظر أيضا المزهر 1 / 8 و 1 / 28 والاقتراح 31.
23) المزهر 1 / 8.
24) البقرة 31.

القول في كيفية التعليم إذ أنه لم يتم في مرحلة واحدة إنما علم آدم ما يحتاج إليه من اللغة في زمانه ثم علم الأنبياء من بعده ما شاء الله أن يعلمهم بحسب حاجتهم حتى انتهى الأمر إلى نبينا (ص) (25).

وأنت تلاحظ أن هذه الطائفة من العلماء اعتمدت على مدلول كلمة التعليم الواردة في الآية الكريمة، فتعليم الأسماء من الله وكذلك الأفعال والحروف لأنها أسماء أيضا، وهم يحتجون بأن الله قد ذم قوما اخترعوا أسماء غير توقيفية في قوله (إن هي إلا أسماء سميتموها) (26) ومعنى هذا أن بقية الأسماء توقيفية، كما قالوا : إنه جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى : (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) (27) ثم إنهم ذكروا حججا أخرى منها إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة العرب كما أنه لم يبلغ علمهم أن قوما من العرب في زمان يقارب زمانهم أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه (28) وكانت حجج أصحاب هذا الاتجاه مثار نقاش، وأجيب عنها بأنه (لم لا يجوز أن يكون المراد من تعليم الأسماء الإلهام إلى وضعها ولا يقال : التعليم إيجاد العلم... بل التعليم فعل يترتب عليه العلم ولأجله يقال : علمته فلم يتعلم (29) كما يمكن القول بشأن اختراع أسماء غير توقيفية (انه تعالى ذمهم لأنهم سموا الأصنام آلهة واعتقدوها) (30).

---

25) الصاحبي 8
26) النجم 23.
27) الروم 22.
28) المزهر 1 / 10.
29) المصدر السابق 1 / 19.
30) المصدر السابق.

وذهب جمهور من علماء المسلمين إلى أن اللغة مواضعة واصطلاح وذلك (كان يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا إذا ذكر عرف به مسماه ليمتاز من غيره وليغني بذكره عن احضاره إلى مرآة العين... فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم وقالوا : إنسان، إنسان، إنسان فأي وقت سمع هذا اللفظ علم المراد به هذا الضرب من المخلوقات وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا : يد، عين، رأس، ونحو ذلك) (31).

ويبدو أن المعتزلة هم أول من قال إن اللغة تواضع واصطلاح لأن اللغات عندهم (لا تدل على مدلولاتها كالدلالة العقلية ولهذا يجوز اختلافها) (32) كما أن اللغة لو كانت توقيفية لتقدمت واسطة البعثة على التوقيت والتقدم باطل إذ لا بد من واسطة بين الله والبشر وهو النبي) (33) وبيان بطلان التقدم قوله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) (34).

وكانت آراء أصحاب هذا الاتجاه مثار نقاش أيضا؛ فبشأن بطلان تقدم واسطة البعثة على التوقيت مثلا قيل : إنه يجوز أن يخلق الله فيهم العلم الضروري بأن الألفاظ وضعت لكذا وكذا) (35) وذهبت طائفة أخرى

---

31) الخصائص 1 / 44.
32) المزهر 1 / 20.
33) المصدر السابق 1 / 18.
34) ابراهيم 4
35) المزهر 1 / 19.

إلى القول بالتوقيف مرة والاصطلاح في أخرى ولم تستطع القطع برأي، ومن هذه الطائفة ، أبو علي الفارسي وأبو الحسن الأخفش (36).

وذهبت طائفة أخرى إلى القول بأن قدرا من اللغة يثبت اصطلاحا وقدرا آخر منها يثبت توقيفا ومن هذه الطائفة أبو إسحاق الإسفراييني وجوز الغزالي الوجهين، ويرى عبد الملك بن عبد الله الجويني الملقب بإمام الحرمين ، أن العقل يجوز في نشأة اللغة التوقيف والاصطلاح (37).

ويلخص فخر الدين الرازي آراء علماء العربية في هذا الجانب بأن (الألفاظ إما أن تدل على المعاني بذواتها أو بوضع الله إياها أو بوضع الناس، أو بكون البعض بوضع الله والباقي بوضع الناس) (38)، وذكر أن عباد بن سليمان هو الذي قال بأن الألفاظ تدل على المعاني بذواتها وقد رد هذا الرأي بأن اللفظ لو دل بالذات لفهم كل واحد منهم كل اللغات (39). ويرى الرازي وأتباعه أن الجانب الاجتماعي هو السبب في وضع الألفاظ أي أنها وضعت بعد أن التقى الإنسان بأخيه ووجد أنه لا يستطيع الاستغناء عنه بجميع حاجياته وأنه لا بد له أن يتعاون مع أخيه ويتعرف به، وهذا لا يتم إلا بوسائل عدة، كالحركات والإشارات والنقوش، وقد وجد أن أفضل الوسائل وأيسرها وأعمها وأفيدها هي الألفاظ التي توضع بإزاء المقاصد إذ أن حروفها (كيفيات تعرض لأصوات عارضة للهواء الخارج بالتنفس الضروري) (40) بدون تكلف كما أن هذه

36) الخصائص 1 / 40 ـ 41.
37) المزهر 1 / 21
38) المصدر السابق 1 / 16.
39) المصدر السابق
40) المصدر السابق 1 / 38.

الأصوات موجودة عند الحاجة معدومة عند انتقائها وتصلح لكل شيء بينما الوسائل الأخرى لا تصلح لكل شيء لذلك صارت موضوعة بإزاء المقاصد (41).

ابن جني ونشأة اللغة

وأنت تلحظ حيرة ابن جني في أصل نشأة اللغة في بداية الفصل الذي عقده لهذا الموضوع إذ أنه (محوج إلى فضل تأمل) (42). فإذا كانت الآية تدل على أنه سبحانه (علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات فكان آدم وولده يتكلمون بها ثم إن ولده تفرقوا في الأرض وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها) على هذا فإنه (يجب تلقيه باعتقاده والانطواء على القول به) (43) غير أنه لا يستطيع قبول هذا التفسير كما أنه لا يستطيع رفضه لأنه حينما يتأمل اللغة يجد فيها (من الحكمة والدقة والإرهاف) مما يقوي في نفسه الاعتقاد في (كونها توقيفا من الله سبحانه وأنها وحي) (44).

ويرى أن أكثر أهل النظر يقولون : إن أصل اللغة (تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف) (45). أما الآية فقد تؤول بأنه سبحانه أقدر آدم على أن واضع عليها. وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة) (46) ومما يقوي عنده هذا الاتجاه ويؤيده ما يشاهده من (اختراعات الصناع لآلات

41) المصدر السابق.
42) الخصائص 1 / 40.
43) المصدر السابق 1 / 41.
44) المصدر السابق 1 / 47.
45) المصدر السابق 1 / 40.
46) المصدر السابق 1 / 46.

صنائعهم من الأسماء) (47) مما دفعه إلى تجويز الأمرين معا في باب آخر من أبواب الخصائص (48).

وابن جني صاحب الفضل في ذكر أقدم رأي صوتي يصل إلينا في المصادر العربية في نشأة اللغة وهو (أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء، وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس) (49) ويرى أنه رأي صائب يمكن الأخذ به، ومما يؤسف له أنه لم يصرح باسم قائله ولم ينسبه لأحد وقد حاول الدكتور حسام النعيمي العثور على صاحبه أو من قال به قبل ابن جني إلا أنه لم يوفق بالرغم من الجهد الذي بذله (50) ويبدو أنه من الآراء التي كانت معروفة في زمان ابن جني ولا يعرف مصدرها، إذ أن ابن جني كان حريصا على عزو الآراء لأصحابها أمينا حينما ينقل عن الآخرين (51).

ويؤيد ابن جني أبا الحسن الأخفش في رأيه بشأن نشأة اللغة إذ يرى أنها نشأت في مراحل عدة بحسب الحاجة قال : (لا بد أن يكون وقع في أول الأمر بعضها ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعي إليه فزيد فيها شيئا فشيئا) (52) ويرى أن نشأتها الأولى لم تكن تركيبية بالصورة التي عليها الآن، إذ أنها تتكون من الأسماء والأفعال

---

47) المصدر السابق 1 / 45.
48) المصدر السابق 2 / 28
49) المصدر السابق 1 / 46 ـ 47.
50) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني 272.
51) ابن جني النحوي 43 والدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني 33.
52) الخصائص 2 / 28 وينظر أيضا الاقتراح 33 ـ 34.

والحروف، وكل قسم من هذه الأقسام لا بد أن يكون قد نشأ في مرحلة معينة ولا يمكن تحديد السابق منها (53).

ويمكن القول أن ابن جني استطاع أن يجمع لنا أهم الآراء في نشأة اللغة حتى زمانه وحجج أصحابها كما أنه لم يتعصب لرأي معين لأنه كأي عالم موضوعي لم يستطع الوصول إلى رأي قاطع في هذه المسألة كما أضاف شيئا جديدا بقي ماثلا حتى العصر الحديث كما سيتبين لنا.

الاتجاهات الحديثة في نشأة اللغة

بالرغم من التطور الذي واكب البحث اللغوي في العصر الحديث لم يستطع العلماء الوصول إلى رأي قاطع في نشأة اللغة، وكل النظريات التي توصل إليها العلماء وجدت من يعارضها ويدحضها بالحجج والبراهين فلم يستطع الباحثون التوصل إلى رأي قاطع يطمئنون إليه. ونحن لا نهدف إلى عرض النظريات لما ورد فيها من معلومات قد تنير لنا سبل الوصول إلى أصل نشأة اللغة، إنما هدفنا أن نتعرف على مدى مشاركة علماء العربية القدماء في هذا الجانب من البحث. وقد ذهبت آراء المحدثين في اتجاهات عدة هي :

الاتجاه الأول

ويرى أصحابه أن أصل نشأة اللغة يعود إلى الإلهام والتوقيف وقد نادى به من المحدثين الأب لامي ودوبونالد (54) وقد تبين لنا فيما سبق وضوح الجهد العربي الإسلامي في هذا الاتجاه.

---

53) الخصائص 2 / 30 ـ 40 وينظر أيضا الاقتراح 34.

54) علم اللغة 7 وانظر أيضا دلالة الألفاظ 16 وفي علم اللغة العام 70 ـ 71.

الاتجاه الثاني

ويذهب أصحابه إلى أن اللغة استحدثت بالاتفاق والتواضع والاصطلاح وممن نادى به من المحدثين آدم سميث وريد ودجلر ستيوارت (55) والجهد العربي الإسلامي واضح فيه أيضا، ولو أنك عدت إلى تعليق ابن جني في شأن ما يراد من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الأسماء (56) لوجدت أنه مثال يدعو إلى التأمل فعلا إذ أنك من خلاله سترى أن كثيرا من الألفاظ يمكن أن تستحدث بالتواضع والاصطلاح، وهي التفاتة من هذا العالم الفذ لم يسبقه إليها أحد، ولا شك في أنه لو أعطى هذا الجانب من البحث جهدا أكبر لوفق إلى نتائج قيمة جدا.

الاتجاه الثالث

ويذهب أصحابه إلى أن النشأة الأولى للنطق الإنساني بدأت بعد أن اجتمع الإنسان بأخيه الإنسان وبصورة جماعية وفي أثناء قيامهم بأعمال مشتركة (57) وقد اشار ابن جني في تعريفه للغة إلى أهمية الجانب الاجتماعي وإلى اختلافها باختلاف المجتمعات كما أن الرازي وجماعته تحدثوا بوضوح عن هذا الاتجاه في أثناء حديثهم عن سبب وضع الألفاظ وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

---

55) علم اللغة 98 ـ 99.

56) الخصائص 1 / 45.

57) دلالة الألفاظ 26 ـ 27.

الاتجاه الرابع

ويذهب أصحابه إلى أن اللغة في نشأتها الأولى كانت تقليدا للأصوات الطبيعية التي سمعها الإنسان ثم إنها تطورت وارتقت تبعا لتطور العقلية الإنسانية وارتقائها (58) ويقرر الدكتور وافي أن هذا الاتجاه ذهب إليه (معظم المحدثين من علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة وثني، وذهب إلى مثله من قبل هؤلاء كثير من فلاسفة العصور القديمة ومن مؤلفي العرب بالعصور الوسطى) (59) غير أننا لم نجد كما سبقت الإشارة إلى ذلك من تعرض إلى هذا الرأي قبل ابن جني وأشرنا إلى أن بعض الباحثين تتبع الأمر في المصادر المثيرة فلم يعثر على ما يؤيد ما ذهب إليه الدكتور وافي (60) ويرى الدكتور وافي (أن هذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة) (61) إلا أن رينان يرى أن هذا الاتجاه يضع الإنسان في مرتبة تالية للحيوان بتقليده له ومحاكاته. كما أن جبرسن يرى أن تلك الأصوات لا دلالة لها عند الحيوان في حين أنها ذات دلالة محددة عند الإنسان (62).

الاتجاه الخامس

ويرى أصحابه أن اللغة نشأت عند الإنسان بسبب غريزة خاصة زود بها كانت تحمله على التعبير عن مداركه بكلمة خاصة. كما أن غريزة التعبير عن انفعالاته الخاصة من فرح أو غضب أو دهشة أو خوف

---

58) علم اللغة 103 ـ 106 ودلالة الألفاظ 20 ـ 23 وعن اللغة والأدب والنقد 32.

59) علم اللغة 104.

60) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني 271.

61) علم اللغة 105.

62) عن اللغة والأدب والنقد 32 وانظر أيضا في علم اللغة العام 73.

تحمله على القيام بحركات خاصة والنطق بأصوات معينة وهذه الغريزة كانت متحدة عند جميع الناس في طبيعتها ووظائفها وبفضل ذلك إتحدت المفردات عند الجماعات الإنسانية الأولى (63) ومن أشهر من نادى بهذا الاتجاه ماكس مولر معتمدا على بحث في أصول اللغات الهندية الأوربية إذ توصل إلى أن مفردات هذه اللغات ترجع جميعها إلى خمسمائة أصل مشترك وإن هذه الأصول تمثل اللغة الأولى التي انشعبت منها هذه الفصيلة، وتبين له أن هذه الأصول تدل على معان كلية والعلاقة بين أصواتها ودلالاتها علاقة اعتباطية (64) وقد رد هذا الاتجاه لأن الأصول التي ذكرها ماكس مولر تدل على معان كلية. وإدراك المعاني الكلية لا بد أن تتهيأ له عقلية راقية متطورة لا يمكن أن تصور وجودها في فاتحة النشأة الإنسانية (65).

الاتجاه السادس

ويرى أصحابه أن هناك (صلة وثيقة بين ما ينطق به المرء من أصوات وبين ما يدور في خلده من أفكار، ويرون أن كل أثر خارجي يتأثر به المرء يستلزم النطق ببعض الأصوات. وهذه قوة أو قدرة اختص بها الإنسان منذ الخليقة إلا أنهم يعترفون أن سر هذه القوة لا يزال غامضا) (66) ويقول ابراهيم أنيس إن أكبر ما يوجه إلى هذه الاتجاه من

63) علم اللغة 99 ـ 103 ودلالة الألفاظ 23.

64) علم اللغة 100.

65) المصدر السابق 103.

66) دلالة الألفاظ 23.

لقد (أنه بني على أساس غامض وأحاطه أصحابه بالألغاز والسحر مما جعل معظم اللغويين الآن يمرون به مر الكرام) (67).

الاتجاه السابع

ويرى أصحابه (أن هناك ارتباطا طبيعيا بين الكلمة وما تدل عليه ومن هنا فإن العالم الخارجي بكل مظاهره ينعكس في سيكولوجية الإنسان بما يقابله من أصوات يرتبط بها ارتباطا طبيعيا (68) وسبق أن المحنا إلى هذا الرأي وقلنا إن عباد بن سليمان أول من نادى به كما ذكر فخر الدين الرازي، وقد رد لأن اللفظ لو دل بالذات لفهم كل فرد كل اللغات لعدم اختلاف الدلالة الذاتية (69) وهو عين الرد الذي رد به المحدثون هذا الاتجاه (70).

ويرى جبرسن أن كل النظريات التي تناولت نشأة اللغة لا تفسر إلا بعض جوانب النشاط اللغوي، ولا خير في الاعتراف بها على ألا نجعلها أو نجعل أحدها مصدرا وحيدا لنشأة اللغة، ويرى أنه من الضروري لمعرفة أصل نشأة اللغة أن ندرس لغة الطفل في مراحلها المختلفة ولغة القبائل البدائية وتاريخ اللغات (71) وهو بحث يحتاج تفصيله إلى وقفة أخرى.

من كل ما تقدم يتبين لنا مدى الجهد الذي بذله علماء العربية في هذا الجانب من البحث.

بغداد

د. صلاح الفرطوسي

---

67) المصدر السابق 24.

68) عن اللغة والأدب والنقد 33.

69) المزهر 1 / 16 ـ 47.

70) عن اللغة والأدب والنقد 33.

71) عن اللغة والأدب والنقد 33 وانظر أيضا دلالة الألفاظ 28 ـ 32 وعلم اللغة العام 76 ـ 78.

مصادر البحث ومراجعه

- ابن جني النحوي د. فاضل السامرائي - دار النذير - بغداد 1969 م.
- أصوات اللغة د. عبد الرحمن أيوب - مطبعة دار التأليف - القاهرة 1963 م.
- الاقتراح السيوطي - تحقيق أحمد محمد قاسم - مطبعة السعادة - القاهرة 1976 م
- تاريخ اللغات السامية أ. ولنسون - دار القلم - بيروت 1980 م.
- الخصائص ابن جني - تحقيق محمد علي النجار - ط الثانية - مطبعة دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت.
- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني د. حسام النعيمي - دار الرشيد بغداد 1980 م.
- دلالة الألفاظ د. ابراهيم أنيس ط الثالثة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة 1976 م.
- الصاجي في فقه اللغة أحمد بن فارس - تحقيق أحمد صقر مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة 1977 م.
- العربية يوهان فك - ترجمة عبد الحليم النجار. مطبعة دار الكتاب العربي - القاهرة 1951 م.
- علم اللغة د. علي عبد الواحد وافي ط السابعة دار النهضة القاهرة.
- علم اللغة مقدمة للقارىء العربي الدكتور محمود السعران - دار المعارف - القاهرة 1962م.
- علم اللغة العربية د. محمود فهمي حجازي وكالة المطبوعات - الكويت 1973 م.
- عن اللغة والأدب والنقد د. محمد أحمد العزب ط الثانية - مؤسسة الرسالة - بيروت 1980 م.
- في علم اللغة العام د. عبد الصبور شاهين ط. الثانية مؤسسة الرسالة بيروت 1980 م.

- اللغة بين القومية والعالمية د. ابراهيم أنيس - دار المعارف - القاهرة 1970 م.
- اللغة العربية معناها ومبناها د. تمام حسان - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة 1973 م.
اللغة في المجتمع م. م. لويس ترجمة تمام حسان - مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة 1959 م.
- مناهج البحث في اللغة د. تمام حسان دار الثقافة - الدار البيضاء 1979 م.

- مدخل إلى علم اللغة د. محمود فهمي حجازي دار الثقافة - القاهرة 1978 م.
- المزهر السيوطي تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين - مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة.

د. ص. ف

الصّناعة التقليدية للآلات الموسيقية

عبد العزيز بن عبد الجليل

مدخــل : يعتبر البحث في الآلات الموسيقية علما قائما بذاته، ويختص «علم الآلات» بالنظر في كل ما يتعلق بالآلات الموسيقية سواء من حيث تاريخ ظهورها ونشأتها ومراحل تطورها، أو من حيث تركيبها، وطبيعة أصواتها ومنطقتها الصوتية، ووظيفتها، ومنزلتها وصناعتها ومراكز هذه الصناعة وطرق تسويتها.

ويشكل علم الآلات - إلى جانب العزف عليها - الناحية العلمية التطبيقية لعلوم الموسيقى، وذلك في مقابل الناحية النظرية التي تهتم بالبحث في قواعد الموسيقى وتاريخ الفن الموسيقي ووجوه تفاعله أخذا وعطاء.

ونظرا لسعة الميادين التي تنضوي تحت «علم الموسيقى» فقد بات طبيعيا أن تتجاوز الاستفادة من علم الآلات حدود المهتمين بالموسيقى - سواء منهم الممارسون للعزف والغناء أو النظريون الباحثون في ضوابطها

وقواعدها أو المؤرخون لها والمنظرون ـ لتشمل ميادين أخرى ربما لا تقل عن غيرها رحابة وأهمية، وأعني بها كل ما يتعلق بصناعة تركيب الآلات التي تعتبر ـ إلى جانب الصوت البشري ـ الوسائل الضرورية لتجسيم كل الآثار الموسيقية والتي بدونها لن يكون لتلك الآثار أي صدى مسموع.

وفي هذا الصدد يقول إخوان الصفا (1) : «إن الحكماء قد صنعوا آلات وأدوات كثيرة لنغمات الموسيقى وألحان الغناء، متفننة الأشكال، كثيرة الأنواع، مثل الطبول والدفوف والنايات والصنوج والمزامير والسرنايات والصفارات والسلبان والشواشل والعيدان والطنابير والجنك والرباب والمعازف والأراغن والأرمونيقي، وما شاكلها من الآلات والأدوات المصوتة (2)».

وهكذا ارتبطت الموسيقى بميدان الصناعات اليدوية منذ القديم، وأصبح للصناع الحرفيين اليد الطولى التي تتحكم في هذا الفن، طالما أنهم المسؤولون عن إعداد وتوفير الوسائل الكفيلة بتبليغ آثاره إلى الآذان. وليست هذه الوسائل سوى الآلات الموسيقية ذاتها.

وإن مما يؤكد أصالة الطابع الحرفي لصناعة الآلات الموسيقية أن يخضع جلها لتسميات ذات مدلولات صناعية صرفة، وذلك كأن تسمى باسم المادة التي تصنع منها، أو بما يدل على نوع أدائها أو شكل صنعها. فمن الآلات التي تحمل أسماء موادها : العود ـ ومعناه الخشب ـ والرق ـ

---

1) رسائل إخوان الصفا، ج 2. ص 202.

2) هو عند المسعودي في مروج الذهب : السلبان. وشرحه المسعودي بأنه ذو أربعة وعشرين وترا، وتفسيره الفصوت ج 4. ص 221.

ومعناه الجلد - والقرب - وهي قرب الاستسقاء - والقصبة - أي الناي المصنوع من القصب - .

ومن الآلات التي سميت بما يدل على نوع أدائها : الدربكة - ومعناه الضجيج - والدف والصفارة والمزمار.

ومن الآلات التي سميت بأسماء تدل على شكلها : المربع - وهو الدف - مربع الشكل، والمجنب - وهو دف ذو جوانب، والقوس -

ولقد واكب التطور الحاصل في الصناعة التقليدية تطور مماثل في صناعة الآلات الموسيقية بدورها، ومن ثم فنحن لا نستبعد أن تكون المناطق الصناعية بالمغرب قد احتضنت خلال فترات ازدهارها ونشاطها صناعات آلية، لا ريب أنها كانت متنوعة بتنوع الحرف التي سادت فيها. وهكذا فقد أفادت صناعة الأنسجة والخيوط الحريرية في صنع الأقواس والأوتار، كما أفادت صناعة الجلد في تجليد الطبول والبنادير، وساهم تطور النجارة في ابتكار أشكال صناديق العيدان وأطر الطبول، كما ساهمت صناعة الخزف في صنع التعاريج والدرابك وما شاكلها من آلات إيقاعية، وصناعة الحدادة في صياغة الصنوج ونواقيس الروايس وغيرها.

ولا ريب أنه كان للصناعات التقليدية دور كبير في إغناء أسرة الآلات الموسيقية، بما ابتكره الصناع من نماذج وأشكال مستحدثة، وأضافوه إليها من زخارف ونقوش، أو أضفوه عليها من تحسينات زادت من بهاء مظهرها ودقة صنعها وحسن عطائها.

ولعل من أروع ما تتميز به صناعة الآلات الموسيقية ذلك التكامل الذي يحصل بين الصناع الحرفيين في صناعة الآلة الواحدة، حتى لكأنها حقل تلتقي فيه المهارات وتلتئم حوله الجهود ، فهذه آلة العود يلتقي في

إعداد أجزائها كل من النجار والنقاش والعواد والخراط والنساج، ثم هذه آلة الرباب على بساطة مظهرها يتضافر في تجميع أجزائها النجار والدباغ والنساج والخراط.

ولقد افضت ممارسة صناعة الآلات بكثير من الحرفيين إلى تعاطي الموسيقى والغناء، فظهر من بينهم المغنون والعازفون، وارتقى الحس الفني ببعضهم إلى قرض الشعر وصوغ الألحان، وكان لرجال الملحون خاصة قصب السبق في هذه المجالات، فظهر فيهم رجال جمعوا إلى جانب صناعة الموسيقى ممارسة الحرف المختلفة، كان فيهم الدراز كالحاج أحمد الغربلي ومحمد الجابري وعبد القادر الودغيري. وكلهم من فاس، وبنعيسى الدراز من مكناس، وفيهم الحرار والمجادلي كمحمد الفلوس العلمي والطاهر أوفقير والتهامي بناني وكلهم من الرباط، وفيهم الدباغ كالحاج محمد بن عمر من مراكش والغالي الدمناتي من فاس.

كما حفلت قصائد أشياخ الملحون بذكر الآلات الموسيقية حتى لكأنها سجل لتدوين أسمائها، يقول الشيخ عبد العزيز المغراوي في قصيدته «عانس لبكار» متغزلا :

واعمل ارباب وعيدان بعد اشباب ولمفرد حضى نقرات بلجهار

ويقول في قصيدة «القاضي» :

والآلا وارباب يهوى ناس الغيوان كان صاح والعود انفايمو اوضاح
والطير إيصيح بجناجل آلا صنعا امحكما

ويقول الشيخ التهامي المدغري في الصبُّوحي :

شوف العود والقانون والجنح والجنك اكمنجـا واسنيتـرا احـداهـا
واربـاب امعـا الآلى إيجاوبـوا بـنـغـايـم لـوتـار

ولعل من المناسب قبل الخوض في موضوع صناعة الآلات الموسيقية أن نقوم بإطلالة سريعة على نشأة هذه الآلات ومراحل تطورها. وأن نتعرف على أنواعها، ثم مدى ما أسهم به المغاربة في التعريف بها.

ويفضي بنا النظر في هذا الموضوع إلى التساؤل عن تاريخ ظهور الآلات، فيطالعنا الجواب بأن الموسيقى ـ وإن تكن قديمة قدم الإنسانية ـ فإن ابتكار الآلات واستعمالها في إحداث الآثار الصائتة جاءا متأخرين بالنسبة للغناء. وعلة ذلك أن الغناء ألصق بالفرد، وأن أداته ـ وهي الصوت ـ من صميم تكوينه. فلا عجب أن يهتدي إليها وإلى استعمالها في إحداث أصوات منغومة قبل أن يهتدي إلى غيرها من الآلات المصطنعة.

على أننا نستطيع اعتبار أعضاء الجسم من أقدم ما اهتدى الإنسان إلى استعماله كأدوات موسيقية. ويدخل ضمن ذلك ما يسمى بالموسيقى الجسدية. وهي كل أنواع التصفيق ولطم الوجوه والصدور والأفخاذ. فلقد صفق الإنسان بيديه وضرب بهما على فخذيه، ووقع بقدميه على الأرض. ولعل ذلك كان تعبيرا عن حالة نفسية أو مصلحة طارئة، ثم ولد فيه ذلك التصفيق وهذا الضرب إحساسا بتساوق الحركات ورتابة الإيقاع، فاستشعر اللذة في تكرارهما، وراح يعيد التصفيق ويكرر الضرب ليدرك بعد ذلك أن من ورائهما إيقاعا مضبوطا، ثم راح يبحث عما يعوض به يديه ورجليه، فاتخذ من عيدان الشجر أدوات يوقع بها، واتخذ من الجذوع مواقع ينقر عليها، فكانت تلك خطوته الأولى في طريق اكتشاف آلات النقر، فظهرت المقارع والشخاشيخ ونحوها، ثم اهتدى إلى العظام المجوفة والقرون المفتوحة الجانب، فنفخ فيها ومضى في درب الابتكار والاختراع يحث الخطى نحو الاستزادة من صنوف الآلات حتى انتهى به المطاف

إلى صنع الآلات الوترية التي تعتبر قمة ما ابتكره الإنسان في مجال صنع الآلات.

وهكذا تشكل قصة نشوء الآلات وتطورها رواية أخرى لقصة تطور الإنسان عبر العصور، وهي رواية تتسم بحيوية الابتكار، وتشد إليها المتتبع لفصولها شدا وثيقا.

ومجمل القول، فقد أجمعت كتب التاريخ العام على القول باكتمال ظهور الآلات الموسيقية في القرن الرابع قبل الميلاد، وأمكن منذئذ تصنيفها ضمن أسر ثلاثة هي آلات القرع، وآلات النفخ، وآلات الوتر.

وفي هذا التنصيف سنحاول أن نتعرف على أنواع الآلات الموسيقية التي استعملت ببلاد المغرب خاصة، اعتمادا بالدرجة الأولى على الواقع المشاهد في الأوساط المعنية، ثم بالرجوع إلى ما أمكن توفره من آثار مكتوبة في هذا الموضوع.

ولا بد هنا من الاعتراف بندرة المصادر التي عنيت بسرد أسماء الآلات الموسيقية المتداولة بالمغرب، فإننا إذا استثنينا مقدمة ابن خلدون، لا نكاد نعثر في كتب التاريخ المغربي إلا على عبارات وردت فيها إشارات إلى الآلات الموسيقية، تأتي أحيانا مفرطة في الاقتضاب لدرجة تشعر القارىء بتنكب المؤلف عن ذكر أسمائها عمدا ترفعا منه وتأففا،فإن هو اضطر إلى تسميتها نعتها بالملاهي أو بآلات الطرب. وأمام هذا الإجحاف لا يسع الباحث إلا أن يولي وجهه شطر مصادر أخرى ككتب التراجم والأعلام وفتاوي الفقهاء وما شاكل ذلك، بغية لم ماتفرق فيها من أخبار ومعلومات عن الآلات، تأتي أحيانا نادرة في فصول خاصة،

وتأتي أغلب الأحايين في استطرادات عابرة. وإذ نلم شتات هذه المعلومات فإننا لنعجب للحصيلة الضخمة التي نجدها بين أيدينا. وهكذا ننتهي بعد لأي إلى معرفة أسماء الآلات التي كانت متداولة بأرجاء المغرب منذ استقرار الحكم الإسلامي به.

ويرجع الفضل في الوقوف على أسماء هذه الآلات وأوصافها وطرق استعمالها إلى عالمين جليلين هما محمد بن الدراج السبتي المتوفى سنة 693 في كتابه «الامتاع والانتفاع في مسألة سماع السماع»، وعبد الرحمن بن خلدون في «مقدمته». فلقد أتيا على ذكر ما يناهز الأربعين آلة، حرصا على وصفها وصفا يبلغ في بعض الأحيان درجة متناهية من الدقة، الأمر الذي يدل بوضوح على مدى اهتمامهما بموضوع الآلات، ويجعل من كلا المصدرين وثيقة فنية لها قيمتها ولا غنى للمختصين عن الرجوع إليها.

وللتدليل على أهمية ما قدماه من معلومات في مجال التعريف بالآلات على عهدهما نكتفي بإيراد تعريفهما للشبابة.

قال ابن خلدون : هي قصبة جوفاء، بأبخاش في جوانبها معدودة، ينفخ فيها فتصوت، فتخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك الأبخاش. ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعا على تلك الأبخاش وضعا متعارفا.

ويقول ابن دراج : انها آلة محدثة . مركب أولها على الصفارة الجوفاء التي يصفر فيها الغلام.

ونستطيع من خلال تقصي الآلات المتداولة في أوساط ممارسي الموسيقى اليوم أن نقف على أصنافها. ونجملها فيما يلي :

آلات النفخ : البوق.

النيرة في الموسيقى الأمازيغية.

الزمرة الريفية.

الـنــاي.

الصفارة.

الغيطة.

النفير.

بوغانيم ، وهو مزمار أمذيازن. وله قصبتان.

ذوات الأوتار : الرباب - القانون - العود - الكمنجة - الفرخ - السمويسدي - الكنبري - الهجهوج.

القصْبِيتة : نوع من الرباب، ذات وترين من وبر الفرس. وتستعمله أجواق الرحامنة.

آلات القرع : الطبول - الصنوج - الدف - الطر - الدربوكة - قراقيب كناوة- الطبيلة المزدوجة - الطاسة - الكدرة - العلون (بندير الشلوح) البرازي (خوابي خزفية عند احمادشة) التعريجة - أكوال - البندير.

والآن. ماهي سبل التعرف على المواصفات الخاصة بصناعة الآلات الموسيقية، وما هي القطع والأجزاء التي تركب منها هذه الآلات ؟

تتطلب الإجابة عن هذا التساؤل الرجوع إلى مصدرين إثنين لا محيد عنهما في مثل هذا الموضوع.

أولهما ما أمكن الوقوف عليه من الآثار المكتوبة التي تطرقت عفوا، أو عن قصد لهذه الصناعة، وثانيهما الاتصال بالصناع التقليديين الذين يمارسون صناعة الآلات بأنواعها.

وهنا لا بد من الاعتراف بأن ما دُوِّن من معلومات حول هذه الصناعات يكاد ينحصر في وصف سطحي لأشكال الآلات في صورها المكتملة، مع الإشارة العابرة أحيانا إلى أسماء صانعيها أو إلى المادة أو المواد التي ركبت منها.

ومن هذه المعلومات النادرة ما يومىء إلى نسبة صناعة الآلات في العصور القديمة، من ذلك ما حكاه المسعودي إذ يقول ، اتخذ توبل بن لمك الطبول والدفوف، وعملت ضلال بنت لمك المعازف، ثم اتخذ قوم لوط الطنابير... والأكراد نوعا مما يصفر به... ثم اتخذ الفرس الناي للعود والدياتي للطنبور والسرياني للطبل، والسنج للصنج... وللروم من الملاهي الأرغل... والسلبان... واللورا... وهي الرباب وهي من خشب... ولهم القيثارة.. والصنج... والأرغن... وللهند الكنكلة (3)..

ومن تلك المعلومات أيضا ما قد يدل على طريقة صنع الآلات. ذكر عبد الله بن خرداذبه أنه سأله الخليفة المعتمد عن صناعة العود فقال ؛ أول من اتخذ العود لمك بن متوشلح... وذلك أنه كان له ابن يحبه حبا شديدا، فمات، فعلقه بشجرة، فتقطعت أوصاله، حتى بقي منه فخذه والساق والقدم والأصابع. فأخذ خشبا فرققه وألصقه، فجعل صدر العود كالفخذ، وعنقه كالساق، ورأسه كالقدم، والملاوي كالأصابع، والأوتار كالعروق، ثم ضرب به وناح عليه فنطق العود (4).

وبالرغم مما تتسم به أخبار ابن خرداذبه من غرابة حملت أبا الفرج الاصبهاني وغيره على عدم الاطمئنان إليها، ثم بالرغم من المسحة

---

3) مروج الذهب ج 4. ص 220 ـ 221.

4) نفس المرجع ج 4. ص 220.

الأسطورية التي تشوب هذه الحكاية، فإنها تنطوي على ما يوشك أن يكون رسما لشكل العود، فتجعل صدره كالفخذ، وعنقه كالساق، ورأسه كالقدم، ولوالبه كالأصابع، وأوتاره كالعروق، ثم هي تعرف بصنع الخشب فتجعله ألواحا رقاقا ملتصقا بعضها ببعض.

ومهما يكن من أمر، فإن المعلومات التي تجود بها الآثار المكتوبة لا تشكل سوى حصيلة نزوة إذا ما قورنت بما يمكن تجميعه من معلومات مستفيضة فيما لو أقبل الباحث على أوراش الصناع الحرفيين، يرصد أسلوبهم في إعداد أجزاء الآلات وطريقتهم في تركيبها.

ومن هنا يتجلى واضحا أن البحث في صناعة الآلات يكتسي طبيعة ميدانية، تقتضي البحث عن مراكز هذه الصناعة والتنقل عبرها من أجل ربط الاتصال بالحرفيين قصد تسجيل أقوالهم وتتبع أعمالهم ومعرفة المواد التي يستخدمونها في صنع أجزاء الآلات... إلى غير ذلك من المعلومات التي من شأنها أن تلقي مزيدا من الضوء على هذا المجال.

وأول ما يطالع الباحث في هذا الموضوع الحاجة إلى وضع خارطة للأوراش الحرفية التي تساهم في صنع الآلات، ذلك أن الآلة الواحدة تحتاج كي تستقيم كاملة جاهزة إلى صنائع متعددة ومختلفة المشارب والاختصاصات، وذلك تبعا لتعدد واختلاف المواد التي تصنع منها أجزاء تلك الآلة. وينتهي بنا تقصي الآلات المتداولة إلى معرفة الصنائع التي تحتضن أوراش صنع الآلات الموسيقية، وهي : النجارة والخراطة والحدادة والصباغة والدباغة والنقش والرسم وصناعات النسيج والخزف والحرير والقصب.

ففي هذه الأوراش يقبل الحرفيون في نشاط على عملهم، عمدتهم يد ماهرة صناع، وعين حاذقة وحس مرهف، وذوق خبير بأسرار الآلات وجوهر أصواتها ومدى أبعادها. ونفس تواقة إلى المزيد من تطويرها وتوسيع إمكانياتها وتحسين عطائها وتطعيمها بكل ما من شأنه أن يمنحها أداء أكثر جمالا وتعبيرا أكثر عمقا.

ونعود إلى المواد التي تصنع منها أجزاء الآلات فنجد أمامنا لائحة طويلة أستعرضها فيما يلي تباعا مع ذكر مجالات استعمالها.

الخشب : يستعمل في صناعة صناديق سائر الآلات الوترية وبعض أجزائها الصغرى كالعنق والقرمودة، كما تصنع منها دوائر الآلات الإيقاعية كالطر والبندير.

العود : تصنع منه لوالب الآلات الوترية وأقواسها وقضبان النقر والحمار وبيت السطعة والشماسة والعتبة.

القصب : تتخذ منها النايات والنيرة ومبسم الغيطة.

الحرير : يجدل وتصنع منه الأوتار. ويذكر أبو إسحاق التادلي في كتابه «أغاني السقا» أن عازف العود كان يضبط بها أوتاره الأربعة، فيجعل لوتر البم 64 خيطا، وللمثلث 38 وللمثنى 36، وللزير 27. أما شوطان ففي رأيه أن استعمال الأوتار الحريرية انقطع بالمغرب وعوض بمصران الضأن.

الأصداف : نعني بها أصداف السلاحف. وكانت تقوم مقام الصندوق الخشبي في كنبري الجنوب المغربي. وتستعمل قطع أصداف البحر أيضا في ترصيع وجوه العود والقانون.

القــرن : يصنع منه عراض الغيطة، وهو قطعة صغيرة مستديرة تفصل بين المزمار والمبسم.

الأمعـاء : تصنع منها حبال البندير وأوتار المصران في بعض أصناف الكمان.

الريــش : يتخذ مضرابا لنقر أوتار العود. وهو ما يسمى السطعة. ويقال أن زرياب كان أول من جعل المضراب من ريش النسر.

الجلـد : يستعمل في الغالب جلد الماعز رقا للطر والبندير والكنبري والطبيلة والكدرة والزمرة الريفية، وهي كربة يلصق بجانبها مزمار ينفخ فيه. وتتخذ أيضا من الجلد خيوط الهندقة التي تربطها بأصابع اليد. ويتخذ من جلد الحوت (الراية) وجه القانون.

النحاس : تصنع منه صنوج الطر ونواقيس الروايس والعوادات وهي نايات سوس، والنفير، والهندقة، وهي صناجات صغيرة صوتها كصوت الأجراس تستعملها راقصات الشلوح، وخواتم أجزاء النيرة الأمازيغية. وتصنع من النحاس أحيانا الدرابيك.

الحديـد : تصنع منه أمشاط العود وبعض أوتار الكمان الحادة، والمثلثات والطاسة، وقارقب كناوة.

الطيـن : يستعمل في صناعة الآلات الخزفية كالتعاريج بمختلف أحجامها وأكوال والدرابك والبرازي. وهي عبارة عن خوابي كبيرة يضرب عليها بالأيدي أتباع طائفة احمادشة.

ومن خلال الزيارات التي قمت بها إلى بعض أوراش العمل أمكنني الوقوف على طرق صناعة آلات العود والقانون والناي والكنبري.

وسوف أقصر الحديث فيما يلي على هذه الآلات.

1) ورش صناعة العـود :

يعتبر العود دون منازع، أقدم الآلات الموسيقية التي شقت طريقها من المشرق إلى المغرب والأندلس. تحتضنه أجواق الملحون وبعض أجواق الموسيقى الشعبية. وهو يحتل مركز الصدارة من بين آلات جوق الآلة.

كانت أوتاره قديما أربعة، ثم أضاف إليها زرياب وترا خامسا. ويبدو أن عددها على عهد المولى اسماعيل عاد إلى أربعة حسبما نقله محمد بن الطيب العلمي في الأنيس المطرب عن أستاذه محمد البوعصامي. والعود المغربي في واقعه اليوم ذو خمسة أوتار مزدوجة ووتر إضافي منفرد.

وقد تحرى صانعو العيدان منذ القديم أن ينتقوا لها من الخشب ما كان جيدا يابسا، فيذكر ابن سيده في «الخصائص» أنها كانت على عهد العباسيين تصنع من خشب الوعس. وهو حسب الفيروزابادي : شجر تعمل منه البرابط والأعواد، ويذكر التنوخي في نشوار المحاضرة (5) أن العود العباسي كان يصنع من العود الهندي المعطر المستورد من بلاد الشرق الأقصى.

ويشترط إخوان الصفا في رسائلهم في العود أن يكون ألواحا رقاقا متخذة من خشب خفيف وأن يكون الوجه رقيقا من خشب صلب خفيف يطن إذا نقر (6) كما تحرى هؤلاء ضبط صندوقه على مقاييس معينة خوفا من تقلبات الطقس الخارجي وحرصا على حصول تجاوب متكافىء بين الأوتار، فاشترطوا في الصندوق أن يكون طوله وعرضه وعمقه على

---

5) ج 1. ص 196.

6) ج 1، ص 20.

النسبة الشريفة، وهي أن طوله مثل عرضه ومثل نصفه، ويكون عمقه مثل نصف العرض، وعنق العود مثل ربع الطول. فإذا افترضنا أن عرض عود ما يبلغ 30 سم كان قياس العود على النحو التالي :

العرض : 30 سم - الطول : 45 سم - العمق : 15 سم - العنق : 4 / 11 سم.

وقد استأثر العود باهتمام الأدباء والشعراء، فهذا إسحاق الموصلي يمر برجل ينحت عودا، فيقول له : لمن ترهف هذا السيف ؟

وهذا الحمدوني يقول في نفس الآلة :

وناطـــق بلـــسان لا ضمـــير لـه كأنـــه فخــذ نيطـت إلى قدم
يبدي ضمير سواه في الكلام كما يبدي ضمير سواه منطق القلم (7)

ولمكانته الأولى بين آلات الجوق يقول أحدهم :

كأنما العود في بيتنا ملك يمش الهوينا وتتلوه عساكره
كأنه إذ تمطى وهي تتبعه كسرى بن هرمز تقفوه أساوره

ويقول ابن عبد ربه :

يارب صوت يصوغه عصب نيطت بساق من فوقها قدم
جوفاء مضمومة أصابعها في ساكنات تحريكها نغم

ومن أروع الصور التي استعيرت من شكل العود ما قاله مالك بن لمرحل (8) في تشخيص منظر مدينة سبتة السليبة :

---

7) مروج الذهب، المسعودي ج 4، ص 220.

8) توفي سنة 690.

أخطر على سبتة وانظر إلى جمالها تصب إلى حسنه
كأنها عود غناء وقد ألقي في البحر على بطنه

وقد عقب ابن القاضي على هذا التشبيه فقال في «جذوة الاقتباس» :

«ولا شك أن سبتة شكلها في المنظر شكل عود الغناء موضوع في البحر على بطنه، رأسه وموضع مفاتله موضع القصبة. وهي المعمورة بالنصارى اليوم.... أعادها الله دار إسلام (9) ».

وإن من ألطف ما حكاه الاصبهاني عن فصاحة أوتار العود قوله في كتابه «الأغاني» : «كانت رقطاء الحَبَطية من أضرب الناس، فدخل رجل من أهل المدينة بيتها، فغنته صوتا، فقال له بعض من حضر : هل رأيت قط أو ترى أفصح من وتر هذه ؟ فطرب المدني وقال : علي العهد إن لم يكن وترها من مِعَى بشْكَسْتَ النحوي. فكيف لا يكون فصيحا ؟!.

وبشكست هذا كان نحويا بالمدينة، قتل مع خوارج عبد الله بن يحيى الكندي.

وللتعرف على صناعة العيدان زرت ورش السيد محمد بن أحمد بناني، وهو من مواليد مكناس حوالي سنة 1910. احترف الخرازة، ثم استبدلها بالنجارة. أحس منذ طفولته بالميل نحو الموسيقى والغناء، واستهوته آلتا الكنبري والماندولين، فالتحق بدار الجامعي سنة 1932 حيث تلقى دروس الطرب الأندلسي على يد أساتذتها الأوائل السادة محمد دادي ومحمد أشاواش وعزوز بناني وعبد السلام بناني، وأخذ عنهم ميازين الموسيقى الأندلسية كما تعلم العزف على العود والضرب على

9) ج 2، ص 327.

الطر، ثم أصبح أحد أعضاء الجوق الأندلسي المحدث بمكناس تحت رئاسة المرحومين دادي ثم مولاي أحمد المدغري.

وبمقتضى ممارسته للنجارة تحركت فيه الرغبة في إصلاح الأعواد المستعملة. ولم يلبث معمله بالقبابين أن اصبح ورشا مهما لصنع العيدان في وقت يؤكد بناني أنه لم يكن فيه بمكناس أي ورش لصناعة الآلات باستثناء الكنبري عند السراجة والدرابك عند الفخارة والطرور عند النجارة.

غادر السيد بناني مكناس قبيل الاستقلال، ليقيم بالدار البيضاء عشر سنوات، ثم ليستقر بالرباط حيث يقوم اليوم ورشه على يمين الداخل إلى قصبة الأوداية.

وبفضل المعلومات التي أمكننا تجميعها حول صناعة العيدان توصلنا إلى أن آلة العود تقوم على الأجزاء التالية.

الصندوق : يتركب من قسمين : الجبح والوجه.

الجبح : هو ظهر الصندوق، ويقوم على أضلع خشبية مستطيلة يتراوح عددها بين 13 و 21 ضلعا. يمكن الفصل بين الأضلع بقضبان من العود أو البلاستيك قصد تزيين ظهر العود. وأجود أنواع الأضلع ما يصنع من خشب الكركاع لمتانته وخفته ورطوبة سطحه ورنته المنغومة. ويزين ظهر العود أحيانا بقطع من البلاستيك.

الوردة : قطعة خشبية نصف هرمية، على رأسها ثقب ثلاثي الأضلع. وتركب بالجانب الأعلى من داخل الصندوق. وفي الطرف المقابل لها تثبت لوحة خشبية نصف دائرية.

وتعتبر الوردة واللوحة المقابلة لها بمثابة أعمدة لأضلع الجبح.

الــذراع : هو عنق العود. ويغطى وجهه أحيانا بلوحة من العود أو الصدف تعرف باسم «المرايا». والذراع هو محطة الأصابع عند العزف.

العـتـبــة : قطعة من العود الصامت عليها 11 ثقبا لتمرير أوتار العود (خمسة مزدوجة ووتر واحد منفرد).

القـرمــودة : قطعة خشبية تركب على رأس الذراع. وبجانبيها 11 ثقبا بعدد الأوتار، خمسة إلى أسفل العود وستة إلى أعلاه بالنسبة لوضعه عند العزف.

اللــوالــب : قطع من العود مثقوبة. تمرر بثقوبها الأوتار ثم تشد إلى ثقوب العتبة للتسوية.

الــوجــه : لوحة رقيقة جدا تصنع من خشب الأرز غالبا. ولا يتجاوز سمك اللوحة 2 مم. ويخضع شكلها لشكل الجبح. وتمتد على عرض اللوحة من داخل الصندوق مساطر خشبية دقيقة تكسب الآلة اهتزازا ورنينا. ويتراوح عددها بين 6 و 8.

الحـمّــار : خشبة من عود. تثبت على وجه الصندوق وتربط عليها أطراف الأوتار في مقابل القرمودة.

الفـتـحــات : ثقوب تحفر على وجه العود. وتتخذ أشكالا مختلفة. وهي من واحدة إلى ثلاث فتحات.

الشـمــاســة : لوحة من العود رقيقة مصنوعة على شاكلة شماسات النوافذ الجبصية تغطى فتحات العود. والشماسات بالإضافة إلى مظهرها الزخرفي ضرورية لإحداث الرنين في الصندوق. وقد لوحظ في السنوات الأخيرة جنوح بعض الصناع إلى الاستغناء عن وضع الشماسات على

فتحات العود. وهذه ظاهرة مؤسفة تخل بالمظهر الجمالي للآلة، وتقرب شكلها من شكل القيثارة، وتفقدها طابعها الأصيل.

بيت السطعة : لوحة رقيقة جدا تلصق على الوجه في أعلى الحمّار. وهي تحمي اللوحة من خدش السطعة عند العزف.

السطعة : ريشة ينقر بها على الأوتار، وهي من ريش أو صدف أو بلاستيك.

الأوتار : كانت حتى الخمسينات تصنع من مصران العنزي.

ورش القانون : القانون آلة وترية قديمة، يعود إلى العرب فضل اكتمالها ومنحها خصائصها الفنية. حمله العرب الفاتحون إلى المغرب والأندلس، وعرف فيهما باسم القانون أحيانا والسنطور أو السنطير أحيانا أخرى. ذكره ابن خلدون من بين الآلات الوترية الشائعة على عهده بالمغرب، ومنذ عهد بني مرين لم نعد نسمع لهذه الآلة ذكرا حتى قامت الدولة العلوية، فإذا بالعلمي يحي ذكرها في «أنيسه» تحت اسم السنطير، وتلاه التادلي المتوفى عام 1311 فساقها تحت اسم القانون.

ويبدو أن المغاربة لم يكونوا يقيمون وزنا للفوارق الموجودة بين القانون والسنطور، فالمدلول واحد مهما تعددت الأسماء.

وقد شاع استعمال القانون لدى أجواق الموسيقى الغرناطية بالرباط منذ استقرار الموريسكوس بها، ويتأكد هذا بمقتضى شهادة العالم الرباطي ابراهيم التادلي الذي منح هذه الآلة المرتبة الرابعة من بين أحسن آلات الطرب. وقد انتقل استعمالها بعد ذلك إلى حضيرة الآلة الأندلسية بنفس المدينة على يد الفنان الرباطي المعلم أحمد بالمحجوب زنيبر الذي كان يجند الفنين معا ، الغرناطي والآلة.

وبفضل ما أمكننا تجميعه من معلومات حول هذه الآلة نستطيع التعرف على طريقة صنعها.

صندوق القانون : هو مربع منحرف، ضلعه اليسرى موازية لضلعه اليمنى وأطول منها. سمك الصندوق حوالي 6 سم. وغاربه السفلى متحركة بمثابة بويبة صغرى تغطي عقد الأوتار (10).

الأرواح : هي مساطر خشبية تمسك أطراف الصندوق إلى بعضها وتلصق في جوف الصندوق على النحو التالي :

- ثلاثة مائلة إلى اليسار في القسم الأعلى من الصندوق.
- واحدة أفقية في القسم الأسفل من الصندوق.

وسمك هذه الأربعة نحو 2 سم.

- أربعة عمودية تمتد بين أسفل الصندوق والروح الأفقية. وسمكها نحو نصف سم.

الوجه : هو الوجه البارز للقانون ويصنع من شجر الأرز أو الكركاع.

الفتحات : ثقوب على وجه القانون عددها من ثلاثة إلى أربعة بحسب حجم الصندوق وتختلف أشكالها.

وفي الجزء الأسفل من وجه الصندوق بين الروح الأفقية وأسفله فتحات كبرى تقسمها الأرواح العمودية إلى خمسة فتحات متساوية.

الشماشات : لوحات رقيقة مصنوعة من عود على شاكلة شماسات العود. وتغطي الفتحات العليا من وجه الصندوق.

---

10) الغارب : هو جانب الصندوق عند أصحاب حرفة النجارة.

الـجـلــد : خمس قطع جلدية من جلد سمك الراية والعنزي، تغطي الفتحات الخمسة السفلى.

القرمودة : قطعة خشبية مستطيلة الشكل تلصق في محاذاة الضلع المائل من الصندوق، وهي محطة لوالب القانون.

ويحفر على وجه القرمودة 78 ثقبا موزعة بالتمادل على ثلاثة صفوف.

المــرايــا : قطعة خشبية من عود صلب توضع بيسار القرمودة موازية لها. وهي حاملة العراب.

الـحـمــار : قضيب من خشب صلب يمتد على عرض الصندوق فوق القطع الجلدية، ودور الحمّار هو الفصل بين الصندوق والأوتار.

كراسي الحمار : دوائر خشبية مخروطة توضع وسط القطع الجلدية بمثابة أعمدة لرفع الحمار الذي تمر فوقه الأوتار.

الـعـتـبــة : رؤوس خشبية صغيرة من عود، توضع على امتداد طول المرايا. عددها 26 رأسا. على رأس كل منها ثلاثة شقوق تسمح بتمرير ثلاثة أوتار. وتسمى العتبة أيضا المنشار،

الأوتــار : تمتد في وضع عمودي على امتداد طول القانون، ويبلغ عددها 78 بعدد ثقوب القرمودة.

الـعــراب : قطع نحاسية صغيرة صفراء مصنوعة على شكل معكوس الوضع. ويقابل كل وتر خمس أو سبع أو تسع عرابات بحسب حجم القانون وضع أولها ثابت بجذر رأس العتبة والباقي منها متحرك. ويبلغ العدد الإجمالي للعرابات 390 أو 546 أو 711.

اللوالب : هي كلوالب العود، وعددها كعدد الأوتار، وتصنع من شجر الليمون (الحامض).

الساروت : قطعة معدنية شبيهة بمفتاح الساعة الدقاقة، مهمتها تسوية الأوتار عن طريق تحريكها.

الحلقتان : قطعتان نحاسيتان على شكل خاتم تركبان في السبابتين عند العزف.

الريشة ، قطعة من قرن الحيوان تهذب بصقلها حتى تصبح رقيقة مرنة بقدر كاف وتولج بين باطن الأصبع و بين الحلقة.

ورش الناي : تعتبر النايات بسائر أنواعها رقيقة الفنان الموسيقي، وينتشر استعمالها في سائر أصناف الموسيقى المغربية باستثناء موسيقى الآلة وطرب الملحون. ويمتاز الناي عن غيره من المزامير بشيئين.

1 - النفخ فيه يجري مباشرة على حافته بخلاف الغيطة مثلا.

2 - إن صنعه يعتمد على مادة القصب دون غيرها.

طريقة صنع الناي :

نوع القصب : **تصنع** النايات من ذكر القصب البوري، وتنتقى قضبانها من رؤوس القصبات العليا. وينبغي في القصبة أن تكون عقودها ثمانية مهما كان نوع الناي المرغوب، وأن تحمل جعابا تسعة لا يزيد طولها على ثمانية أصابع ولا يقصر عن أصبعين اثنين.

وبعد انتقاء القصبة المناسبة تجوف من داخلها بحيث يمر الهواء بسهولة، ثم تحدث الثقوب على جانبيها.

وتحدد مواقع الثقوب بشكل دقيق للغاية انطلاقا من الطرف الأسفل للقصبة في وضع العزف وبعيدا عنه بمسافة لا تزيد على عشرة سم بالنسبة للنايات الكبرى ولا تقل عن ثلاثة سم بالنسبة للصغرى.

يبلغ عدد الثقوب ستة على الوجه، وثقبا واحدا من الخلف، ويكون وضعها على النحو التالي :

على الوجه : ثقبان تحت العقدة الثانية.

ثقب واحد فوق العقدة الثانية.

ثقب واحد تحت العقدة الثالثة.

ثقبان فوق العقدة الثالثة

في الخلف : ثقب واحد وسط الجمبة الخامسة.

وتختلف مقاييس النايات باختلاف مقاماتها الثمانية تدرجا من نغمة ضو إلى نغمة الجواب، وبذلك تبلغ المجموعة الواحدة ثمانية أنواع يسوى كل نوع على إحدى الطرق التالية :

- تسوية الدياپازون العادية.
- تسوية على دوكاه رصد، وهي تنزل بالقرار طنينا واحدا.
- تسوية على فا دييز، وهي تنزل عن قرار العادية بنصف طنين.

وبذلك يبلغ عدد النايات 24 نوعا.

وهذه أسماء المجموعة الواحدة :

1 - الحجاز كار : قرارها ضو

2 - الدوكاه:قرارها ري

3 - بوسليك : قرارها مي

4 - جهار كاه : قرارها فـا

5 ـ نوى : قرارها صـول.

6 ـ حسيني : قرارها لا

7 ـ الأوج: قرارها سـي

8 ـ الكردان (جواب الحجاز كار): قرارها ضو.

وتقضي العادة ألا يمارس صنع النا يات إلا من يحسن العزف عليها، وذلك لأن تسوية نغماتها تتم خلال إحداث الثقوب، الأمر الذي يفسر ندرة العثور على النا يات الجيدة.

ورش الكنبري :

تتصل صناعة الكنبري بحرفة تاسراجت (صناعة سروج الخيل)، وتدخل فيها مجموعة من المواد هي العود والجلد والسلك والحرير والنيلون والمصران.

وتندرج تحت تسمية الكنبري ثلاثة أصناف تتفاوت أحجامها :

ـ السوسان : هو أصفر الكنا بر وأكثرها حدة وعلو نغمة، ويتراوح طول حجمه بين 20 و 35 سم.

ـ الفرخ : أوسط الكنا بر حجما، يتراوح طول حجمه بين 40 و 50 سم.

ـ الهجهوج : هو أكبرها حجما وأكثر أوتارها غلظة، طول حجمه 55 سم تقريبا.

ومن الملاحظ أنه كلما صغر الكنبري كلما زاد صوت أوتاره حدة.

يستخدم الكنبري في الموسيقى الشعبية الأمازيغية بوتر أو وترين في أصنافه الصغرى وبأربعة أوتار في الهجهوج.

وفيما يلي وصف لطريقة صنع هذه الآلة :

الجبح : هو صندوق الكنبري، يتخذ من عود شجر الكركاع أو الصفصاف بحيث تؤخذ قطعة منه ثم تحفر من أحد جانبيها بمنقاش حديدي الرأس يدعى «الغنجاب»، ويستمر الحفر لغاية أن تصبح القطعة على هيأة نصف إجاصة مفرغة لا يتجاوز سمكها سنتمترا واحدا أو ثلاثة أرباع السم الواحد.

الذراع : عصا طويلة مخروطة من نفس العود، يخرط رأسها الأعلى على شكل «جامور» القبة، ويشق طرفها الأسفل على هيئة مشط ذات أسنان ثلاثة، ثم يولج في جوف الجبح من حلقه. وتحت «الجامور» تحدث ثلاثة ثقوب أسفلها إلى الأمام وأوسطها إلى اليمين وأعلاها إلى اليسار بالنسبة لوضع العازف.

الروح : قطعة صغيرة من العود، توضع في جوف الجبح تحت أسنان العصا، وهي في آن واحد تمسك العصا وتساعد على إحداث الرنين.

الجلد : قطعة من جلد الماعز تغطي وجه الجبح وفم الحلق، وتلوى على جنبات الصندوق حيث تلصق باللماقة (غراء الطحين) ثم تخاط أطرافها بخيط جلدي.

الفتحة : ثقب يحدث بالجلد في الطرف الأسفل من الوجه، وهي تسمح ببروز أسنان العصا حيث تركب رؤوس الأوتار.

الحمار : خشبة مخروقة على هيأة هلال، على سطحها شقوق لتمرير الأوتار وتحط على جلد الكنبري.

اللوالب : قطع خشبية مخروطة دقيقة الرأس، تولج في ثقوب العصا وتشد عليها الأوتار للتسوية.

الأوتـــار : تصنع أوتار الكنبري من السلك العادي أو المفتول، كما تصنع من الحرير المغلف بالنحاس (البندقي) ومن المصران، ويقوم النيلون مقام المصران اليوم.

الحزام : خيط من المصران أو النيلون يلوى على الأوتار أسفل موقع اللوالب. وهو يقوم مقام العتبة من العود.

المضـــراب : أداة نقر الأوتار. وهي من الخشب أو الريش.

هذه هي المراكز التي أسعفني الوقت للوقوف عليها خلال إعداد هذا العرض، وإذا كان علي أن اعترف بقصور هذه الدراسة عن استيفاء سائر المراكز الصناعية القائمة بالبلاد حقها من الوصف، فإن من واجبي أيضا أن اذكر أن هذه المراكز عرفت في السنوات الأخيرة تناقصا فادحا، ويتجلى ذلك في عدول بعض الصناع عن إنتاج الآلات الموسيقية إلى إنتاج بضائع استهلاكية أخرى، وكذا في عزوف هؤلاء ـ إلا قليلا منهم ـ عن أداء الرسالة التي قلدهم إياها معلموهم، وهي مواصلة تعليم أصول صناعة الآلات الموسيقية.

ونتيجة هذا أو ذاك أصبح من النادر جدا العثور على صناع ماهرين في مستوى «المعلمين» الذين عرفهم هذا الميدان في العقود الأولى من القرن الحالي، كما أصبح الحصول على الآلات الجيدة من قبيل المستحيل اللهم إلا ما تستورده دور التجارة الموسيقية من بضاعات أجنبية متعددة الجنسيات.

وإن من أخطر الانعكاسات السلبية على وضع هذه الصناعة ببلادنا أن تتسرب اليوم إلى أوراشها أساليب دخيلة ومتطورة في طرق صنع الآلات، وأن تغيب عن ساحتها مواد أولية كانت بالأمس عمدة أساسية في

تركيب أجزائها، كالمصران بالنسبة للأوتار لتعوضها مواد أخرى اصطناعية كالبلاستيك والنيلون، فإن أنت أمسكت بين يديك ما تنتجه تلك الأوراش من آلات ألفيتها غير ذات جنسية محددة، فلا هي شرقية ولا هي غربية، وإن أنت انتهت إلى سمعك أصداء أوتارها افتقدت فيها ذلك الطعم المغربي القديم وتلك الرنات الموسيقية الأصيلة وألقت بك في أجواء نفسية بعيدة عن الواقع المغربي.

وإن من أشد ما نخشى حدوثه أن ينقطع يوما أرباب الحرف التقليدية عن تداول المعارف التي تزخر بها دنيا صناعة الآلات الموسيقية، وهي معارف تشكل في نظرنا تراثا غنيا على المستوى النظري بمصطلحات عميقة الدلالة وذات مفاهيم حضارية تستوقف الباحث المتقصي وتملأ نفسه إعجابا وإكبارا.

ولعلني في غير حاجة بعد هذا إلى مناشدة أرباب صناعة الآلات الموسيقية أن يولوا اهتمامهم بهذا القطاع، وأن يعملوا في دأب على ضمان تعليم أصوله، ومضاعفة الجهد من أجل الرفع من مستوى إنتاجه، حتى يعيدوا لهذه الصناعة مجدها ويحفظوا للآلة المغربية هويتها.

وما من ريب في أن دعوة كهذه إنما هي في الواقع دعوة إلى حماية وترسيخ المقومات الفنية التي ترتكز عليها الموسيقى المغربية في ألوانها وأنماطها.

مكناس　　　　عبد العزيز بن عبد الجليل

مع أبي سالم العياشي
في رحلته إلى المشرق

عبد القادر زمامة

رافقنا مع قراء مجلة «المناهل» أبا الحسن التمكروتي في رحلته البحرية، إلى القسطنطينية، سفيرا للمنصور الذهبي، أواخر القرن العاشر الهجري، ووقفنا معهم على ما قدمه لنا السفير المغربي من معلومات متنوعة تمكس ثقافته واهتماماته (1)...!

وفي نفس إطار البحث والدرس، نرافق أبا سالم العياشي في رحلته البرية إلى الأقطار المشرقية في العقد الثامن من القرن الحادي عشر الهجري... والمقاصد غير المقاصد..! والأهداف غير الأهداف..! والاهتمامات غير الاهتمامات..! والطريق غير الطريق..!

ولنبدأ بالإطار الزماني، والظروف التي أحاطت بأبي سالم قبل أن نسير معه عبر القارات والأقاليم والمدن، والأمصار ورودا وصدورا...!

---

1) أنظر العدد 25 من مجلة المناهل - دجنبر 1982 م.

شاهد القرن الحادي عشر الهجري. والسابع عشر الميلادي في المغرب حياة علمية واسعة الاتجاهات في حواضره وبواديه، جبالا وسهولا، وصحاري وما إليها...!

وتعليل ذلك ورده إلى أسبابه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، هو موضوع دراسات جامعية موسعة تتعلق بالأحداث التي مرت بالبلاد، والفراغات التي حدثت. والطموحات التي ظهرت بعدما دخلت دولة السعديين في مراحل التفكك ثم الانحلال..!

وكانت ظاهرة المراكز العلمية التي نشأت حول الزوايا المنتشرة في البلاد، ظاهرة ذات أثر فعال في نهضة علمية وأدبية وفكرية كان لها أبعد الأثر في هذا القرن وما بعده...

ومن خلال هذه العموميات يستطيع الباحث أن يصل إلى تصور الإطار الذي كونته الظروف لنشأة شخصيات مغربية واسعة الشهرة داخل المغرب وخارجه، وكان إلى جانب هذا الإطار عامل آخر وهو عامل المنافسة والصراع الخفي بين الأفراد والجماعات والزوايا والمدن والحواضر الكبرى، فالكل يجتهد في الظهور أمام منافسيه بخصوصيات تلفت الأنظار وتستحق التقدير والإكبار...!

وأبو سالم العياشي ابن زاوية شهيرة في الأطلس الكبير وكان والده - وهو تلميذ الزاوية الدلائية في الأطلس المتوسط - هو الذي أسسها وجعل منها مركزا من مراكز التربية الصوفية... والمجالس والدروس العلمية... وتولى أبو سالم ثم ابنه حمزة رياستها والسهر على تكوين رجالها علميا. وخلقيا إلى جانب التكوين الروحي الصوفي...

وأبو سالم رحل إلى المشرق ثلاث مرات ،

الأولى سنة 1059 هـ ـ 1649 م وهو ما يزال في عنفوان شبابه لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره...! والثانية سنة 1064 هـ ـ 1653 م وهو في سن السابعة والعشرين من عمره...

والثالثة سنة 1072 هـ ـ 1661 م وهو في سن الخامسة والثلاثين من عمره...

وأبو سالم قبل أن يرحل إلى المشرق، تجول في أرجاء المغـــرب فنزل بالحواضر والبوادي واتصل بأعلام المعرفة المتنوعة ، شرعية وأدبية وصوفية. وأخذ عنهم الشيء الكثير... إلى جانب ما أخذه عن والده ومن معه في الزاوية...!

ولا نملك تفصيلا زمانيا عما تم له من رحلات لطلب العلم داخل المغرب.. كما لا نملك تفصيلا لما كان يقوم به في السنوات التي كانت تفصل بين رحلاته الثلاث إلى المشرق...

إلا أننا مطمئنون إلى أن أبا سالم قبل أن يرحل إلى أقطار المشرق رحلته الثالثة سنة 1072 هـ ـ 1661 م كان على جانب كبير من الثقافتين ، العلمية والأدبية بالمفهوم الذي كان لهما في ذلك العصر، كما أنه كان يحمل في نفسه مقاصد وأهدافا ـ إلى جانب أداء مناسك الحج ـ يريد تحقيقها في رحلته الثالثة، وفي مقدمتها كتابة هذه الرحلة التي جعل منها سجل معلوماته ومرآة ثقافته وعنوان صلته بأعلام الأقطار التي نزل بها...

على أن أبا سالم يحدثنا في مقدمة رحلته أنه كتب فهرسة شيوخه

المسماة «اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر» قبل أن يرحل إلى المشرق رحلته الثالثة (2)...!

كما أنه يحدثنا في نفس المقدمة أن الظروف السياسية منعته سنة 1069 هـ - 1658 م من القيام برحلته...! وهو يعني ولا شك ظروف الصراعات التي كانت بين الدلائيين وأهل سجلماسة بقيادة الأمير مولاي محمد بن الشريف... وما جره ذلك من حصار وحرب وتوقف حركة القوافل..!

وجاءت سنة 1072 هـ - 1661 م. بمعوقات شتى في مقدمتها انحباس المطر وغلاء الأسعار وانتشار الأمراض، لكن أبا سالم كان قد صح منه العزم، وتخطى كل ذلك وخرج من الزاوية العياشية قاصدا اللحاق بركب الحجاج الذي يخرج من سجلماسة كل سنة قاصدا الديار المقدسة...

هذا هو ما يمكننا أن نصور به الظروف التي أحاطت بأبي سالم العياشي لنرافقه في رحلته الطويلة، من سجلماسة إلى مصر ثم منها إلى الأقاليم المشرقية الأخرى... ورودا وصدورا ... !

ونحن على بينة - بعد استقراء وتتبع - أن رحلة أبي سالم ليست وصفا جغرافيا للمناطق والمسالك والمشاهدات فحسب، ولكنها إلى جانب ذلك وغيره من الموضوعات شبه معلمة عن كل ما رأى فيه العياشي فائدة لنفسه وللقراء..

- ففيها من عناصر الوصف الجغرافي الشيء الكثير...!

---

2) أنظر الرحلة ج 1. ص 3 طـ حجرية.

- وفيها من تراجم أعلام الشيوخ الشيء الكثير...!
- وفيها من الأسانيد والإفادات والمشاهدات مثل ذلك...!

والعياشي مولع بالعناوين الصغيرة مثل (غريبة) و (لطيفة) داخل العناوين الكبيرة التي يجعلها لمراحل رحلته. وتراجم شيوخه. وما أخذه عنهم من إجازات وإفادات، ورسائل وكتب... وما سمعه منهم... وما أفاد به هو من سأله كتابيا أو شفويا، نظما أو نثرا...! في موضوعات شتى...!

وإذا أصغينا إلى حديث العياشي ونحن في رفقته من سجلماسة إلى مصر، وتأملنا فيما يقدمه لنا من معلومات ومشاهدات، وما يشير إليه من أحداث.. أدركنا أن هذا القسم من رحلته على درجة عالية من الإفادة التاريخية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية.

فركب الحجاج لم يخرج من سجلماسة إلا بعد أن زوده الأمير مولاي محمد بن الشريف برسائل إلى عماله عبر الصحراء ليمدوا الحجاج بما هم في حاجة إليه...!!

وعند الوصول إلى نهر - كير - يقف العياشي عند حوض هذا النهر الطويل ويتحدث عما به من عمارة وما كان له من أهمية وكذلك نهر - الساورة - وقرية - اكلي - وقرى - بني عباس - والأراضي الشاسعة التي تقطعها القوافل إلى - توات - وكانت إذ ذاك مركزا اقتصاديا للمبادلات بين أهل الصحراء، وأهل السودان... وقد لاحظ العياشي هناك أن عملة أهل «توات» تسمى ، المثقال الشريفي نسبة للأمير الشريف صاحب سجلماسة (3)... كما لاحظ حجم المبادلات التي تتم هناك بين أهل

---

3) أنظر الرحلة ج 1 ص 20.

«توات» وأهل «تنيكتو» وأنواع المعروضات في الأسواق، من خيل وملابس الملف، والحرير... وغير ذلك من أنواع الحبوب والتمور...

ومر الركب على بلاد «أوكرت» ثم على «واركلا» والعياشي أثناء مروره في هذه الأقاليم يحدثنا عما يصله من أسئلة فيجيب عنها كتابيا وشفويا... وهي أسئلة متنوعة من العروض، واللغة، والنحو... إلى التوحيد والفقه والحديث والتفسير والتاريخ...!

ويبحث عن المعلومات والمخطوطات ويناقش ويجادل بنفس علمي وأسلوب منطقي مع الربط والاستطراد. وجمع الأشباه والنظائر...

ومن استطراداته تلك المعلومات الغريبة التي رواها لنا والتي تتعلق بشخصية محمد بن اسماعيل الكوراري الذي قطع الأرض طولا وعرضا يحمل أفكارا غريبة ويريد أن يصل إلى السلطة وفي سبيل ذلك خاض غمرات شتى وكان من أهل العلم والذكاء والدهاء، وقد سبق للعياشي أن عرفه شخصيا بمدينة فكيك وعرف أهدافه كما عرف ما عنده، من غرائب المخطوطات (4)...!

ومعلومات ومشاهدات العياشي عن «واركلا» وفرقة «الأباضية» والعملة المتداولة هناك... ووادي «ريغ» وأهله، معلومات لها فائدتها ووزنها... وكذلك عن «تكرت»

ومن الطريف أن العياشي يحدثنا عن بلدة «تماسين» ثم يقول :

«وفي مسجدهم صومعة وثيقة البناء طويلة جدا فيها نحو من مائة درجة على بابها اسم صانعها وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي...!

---

4) أنظر الرحلة ج 1 ص 40 وما بعدها.

وتاريخ بنائها سنة سبع عشرة ثمانمئة (5)» وهذا نموذج من تعلق العياشي بوطنه واثار بنيه خارج هذا الوطن...!

وأثناء السير في هذه الأراضي الشاسعة يصف العياشي تقلبات الجو والرياح والأمطار والعواصف والرمال ومواقع المياه وما إلى ذلك ويربطه بما يجب على المسافر من الصبر والاحتساب والرضى بقضاء الله..!

وعند الوصول إلى طرابلس جفلت الإبل عند رؤية البحر وألقت ما على ظهرها من أحمال واحتاج الأمر إلى معاناة ومداراة وتلطف لتعود إلى سالف عادتها... وهكذا قطع العياشي مع الركب السجلماسي هذه المفازات ولم يعرجوا على مدن الجزائر ولا على مدن تونس ولكنهم اتخذوا طريقهم على الواحات والصحاري للوصول إلى طرابلس...! وبلغت المدة التي قطعوا فيها هذه الطريق من سجلماسة إلى طرابلس ثلاثة أشهر وبعض أيام...!

والعياشي يعرف هذه المدينة جيدا وله بها أصدقاء وشيوخ عرفهم من قبل. ويعرف أن الركب يمكث بها مدة من أجل الاستراحة والتزود والاستعداد لقطع مفازات برقة القاحلة المضنية...!

ووجد العياشي في طرابلس شيخه ابن مساهل فحدثه بمعلومات وأخبار وإفادات سجلها... كما أنه وجد هناك حركة اقتصادية متنوعة برية وتحدث عنها...! ونقل عن الرحالة ابن بطوطة، أن السلطان أبا عنان المريني لما استولى النصارى عليها افتداها منهم بخمسة قناطير من الذهب...!!!

---

5) أنظر الرحلة ج 1 ص 49.

كما سمع من حدثه عن السلطان عبد الملك السعدي أنه حضر مع الترك العثمانيين معركة «حلق الوادي» بتونس... التي طردوا فيهـا الإسبان من تلك البلاد سنة 982 هـ... كما سمع أشياء أخرى تتعلق بتاريخ طرابلس وتاريخ العثمانيين بها...!

وفي طرابلس لقي ركب الحجاج الفاسيين القادمين من الديـار المقدسة، وفيهم صديقه، طاهر بن رضوان الخزرجي. فأخبره بموت صديق عزيز عليه... وهو محمد المنقوشي بمدينة القسطنطينية..!

واغتنم العياشي المناسبة فأرسل مع الركب الفاسي قصيدة تائية طويلة يحيي بها أصدقاءه وشيوخه وأحبابه بفاس وأودعها بعض ذكرياته وخاطراته... كما أرسل رسائل أخرى إلى أحبابه بالزاوية وغيرها...

وخرج الركب من طرابلس وصار العياشي يملي معلومات جغرافية وتاريخية. تتعلق بجبال درن واتصال سلاسلها. وما ذكره المؤرخون والجغرافيون عنها، كما أخذ يصف المراكز التي مر منها وهنا نجده ينقل عن الرحالة المغربي «العبدري» الحاجب الذي سبق له أن مر بهذه المفازات وتحدث عنها في رحلته (6)...

ووقف العياشي عند زاوية الشيخ زروق وتحدث طويلا عن هذا الشيخ ومكانته العلمية والصوفية، وما خلفه من كتب وتلاميذ كما تحدث عمن لقيه في زاويته من أهل العلم والتصوف... ومعلوم أن العياشي مغرم بالشاذلية والشاذليين..!

---

6) أنظر رحلة العياشي ج 1 ص 92 وانظر رحلة العبدري ص 236 طـ الرباط.

ووصل الركب إلى (برقة) فأخذ يشرح لنا مفهوم ومدلول هذه الكلمة ويقارن بين مشاهداته هذه السنة ومشاهداته في حجتيه السا بقتين...

وتحدث عن خصب الجبل الأخضر وما تنتج أرضه وأنعامه من خيرات يعرفها العياشي جيدا ويعرف آثارها في الأسواق...!

والمعلومات الجغرافية والاقتصاد ية والبشرية والتاريخية التي دونها العياشي عن أقسام برقة ومعالمها من أفيد المعلومات التي ينبغي أن تحقق وأن تربط بما هو موجود الآن...

ووصل الركب إلى القاهرة بعد معاناة وأتعاب ومشاق...! والعياشي له بها أصدقاء وشيوخ وأحباب من المشارقة والمغاربة فأدى الواجب بصلتهم والبحث عنهم والاستفادة مما عندهم من علوم وأسانيد وكتب...!

ومكث في الأزهر ينتقل من حلقات الدروس إلى أروقة الشيوخ ومنازلهم حتى أشبع رغبته... وأعطى عن ذلك ملاحظات وارتسامات ذكية تدل على. ذوق. ولباقة. واتزان..!

واستطرادات العياشي عن شرب القهوة... وتعاطي الدخان... وما نشأ حولهما من تاريخ... وإباحة... وحرمة... وما إلى ذلك... استطرادات طريفة مفيدة...! ذات فوائد علمية وتاريخية واجتماعية...!

وحديث العياشي عن الشيوخ والأساتذة هو بطبيعة الحال داخل في مفهوم التاريخ وبهذا الاعتبار يكون العياشي «مؤرخا» من مؤرخي القرن الحادي عشر الهجري...!!

وحديث العياشي عن العادات والأعراف والمعاملات اليومية داخل

في مفهوم علم الاجتماع، وبهذا الاعتبار، تكون المعلومات التي قدمها مادة من مواد الدراسات الاجتماعية..!

ورحل العياشي عن القاهرة قاصدا الحرمين الشريفين بطريق برية عبر صحراء سيناء.. ووصف المسالك والمعاير والمعالم والآثار، وصف العالم الخبير. ووقف عند «مغارة شعيب» و «مدين» و «العقبة» وعند كل معلم يملي العياشي شيئا كثيرا من المعلومات والاستطرادات والارتسامات والخاطرات... إلى أن وصل إلى مدينة «الينبع» ثم «بدر» و «رابغ» ثم «مكة» المكرمة...

ولا شك أن جو مناسك الحج وما يتعلق بأداء هذه المناسك من المشاعر الدينية قد ملك على العياشي روحه وحسه وقلمه ولسانه، كما أن فقه المناسك تسابق إلى الظهور فيما يسجله عن الكعبة والطواف والسعي والصفا والمروة ومنى وعرفات والجمار والمزدلفة وما إلى ذلك، مما يستغرق عدة صفحات من الرحلة..!

وفي المدينة المنورة عزم العياشي على المجاورة فودع رفاقه وأقبل على العبادة والتنسك، والوقوف على معالم هذه المدينة الطيبة، ومطالعة ما كتبه عنها المؤرخون والرحالون وغيرهم... ومن أجل ذلك نقل العياشي في رحلته النقول العديدة المتعلقة بالموضوع... فيما وجده في الكتب والرسائل المتعددة مما لا نحتاج إلى الإشارة إليه هنا لا سيما ونحن مرافقون له في رحلته... لا متتبعون لرشحات قلمه...!

وقد مكث العياشي في هذه المجاورة سبعة أشهر ونصف الشهر.. قضاها في العبادة والاطلاع وذكر المعالم والآثار.. إلى أن دنا موسم

الحج... فخرج منها إلى مكة ليؤدي حجته الثانية في هذه الرحلة وهي حجته الرابعة... لأنه حج سنة 1059 هـ وسنة 1064 هـ كما قدمنا...!

ولا شك أن العياشي جرد قلمه في الحرمين الشريفين ليسجل حياته العلمية هناك بتفصيل، حيث تفرغ لذكر ما أخذه عن شيوخ العلم والرواية هناك وما ناله منهم من إجازات وإفادات وما شاهده من كتب وما سمعه من أخبار العلماء والصلحاء... كما أنه ذكر ما قام هو بتدريسه لطلبة العلم وما أفادهم به من معلومات متنوعة...!

ومن الطريف أن العياشي سجل في رحلته عادة طلبة العلم في المدينة المنورة أن يعطلوا الدراسة يومي ، الثلاثاء... والجمعة...!

ومن عادة المدرسين بالمدينة أيضا تعطيل القراءة في المكاتب والتدريس يومي ، الثلاثاء والجمعة..! ويقرأون فيما سوى ذلك من الأيام خلاف عادتنا بالمغرب من التعطيل يومي الخميس والجمعة..! فكنت أيام إقرائي بالحرم الشريف يكلفونني القراءة يوم الخميس فيشق ذلك علي لكونه خلاف المعتاد لدينا (7)...».

وجزء كبير من ترجمة العياشي الشخصية وثقافته العلمية وعلاقته بالمذاهب الفقهية والطرق الصوفية موجود في هذه الصفحات التي كتبها عن حياته بالحرمين الشريفين...!

وعزم العياشي على الرجوع إلى المغرب في فاتح محرم من سنة 1074 هـ وذلك من المدينة المنورة عبر الينبع ثم العقبة وفي هذه عن له أن يخلل... ويقدس (8)...! فترك ركب الحجيج وانضم إلى أهل غـزة

---

7) أنظر رحلة العياشي ج 1 ص 289.

8) يزور مدينة الخليل ومدينة القدس.

ليزور الخليل... والقدس... وفعلا وصل إلى غزة، وتحدث عنها طويلا..، وصادف بها بعض أخبار وآثار شيخ شيوخه أبي العباس المقري مؤلف «نفح الطيب» الذي مر منها في طريقه إلى دمشق.. واتصل هناك بعدد من أعلام أهلها... كما زار الرملة وتحدث عن معالمها وشيوخ العلم بها ونال إجازة من الشيخ خير الدين الرملي... ومما أفاده به هذا الشيخ ، «أن عند علماء الحنفية إذا لم يوجد حكم الفرع منصوصا عليه عندهم، ووجد حكم ذلك الفرع في مذهب مالك فإنه يجب العمل به عندهم لأن أصول الإمامين متقاربة... !» (9).

ثم وصل إلى القدس وحقق أمنيته الغالية في زيارة أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.. فوجد هناك عددا من المغاربة احتفلوا به وأكرموه... وبهرته معالم المسجد الأقصى فوصفها بإعجاب وتقدير... متتبعا الجزئيات واقفا عند الآثار التاريخية والحضارية والدينية مستعينا بما قرأه في كتب التاريخ وما يرشده إليه مضيفوه من مغاربة وغيرهم... ولا سيما منهم شيخه عمر العلمي... !

كما بهرته المزارات المتعددة داخل القدس وخارجها مما هو مقصود من طرف المسلمين وأهل الكتاب... وزار الخليل بمساعدة قاضي القدس الذي هيأ له الوسائل وأعانه بكل ما يملك ومن أجل ذلك مدحه بقصيدة طنانة... كما مدح شيخه عمر العلمي....

وعن طريق غزة والعريش رحل إلى مصر ليستكمل ما فاته في القاهرة عند الورود فجدد صلته بالشيوخ والأصدقاء وأتم زيارة المعالم والمزارات والآثار... وهو أثناء وصفه يشرح وينتقد ويفرح ويحزن ولكن

---

9) أنظر رحلة العياشي ج 2 ص 311.

في حدود من التعقل والموضوعية في الجملة...

ومر على الأسكندرية وجرد قلمه لوصف معالمها ومزاراتها المتعددة، ومن جملتها زاوية الشيخ أبي محمد صالح صاحب رباط آسفي الشهير الذي كان يترأس ركب الحجيج كل سنة...! وزاويته مأوى المغاربة في الأسكندرية ومن الأسكندرية توجه مع الركب المراكشي في طريق العودة إلى بلاده عن طريق برقة التي أعاد وصفها. ووصف عناد مفازاتها وجوها وأنهى وصفه بما يردد الحجاج من قولهم ، **غرقة، ولا برقة...!!**

ثم دخل طرابلس للمرة الثانية في هذه الرحلة وجدد صلته بشيخه ابن مساهل كما أنه درس بعض الكتب لمن رغب قراءتها عليه... واتصل بشخصيات متعددة من أهل طرابلس ومن المارين بها إلى مصر من أهل تونس، ووصلته بعض الرسائل شعرية ونثرية من أصدقائه وإخوانه بالمغرب...

ومن طرابلس كان الرحيل إلى قابس، ثم دقيوس ثم توزر من إقليم الجريد التونسي، ثم الجنوب الشرقي الجزائري مرورا بسيدي عقبة، وبسكرة... وفي كل هذه المراحل كان قلم العياشي يتحرك واصفا ناقدا، مؤرخا راحلا سائلا مجيبا...!

وعن طريق عين ماضي، وبوسمغون، ووادي الناموس، وفكيگ، تابع طريقه إلى زاويته في الأطلس الكبير... فوصلها بعد أن غاب عنها ما يقرب من سنتين... وبعد ذلك تفرغ إلى ذاكرته وأوراقه وقلمه ليكتب هذه الرحلة الجامعة التي تعد من مفاخر العياشي...!! لأنها تعكس ثقافة العصر... وعقلية العصر في المشرق... والمغرب.....!!!

فاس :

عبد القادر زمامة

قصة

الطريق الطويلة

محمد زنيبر

وسط الضجيج والعجاج ودخان الشوائين، وقف المنادي علـى درج الحافلة الكبيرة يصيح بملء فيه حتى يسمعه البعيد والقريب :

«كار بورزة ! لم تبق إلا مقاعد قليلة ! هلموا يا ناس ! تعال أيها الذاهب إلى وزان وأسواق الجبل ! تعال، إسرع !»

تلك كانت بالضبط هي الكلمة التي يريد سماعها الأستاذ علي المحامي وهو يبحث من وراء نظارتيه السميكتين عن الكار الذي يحمله إلى البلدة التي يريدها ، «زومى». لقد قال له زبناؤه، ملحين في دعوتهم ، «ما عليك إلا أن تبحث عن كار بورزة وسيتكفل بإيصالك إلينا، وستجدنا في انتظارك»

واخترق الأستاذ الازدحام الذي لا ينقطع عن تلك الساحة الواقعة في أبواب المدينة ليقترب من صوت المنادي، بينما كانت أشعة الصباح تدفع بارقتها الأولى الخالية من كل دفء.

«كار بورزة، يامسافرون ! هلموا ! هلموا !»
وأمام درج الكار، خاطبه المنادي ،
«اصعد يا أ ستاذ، عما قريب سيتحرك الكار.
ـ عما قريب ؟ يعني متى، بالضبط ؟
ـ بعد خمس عشرة دقيقة على الأكثر، ما زال هنالك مقعدان أو ثلاثة، و بمجرد امتلائها سنتحرك.
ـ أنصت، من فضلك لدى موعد مضبوط في زومى، ولا أريد أن يفوتني.
ـ كن مطمئنا يا أستاذ، سنصل إلى هناك قبل الزوال.
ونقده ثمن التذكرة وصعد إلى الكار ليخترقه على طوله إلى أقصى الوراء، حيث لم تبق إلا بضعة مقاعد فارغة، من أجلها يصيح المنادي ويملأ الساحة ضجيجا.
وقعد وهو يتساءل لماذا يتجشم كل هذه المشاق. ولكن، هل كان في مستطاعه أن يرفض الدعوة ؟ لقد ألح زبناؤه وأقسموا. قضيتهم نجحت على يده، وأصبحوا على قاب قوسين من استرجاع حقوقهم، فلم لا يعبرون له عن فرحهم وتقديرهم بنصب القباب وذبح الذبائح ؟ ولم لا يستقبلونه بين ذويهم ويعتزون أمام أبناء البلدة بزيارة هذا الأستاذ الماهر في المحاماة ؟ إذن لا مناص من الذهاب لأكل المشوي، والمشاركة في الفرح بهذا الإنتصار، انتصار قوم يعيشون منسيين بين شعاب الجبل ! وزادت هاته الملاحظة الأخيرة في إقناعه بصواب تلبية الدعوة. ألم يرصد نفسه منذ أول يوم للدفاع عن قضايا المساكين والمتواضعين والمنسيين ؟ بلى.

استوى في مقعده بتؤدة المحامي الذي يحرك القوانين باستمرار في دماغه، وأخذه منظر الجماجم العديدة والمختلفة التي تتحرك أمامه على طول الكار في المقاعد. كان هنالك من كل الأشكال والأحجام. رؤوس كثيرة بعمائم مغبرة وسخة، وأخرى بعمائم بيضاء ناصعة، رؤوس أخرى عارية تتحرك وسط جاكيتات أكثرها بال ومنهوك. شباب من القرى والأرياف يرتدون ملابس افرنجية، وقد تدلى شعرهم على قفاهم وأذنيهم بكامل الحرية، ولم تكن المرأة غائبة عن المشهد، إنها هنا أيضا تحتل مكانها جنب الرجل، شاركته في هاته الرحلة نحو المدينة وتعود الآن إلى قريتها أو مدشرها. جاءت لترافقه أو بالأحرى لتخدمه وتتحمل نوبات قلقه، وتحمل أثقاله وبضائعه حتى إذا انتهى كل شيء وبيع الدجاج والبيض والسمن والصوف خف نحوها مسرعا ليحتاز المال ويضمه في كيسه بسلطة طبيعية لا تشك في نفسها لحظة واحدة !

«كار بورزة ! هيا يا ناس ! أسواق الغرب والجبل ! سنقلع بعد دقائق !».

واستيقظ المحامي من أحلامه لدى سماع هذا الصوت الذي ينادي بقوة، وشعر حقا أنه جالس في الكار مع مواطنين من كل مكان، ومن كل صنف، وابتسم ابتسامة داخلية وهو يلاحظ أن الظروف أتاحت له أن يعيش هذا اليوم بكامله مع الشعب وأن يضع نفسه في صعيد واحد معه، وأن يكون مواطنا وسط المواطنين دون ألقاب ولا تحليات ولا امتيازات !

لكم استعمل كلمة شعب في أحاديثه العادية ومرافعاته القضائية وخطبه ومحاضراته ! ولكن هل كان حقيقة يعرف الشعب ؟ هل كان له به اتصال، هو المحامي المعروف الذي يقطن بحي الأرستوقراطية

ويغشى أنديتها ويتحرك في أفخم السيارات، ويعيش عيشة البذخ، ولا يبخل على نفسه بشيء ؟ كل اتصاله كان ينحصر في ذلك التعاطف النظري وفي تلك الكلمات الطيبة التي توحي بها المناسبات.

ولكن ماذا يكلفه كل هذا، في النهاية ؟ هل يستطيع أن يتحدث بحق عن تضحية ؟ كل مجهوده يتلخص في كونه يستعمل كلمات وجملا مناسبة، ويتكيف مع مدلولها برفق، ودون أية مشقة. وهكذا يستطيع أن يعيش حياة المحظوظين والمدللين ويستمتع، في نفس الوقت، بسمعة ابن الشعب وحبيبه. أليست هذه نهاية النهايات مما يسمى، بلغة الصراحة، الشطارة والاحتيال ؟!

وتململ المحامي في مكانه مدفوعا باحتجاج داخلي على هاته الفكرة، لقد كان لديه مثل أعلى أخلاقي يؤمن به ويستحضر صورته كل يوم، سيما إذا ترددت حواليه ـ وما أكثر ما يحدث ذلك ! ـ أفكار من زملاء ومعارف يحاولون أن يبرروا كل شيء بدعوى التطور أو الجدلية أو التكتيك، ملتمسين العذر لأشياء اسمها الكذب أو الخيانة أو النفاق أو السرقة أو الرشوة الخ... ويتساءل في أعماق نفسه : هل أصبح كل شيء ممكنا ومقبولا في زماننا هذا، شريطة أن تعرف كيف تصوغ العبارات التي تقدم بها الأمر الذي تريد وتحليه بما طاب من النعوت والكلمات التي أصبح لها رنين قوى في العصر ؟

هل من سبيل للعيش دون تزييف أو تزوير ؟ هل ما زال من الممكن رؤية اللون في نصاعته، وسماع الصوت في صفائه ؟ أسئلة وأسئلة تراوده وهو يذكر بسخرية وامتعاض كيف أن زميله وشريكه في المكتب أراد أن يحول هاته الزيارة الحبيبة البسيطة لسكان الجبل إلى مضاربة

ضخمة ذات فصول وذيول. فحدد له استراتيجية واضحة الخطوط والاتجاه، فكرتها الأساسية هي أن يستزيد ويستزيد من عطف السكان وتقديرهم ويتلطف معهم ويسحرهم بكلامه، حتى يصبح مرشحهم المفضل في الانتخابات المقبلة.

وللوصول إلى الهدف من أقرب الطرق، عليه أن يركب الكار مع الشعب، ويلبس «الجلابية» الصوفية ويتحلى بالتواضع والبشاشة مع الكبير والصغير، ولا بد أن يظهر اهتمامه، قبل كل شيء، بالشيوخ ورجال الزاوية حينما يحل بالبلدة، ويقرأ معهم الفاتحة، ويربط معهم خيوط الاتصال حتى لا تكون الزيارة ختاما لعلاقات سابقة بل بداية لعلاقات جديدة «والذي يهمني من كل هذا سواء نجحت في الانتخابات أم لم تنجح هو أن يتحرك المكتب ويتسع عمله وتكثر مداخيله. إن أصحاب المنطقة لهم شكاوى ودعاوي كثيرة، يجب أن يأتوا إلينا. أترك عنك المثل الأعلى لحظة وانظر إلى الواقع، إلى المصلحة يجب أن تصير هنالك شخصا مهما، هذه مصلحتنا جميعا هل فهمت ؟»

واحتج الأستاذ على بكل جسمه وهو يذكر هاته النصائح وتلك الستراتيجية الطويلة المدى التي اقترحها عليه شريكه، إنه رفض كل ما أشار به عليه ما عدا الركوب في الكار. وسيتقدم للناس في هيئته العادية دون تدليس أو تزوير، ويكون صادقا معهم مخلصا نصوحا لهم حتى تكون زيارته زيارة تعاطف حقيقي.

ولعل هذا ما يفسر ارتياحه لوجوده وسط هؤلاء المواطنين. وقد تكون الصدفة هي التي جمعتهم في ذلك الكار، ولكن، هنالك شيء آخر يجمعهم ولو افترقوا إلى الأبد. إنهم، رجالا كانوا أم نساء، شبابا أم شيوخا

لا يحملون شيئا زائدا. شيئا دخيلا في شخصهم، بل هم قريبون من الأرض التي تحملهم، قريبون من الأشياء التي تهمهم، يجسونها بأيديهم في كل وقت. مشاكلهم مشاكل حقيقية، ناشئة عن الحاجة والطموح، لا عن الترف والتخمة. إذا فرحوا وضحكوا. فلأن الحياة ابتسمت لهم ابتسامة خفيفة صغيرة جزاء على جهودهم المضنية، وإذا حزنوا وبكوا فلأنهم يشتكون مصيبة حقيقية تمس الجلد والعظم. فلا شيء رخيص في ساحتهم. الكل ينال بالعرق والمشقة. رجال ونساء يعاركون الأرض دوما ويجادلونها بشجاعة ومواظبة ولا يعتمدون إلا على سواعدهم وإرادتهم لينالوا حظهم الصغير من الحياة.

كلا. ليس مع هؤلاء الناس يجوز الاحتيال والكذب والخداع ! وأي قلب، وأي ضمير يستطيع أن يقابل صدقهم وسعيهم للقوت الحلال بالنفاق والغش دون أن يشعر برجفة تهزه من الأعماق ؟! كلا. يا أستاذ. ابتعد ليست هذه طريقك !

وفتح جريدته عسى أن تساعده على قتل وقت الانتظار. واستعرض العناوين الكبرى، ما زالت دار لقمان على حالها ! لا شيء يتغير ! نفس المصائب ونفس الأمراض ! نفس الصيحات تدوي في الفراغ ! ولم يكن يزعجه عن قراءته إلا صوت المنادي الذي يتعالى قويا. ملحا بين حين وآخر يستنفر الركاب الجدد.

تضايق بتكرار النداء وبهذا الصوت المجلجل وطوى صحيفته ونظر إلى ساعته. آه لقد مر أزيد من نصف ساعة. وما زال الكار واقفا في مكانه لا يتحرك. وبدأت أشعة الشمس تسطع بنورها فوق سطوح المنازل والجدران وسور المدينة. والنهار في شبابه يكسو كل شيء ويغزو كل

البقع ونظر المحامي حواليه، فلم يلمح في وجوه الركاب أي تعجب من إبطاء الكار عن الإقلاع في الموعد المحدد، ولا بدا منهم أي استنكـــار لذلك. إنهم قاعدون في أماكنهم ينتظرون دون اكتراث للزمان الذي يمر.

وفهم من استقراء الواقع أن الكل متوقف على إرادة بورزة فهو الذي يقرر اللحظة التي يجب أن يتحرك فيها الكار. ولكن، أين هو بورزة صاحب الكار ؟ يجب أن يكون حاضرا لأنه بمثابة ربان السفينة. لعله منزو هنا في مكان يحصي الركاب أو لعله نائم في بيته يغط غطيطا بينما الدنيا تخدمه وتسعى له برجلها !

والتفت الأستاذ علي إلى جاره الذي كان بجلبابه الصوفي وعمامته وهيئته صورة حقيقية لشيخ من شيوخ العرب، فسأله : «متى يقلع الكار، عادة، ياعم ؟

فابتسم الشيخ وقال : ـ ومتى قالوا لك ؟

ـ قالوا لي الثامنة إلى التاسعة والنصف، لا أكثر.

ولم يتمالك الآخر عن الضحك. ـ هؤلاء خداعون وكذابون ياسيدي ! كن متيقنا أن الكار إذا تحرك في العاشرة والنصف أو الحادية عشرة فسيكون خرج قبل وقته المعتاد.

ـ ولماذا ؟ إنه الآن ملآن.

ـ أنت لا تعرف صاحبه بورزة، ياسيدي ! والله لو بقي في الكار مكان صغير، ولو كان لا يتسع إلا لقط لما حركه من مكانه حتى يجد من يملأه !

ـ وأين هو بورزة ؟ هل هو هنا ؟

ونظر إليه الشيخ نظرة العارف إلى الغر الغشيم.

ـ ما أنت إلا ابن المدينة. يا ولدي ! إنه دائما في كاره لا يفارقه ليل نهار، هو المنادي الذي صادفت بالباب، وهو الذي يتسلم ثمن التذاكر، وهو السائق، وهو الذي يدبر لك مكانا للمبيت في أي بلد وقف فيه الكار، إنه جمع حطام الدنيا. والعجب، على ما يقال، أنه ليس له بيت يؤويه، وأنه ينام على حصير في المرآب جنب الكار !

وفوجئ المحامي بهاته المعلومات الطريفة، ولم يدر كيف بدر منه هذا الاستنتاج البديهي :

ـ وإذن يكون بورزة نفسه هو الذي قال لي إن الكار سيتحرك في الثامنة أو الثامنة والنصف ؟ ما كنت أعرف هذا. سأقوم له وأذكره بوعده.

وضحك الآخر بملء شدقيه حتى احمر خد المحامي خجلا : «أنت لا تعرف بورزة. ياسيدي ! ستضيع وقتك وكلامك. وتستطيع أن تلين الحديد وتنحت الجلمود. ولكنك لا تستطيع أن تزحزح بورزة عن موقفه أبدا. ما عدا إذا أخرجت له المال. حينذاك تنبسط أساريره ويبش وجهه وتمتلئ نبرات صوته بالحنان ويتحول من حيوان إلى إنسان.

ـ وإذا كان للمسافر مثلي موعد محدد وكان الناس ينتظرونه بمحطة الكار في البلد الآخر ؟

ضحك «شيخ العرب»، مرة أخرى حتى بدت أسنانه الصفراء المبعثرة :

ـ الموعد ؟ الموعد ؟ هل تظن يارجل، أننا نحدد الموعد مثلكم بالساعة والدقيقة ؟ إنما يكون ذلك بالنهار. فنقول للشخص : تعال يوم

الثلاثاء أو يوم الأربعاء، وإذا أردنا أن ندقق ونجتهد في التدقيق، نقول له : موعدنا صباح الأربعاء أو عشية الخميس.

- ولا شك أن السبب في كل هذا هو بورزة الذي يستحيل معه ضبط أي وقت ؟!

- وهل هو بورزة واحد ؟ إنهم بورزات، إذا عرفت البعض منهم غاب عنك البعض الآخر.

كان ذلك أول اكتشاف يقوم به في هذا العالم الذي يحاذيه باستمرار دون أن يدخل إليه. كان اتصاله به لا يتجاوز الحد الذي يبدأ فيه الاصطدام الشخصي المباشر بالمشاكل المعاشة وما يترتب عن ذلك من المشاركة الفعلية في الأتعاب والتضحيات.

لكنه اليوم وقد اراد أن يركب في كار الشعب، تشققت أمام عينيه نافذة الحقائق المجهولة، فرأى أن هنالك طوائف من الناس لا يستطيعون أن يصلوا إلى المكان الذي يريدون في الوقت الذي يريدون، ومن يمنعهم عن ذلك ؟ شخص واحد هو صاحب الكار.

وغلى الدم في عروق المحامي كعادته حينما يثور للحق : كيف يستطيع فرد واحد أن يفرض إرادته على الجماعة ؟ وكيف تضيع مصلحة الجميع في سبيل مصلحته ؟ وكيف يتكرر هذا كل يوم، على مرأى ومسمع من كافة الركاب، فلا من يغير المنكر، ولا صاحب المنكر يخجل من فعلته ؟!

وما عتم الأستاذ على أن شعر بتوتر قوي يسري إلى أعصابه فيقف من مكانه ويخف بسرعة إلى باب الكار حيث مازال المنادي يردد نداءه الرتيب ويفجأه بصوته القوي المجلجل :

«أنت تستهزئ بالناس وتضحك عليهم ؟ أم ماذا تصنع ؟

ـ مهلا يا أستاذ ! بماذا اسأنا لسيادتك ؟

ـ قلت لي إن الكار سيخف بعد ربع ساعة، وقد كدنا نتمم الساعة. وما زال الكار لم يتحرك ! هل تظن نفسك تلعب مع الصبيان أو مع المغفلين ؟

ـ هذا هو الذي يزعجك، يا أستاذ ؟ كن مطمئنا سنتحرك بعض قليل.

ـ ولكن متى ؟ إن لدي موعدا مضبوطا، والناس ينتظرونني

ـ ستصل إن شاء الله، في الموعد، ولن يقلق الناس من انتظارك.

ـ وما المانع من التحرك الآن ؟

ـ ما زال هنالك مقعدان فارغان

ـ ربما وجدت من يملأهما في الطريق.

ـ صحيح يا أستاذي العزيز، ولكن ليس مقصودي من هذا هو الحصول على المال، ولكن إسداء المعروف. فهنالك أشخاص يتخلفون في المدينة من أجل أشغالهم، وهم من أبناء البادية البسطاء والمساكين، وليس لهم إلا هذا الكار للعودة إلى ديارهم. فهل يسمح قلبك بأن نتركهم وننصرف ؟ هاته تضحية صغيرة نقبلها جميعا، عن طيب خاطر في سبيل هؤلاء المساكين.

وبهت المحامي بهاته الحجة القوية والوجيهة التي يصعب تجاهلها. ولم يدر أيعجب من ذكاء بورزة ومهارته أم يتشكك في صدقه ويتهمه بالتلبيس والتلاعب بالعواطف. ولم يخرجه من تفكيره إلا شعوره بأن يدا تجتذ به من وراء، فالتفت فوجد شيخا كبيرا يناهز الثمانين، ابتدره

بقوله : «أنصت، يا ولدي، لن تمشي إلا أين مشّاك الله ! فلا تتعب نفسك !

جاء ليلقن درسا في المروءة والجدية لبورزة ويفضح تلاعبه أمام الملأ، فها هو يتلقى درسا في الأخلاق منه ومن الشيخ، وقد زاد كلام هذا الأخير أعصابه توترا، فأحس برغبة في تعنيف الشيخ وانتهاره، ولو كان لم يقصد إلا الخير واسداء النصح ! ولكنه نصح يسير كله في تأييد بورزة وتبرير استبداده، ويسدل ستار القبول والاستسلام لكل ما يتسبب فيه من مصائب. وحذق في عيني الشيخ : كانت حكمة القرون السالفة، حكمة الانتظار والصبر والقناعة تشع منهما، وقد أحاطت بهما آلاف التجاعيد، وكأنها سطور توكيد وتنويه. إنها حكمة الآباء التي طالما اعترض عليها وهو طالب، واضطر لقبولها في صمت وهو محام، ولو كان ثائرا عليها رافضا لها في أعماق نفسه. ولهذا، فلم يجد بدا من أن يبتسم ابتسامة الموافقة لهذا الشيخ الوقور الذي يكاد يكون ممثلا للبادية كلها. وتراجع قلقا إلى مقعده، وهو يشعر بالانهزام.

وفي الطريق أوقفه أحد الركاب : «هل وثقت ببورزة، يا أستاذ ؟ إنه كذاب مخادع.

ـ وما الدليل على ما تقول ؟

ـ وهل الأمر يحتاج إلى دليل ؟ إننا نعرف بورزة منذ سنين، وليس في طبعه أن تكون لديه مثل هاته العواطف النبيلة التي اضطر لإظهارها لك نفاقا ورياء.

ـ تعرفونه، وتقبلون أفاعيله وتخضعون لمشيئته.

فتدخل راكب ثان بقوله : ـ إننا نعرف بورزة منذ سنين طويلة،

ونكرهه، ونسبه، ومع ذلك، فلا غنى لنا عنه. فنحن نأتي إليه كل أسبوع. إنه شر لا بد منه، فلولاه ما قامت حركتنا.

ونطق راكب ثالث، - ولكي تتحقق، يا أستاذ، من كذبه و تلبيسه ما عليك إلا أن تقترح عليه، على سبيل التجربة، أن تؤدي له ثمن المقعدين الفارغين وترى ماذا يكون جوابه.

إنها فكرة سديدة، ولكن دماغ الأستاذ علي كان مشحونا بالأفكار والأحاسيس الجديدة إلى درجة العجز عن اتخاذ أي قرار، ولذلك فإنه رجع إلى مكانه واستلقى في مقعده يفكر، دون أن يستطيع تركيز ذهنه في نقطة معينة، وأخيرا، عيل صبره، فتقدم، من جديد، إلى بورزة الذي كان منشغلا بالنظر إلى داخل محفظته يتملى برؤية الأوراق والنقود، فقال له : «أنصت يا رجل، لقد طال انتظاري وأخشى أن أصل متأخرا عن الموعد بكثير، أنا مستعد لتسديد ثمن المقعدين الفارغين كي نتحرك في الحين.

- معك حق، يا أستاذ ! لقد بدأنا نقترب من الساعة العاشرة وما أظن أن مسافرا جديدا سيظهر بعد هذا الوقت، ولست أخالفك في هذا الاقتراح لأنه على صواب.

وفتح المحامي محفظته ونقده ثمن المقعدين. وعندئذ تحرك بورزة من مكانه بخفة ونشاط وتقدم نحو مقعد السائق، وأدار محرك السيارة، بينما عاد الأستاذ علي إلى مكانه، وهو يقرأ في بعض الوجوه ابتسام السخرية، بل طرق سمعه همس لأحد الركاب يخاطب جاره : «ما أمكره من خبيث بورزة ! سترى كيف يلعب بالمسكين، ولو كان أستاذا».

آه إن مشاكل بورزة ما تنتهي، ما تغيب الواحدة حتى تبرز الأخرى ! جلس المحامي في مقعده بضمير غير مرتاح. واتهم نفسه، وهو الرجل المثقف، بنوع من السذاجة والبلاهة أمام هؤلاء الأميين الذين يحيطون به والذين كان يقرأ في ابتساماتهم والتفاتاتهم نحوه نوعا من التآمر عليه دون أن يدري شيئا من خفايا المؤامرة !

وإذا ببورزة يغادر مقعد السائق ويخف نحوه بوجه طلق بشوش ويقول له بأدب : «أبت قدرة الله، يا أستاذ، إلا أن تفوز بالحسنات في هذا اليوم المبارك، فهذا رجل وامرأته جاءا في آخر لحظة، ونحن على وشك الإقلاع، يحاولان الركوب، فهل تأذن بركوبهما في المقعدين الفارغين ؟

باغته السؤال، لكن بعد لحظة من التردد، قال : لا مانع عندي.

ـ ولكن صادف الحال أنهما فقيران، لا مال عندهما.

ـ قلت لك لا مانع عندي، فليركبا ولنتحرك من فضلك.

ـ جازاك الله كل خير، يا أستاذ، وهذا ما جعلني أقول إن الله قدر عليك، اليوم، أن تكون من ذوي الحسنات !

ثم التفت وراءه ونادى الرجل وامرأته بقوة : ـ هيا أنتما ! تعاليا واشكرا الأستاذ على إحسانه !

والتفت كل الناس مبتسمين إلى جهة المحامي. وظهر الرجل وامرأته في ممر الكار كأنهما يلعبان دورا في مسرح وتقدما نحو المحامي الذي كان محتارا في الموقف الذي يتخذ : أينبسط أم يغضب، أيسكت أم يتكلم ؟ كل ما كان يعلم أن الأحداث كانت خارجة عن إرادته

وتأثيره منذ البداية وأنه مضطر لقبولها كواقع لا يرتفع، بسلبية لا مزيد عليها !

وانحنى الرجل على الأستاذ علي كأنه يريد أن يقبل يده، وسحب المحامي يده بخفة، ووجد نفسه في موقف دفاع. وانهال الرجل عليه بالثناء والدعاء ببلاغة لا ينضب معينها، بينما ظل هو ينظر إليه بعينين ملؤهما التساؤل والتحفظ والارتياب وكان يريد أن يعرف، على الأقل، إلى أي حد أصبح ألعوبة ومسخرة بين هؤلاء الناس، ولكن حتى هذا النوع من المعرفة أصبح عسيرا عليه، إن لم يكن مستحيلا، واكتفى بأن قال : «الله يبارك لكم ! والآن فليتحرك الكار !»

• • •

بالفعل بدأ الكار يتحرك حركة بطيئة وسط الزحام، وبعد أن تأكد الأستاذ علي أن الحركة وقعت حسا ومعنى، سمح لنفسه بأن يفتح جريدته، مرة أخرى، وهكذا خرج من عالمه الصغير إلى العالم الكبير، متنقلا من قارة إلى قارة في لمح البصر. طريقة للتحرر الموقت ولو في الخيال ! وغاب فكره بين السطور وسط أزيز المحرك وقرقعة أجزاء العربة واحتكاك العجلات، ولم يخرج من غيبته الشيقة إلا بعد أن شعر بالكار يقف فجأة، ماذا حصل ؟

لم تكن هنالك مدينة ولا قرية ولا راكب ينزل ولا آخر يصعد، وإنما هي الطريق الكبرى المحفوفة بالأشجار البرية المنبسطة الرتيبة، والأكواخ التائهة وسط حمرة الأرض المديدة، فماذا حصل، يا ترى ؟

إن الكار لم يكتف بالوقوف، بل انحاز إلى جنب الطريق كأنه معول على استراحة طويلة. ودبت الإشاعات المختلفة في همسات الركاب، فمن قائل «الموطور سخن» ومن قائل «الكاربيراتور اختنق بالأوساخ» ومن يائس يردد أن «الموطور تلف نهائيا» وسمع المحامي أحدهم يعلق : «كار له أزيد من خمس عشرة سنة، كيف يمكن أن يرجى منه الخير ؟!»

ومر بورزة وسط الكار جادا لا يلتفت يمنة ولا يسرة. وابتدره بعض الركاب بالسؤال، فأجابهم بصوت الهجوم والانتهار : «صلوا على النبي، يا ناس ! هل هذه أول مرة تشاهدون فيها الحديد ؟! وهل هذه أول مرة ترون فيها الكار يقف وسط الطريق ؟ ادعوا لنا واطلبوا من الله أن تقف معنا مرضاة الوالدين !»

وسار في طريقه دون أن ينتظر الجواب كالرئيس الذي اعتاد أن يلوم ويوبخ مرؤوسيه بكل حرية وسلطة، وتقدم إلى غطاء المحرك وفتحه وحمل وعاء كبيرا من المعدن وذهب نحو الأكواخ المبثوثة في جنبات الطريق يبحث عن الماء، ونزل بعض الركاب في تلك الأثناء وافترشوا الأرض تحت ظل الأشجار وتبعهم آخرون وآخرون، وسرعان ما أخرجت لعب الأوراق ودارت الحلقات بين اللاعبين والمتفرجين.

والأستاذ علي، في هاته الأثناء، ينظر ولا يكاد يصدق ما يرى، ماذا ؟ كأن القوم كانوا على موعد، وكأن الكار تعمد الوقوف في هذا المكان لتنتظم جماعات اللاعبين ! وتحرك الأستاذ من مكانه وغادر الكار بدوره بخطوات اليائس المستسلم وراح يتنسم الهواء الطلق ويختال بين الأعشاب في جنبات الطريق. والتقت عيناه مع أحد الركاب، شاب تشهد

لهجته وملامحه أن أصله من البادية. فقال هذا الأخير للمحامي وقد لاحظ حيرته وتضايقه : «لا بد يا أستاذ. من شيء من الصبر. وما هذا إلا كار الضعاف والمساكين ! فلا بد من أن يتخلف ويتعطل !

- وماذا يفعل الذي له موعد مضبوط مثلي ؟

- إن سكان هاته الجهات. يا أستاذ. لا يعرفون إلا موعدا واحدا وهو موعد وصول الكار. فتلك هي عادتهم.

فقال المحامي وقد بدأ يتراءى له وصول الكار كأمنية كحلم :

- ولكن. متى سيصل الكار ؟

- سيصل كن متيقنا من ذلك. يا أستاذ. إن بورزة هذا ربما كان خداعا وكذابا ولصا ولئيما ومجرما. ولكنه إذا وضع يده على الحديد كيفما كان. فلا بد أن يزرع فيه الروح. ولا بد أن يحركه بأي وجه كان !

وبالفعل كان بورزة. في تلك الأثناء. قد عاد بوعائه مملوءا بالماء. وانبرى في شغل الميكانيكي المدرب الماهر يفحص قطع المحرك. وحوله جماعة من الركاب الفضوليين يلاحظون ويقترحون. ويحاولون أن يمدوا يد المساعدة. وهو ماض في عمله بصمت وجد ويقين. وكأنه طبيب يباشر عملية جراحية دقيقة لها وقتها المحدد ومراحلها المعروفة.

ولم ينته عجب الأستاذ علي من موقف الركاب الذين تقبلوا الأمر الواقع كحدث طبيعي مثل المطر أو الرعد. فلم يحتج أي واحد منهم ولم يغضب. كأن الوقفة جزء مقرر في برنامج السفر والناس يتحركون جنب الكار كأنهم يدورون في حفلة عمومية. بل منهم جماعة أوقدت نار أعواد لتحضير الشاي. وآخرون تمددوا على العشب الأخضر يسترقون من الزمان

القاسي إغماضات لذيذة، بينما تعالى ضجيج أصحاب الكارطة الذين نسوا الكار ونسوا أنفسهم بالمرة، ودخلوا في ألوان من اللجاج والتشاتم كأنهم داخل بيوتهم.

ونظر الأستاذ علي إلى ساعته التي توشك أن تشير إلى الواحدة، زوالا. ما أبعده من أصحابه الذين ينتظرونه بالغداء ! أكثر من مائة وعشرين كيلومترا ما زالت تفصله عنهم، معظمها يخترق الشعاب والجبال ويذهب صاعدا نحو النجود والقمم، فكيف يقوى محرك الكار المتضعضع على اقتحامها وقد اعجزته الطريق الواطئة المستوية ؟! إنه سفر أضاع هدفه، ومن المحقق أنه سيجد الناس قد ملوا انتظاره وضجروا من ابطائه، وربما اعتبروا تأخره عنهم تهاونا وتكبرا.

آه ما أشد غلطته ! لو أخذ سيارته الشخصية لوصل إليهم منذ زمان، ولكنه حين آثر أن يسير مع الجماعة ويركب معهم كأي واحد منهم، هاهو الآن تائه في البراري لا يدري هل سيصل ومتى ! الواقع أن الأقدار جازته اليوم أسوأ الجزاء على حسن نيته وتواضعه ! ووجد نفسه وهو يمضغ هاته الأفكار المرة قريبا من بورزة الذي كان معظم جسمه متواريا تحت هيكل الكار، ولم يدر كيف صاح به !

«أين وعودك وتطميناتك، يا بورزة ؟ هاهو موعدي قد أزف ونحن لما نقطع نصف الطريق !

أنت الوحيد، يا أستاذ، الذي لا تعرف الصبر، أنظر إلى بقية الناس، إلى أبناء الشعب، إنهم صابرون، بل مطمئنون ومرتاحون، ولا أحد منهم جاء ليحتج علي !

- أخيرا نطقت بالحقيقة وفضحت نفسك كل ما يهمك من الشعب هو أن يكون صابرا ساكتا لتفعل أنت ما تشاء. أليس كذلك ؟

- إني آكل الحلال، يا أستاذ. وأعيش من عرق جبيني.

- كيف تدعي أنك تأكل الحلال، وأنت تغش وتستعمل كارا لم يعد صالحا للاستعمال، وتفوت على الناس مواعيدهم وتستهزئ بمصالحهم ؟!

- من قال لك إن الكار غير صالح للاستعمال ؟ أنت محام، يا أستاذ، أم ميكانيكي ؟ إن كنتِ تفهم شيئا في الميكانيك، تعال ساعدني...

- لو كان عدل أو قانون في البلد، ما كنت تستطيع أن تلعب مثل هاته الألاعيب.

- سامحك الله، يا أستاذ ! هل رأيتني أقذف بالناس في الطريق ولا أوصلهم إلى أماكنهم ؟

- والساعات التي يضيعون فيها وهم ينتظرون إصلاح الكار ؟ مئات الساعات، آلاف الساعات يضيعون فيها وتضيع معهم الأمة كلها ! وهذا يتكرر كل يوم. تصور مقدار الزمان الذي يضيع للناس ويذهب هباء منثورا.

وأحس المحامي بيد تجتذبه برفق، فالتفت فإذا بشاب باسم الوجه يشير إليه بأن يتبعه، وتحرك وراءه إلى أن صار الإثنان بمنأى عن الكار والناس، وبوعزة يناديه ساخرا : «إلى أين يا أستاذ ؟ لقد استأنست بحديثك، فليس كل يوم يلتقي البدوي مثلي بمحام كبير ! آه ! إنك انصرفت !»

وا بتدر الشاب المحامي بقوله :

- لقد كنت أريد أن احذرك من بورزة. فالأفضل أن لا يخوض معه الإنسان في أي حديث، لأنه صاحب إذاية ووشاية، وأقل كلمة سمعها يحرفها ويزيد في طولها وعرضها ويدخل عليها من التشويه ما يصيرها أعجوبة تفزع السامعين وتهزهم من الأرض.

- هل أنت متأكد مما تقول ؟

- وكيف ؟ إن أهل البادية يعرفونه ويجتنبون إطالة الحديث معه حتى لا يخرجوا إلى المناقشة والاصطدام، فكم آذى من واحد وتسبب له في الاعتقال والعقاب !!

- وماذا يعنيني ؟ فأنا لا أقول له إلا الكلام الذي كان يجب على جميع الركاب أن يقولوه له بالقوة، لو شعر بغضب الجميع لما سمح لنفسه باحتقار الجماعة على هذا النحو.

- إنهم يخافون منه، لأنه قادر على أن يختار البعض منهم ليتسبب لهم في عدة مصائب.

- أيصل نفوذه لهذه الدرجة ؟!

- وكيف ؟ إن أهل...

وفي الحين نادى بورزة بأعلى صوته : «هيا يا مسافرون ! الكار جاهز !»

وتطاير القوم من أماكنهم آسفين كسرب الحمام المروع وهبوا متراكضين نحو الكار الذي أخذ أزيزه يتعالى ويخدش سكون الطبيعة الجميل، ثم اندفع بكل قواه وبكل ثقله ينهب الطريق وبورزة من وراء

المقود يتشدق بمهارته على الركاب المجاورين ويهزهز كتفيه عجبا وتيها.

وأشعل المحامي سيجارة وهو يرى الطريق تطوى أمامه طيا كان فكره ثائرا وهو يتصور أن هاته المهازل تجري كل يوم في هذه الطريق وفي غيرها دون أن يجرؤ أحد على التشكي والاحتجاج. فكأن الناس تعودوا على الاستسلام، وصار ما هو معوج ومخالف للمنطق والطبيعة شيئا مألوفا لديهم لا يجدون أي غضاضة في قبوله.

وسار الكار مدة من الزمان في حالة مرضية وسط برية معشوشبة تناثرت فيها مزارع البرتقال وأشجار الفواكه وتخللتها الجداول والقنوات، بينما الأغنام والأبقار تنساب بين الحقول والمراعي، وفجأة أحس الركاب بشيء مثل الزلزال يرتج له الكار ويقف مرة أخرى جنب الطريق ويمر بورزة وسط الجميع مقطب الجبين وهم ينثالون عليه بسؤالهم المؤدب :

- إن شاء الله لا بأس، يا بورزة ؟

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! لا بد أن يكون صعد معنا منحوس هنا أو مسخوط من الوالدين أو ذو عين شريرة ! الكار راجعه الميكانيكي بالأمس قطعة قطعة، وأنتم ترون الآن ! هذه عين شريرة لا شك في ذلك ! هذه عين أراد الله أن يسلطها علينا اليوم ! العنوا الشيطان، يا قوم حتى يخف عنا شرها !

هل كان يلمح إلى وجود المحامي ؟ لا أحد يدري، وإنما هنالك رؤوس لم تتمالك إلى الالتفات نحو الأستاذ علي الذي لم يسمع من كلام بورزة شيئا، والذي ظن هذه الالتفاتات نوعا من التحية، فأجاب عنها بالابتسام وهز الرأس.

واستأنف بورزة كلامه : «والآن، أنزلوا يا سادة ريثما نبدل العجلة المنفشة !

وفرغ الكار من ركابه الذين انبثوا من جديد، في مسارب الظل جنب المزارع ذات الأشجار الباسقة، وبقي مع بورزة طائفة من الركاب الشباب، أصحاب الزند والساعد، فثبتوا الكار في مكانه بوضع مساند من الحجر وراء العجلات. وأخرج بورزة المرفاع ودفعه نحو الجهة المنفشة، وتركه في يد أحد الشبان المتحمسين للميكانيك، بينما أسند لآخر مهمة فك العجلة المنفشة، وما هي إلا لحظات حتى كانت السواعد تدور من هنا وهناك، وجنب الكار يرتفع عن الأرض رويدا رويدا، وامتدت الأيدي متسابقة نحو العجلة الجاثية لتسحبها بقوة، بينما كانت أياد أخرى تدفع برفق عجلة الإنقاذ مكانها. ودارت اللوالب دورتها، ورجع المرفاع إلى درجته السفلى ونزل جنب الكار إلى الأرض، فتنفس القوم الصعداء، وصاح بورزة : «مرحى لكم، يا أولاد العرب ! هيا اصعدوا.

ورفع صوته ليكرر النداء نحو الركاب الذين ابتعد بهم الخطو في جنبات المزارع، ودوى الكلاكسون، فتلاحق القوم، ومن بينهم الأستاذ علي، وما أن رآه بورزة حتى قال له متلطفا : «نرجو الله أن يكون هذا آخر توقف، يا أستاذ !».

وصعد المحامي إلى الكار دون أن يجيبه، لقد استسلم للقضاء وأدرك أن لا فائدة من الكلام، وصعد الناس في يومهم للمرة الثالثة إلى الكار، وكأنهم تلاميذ يخرجون من القسم إلى الاستراحة، ثم يعودون إليه متزاحمين.

ها هو الكار يتحرك، مرة أخرى، على أرجل كلها قوية، ويسير ويسير. وبما أن كل شيء عادي، وأن المحرك يتحرك والسائق يسوق والسيارة تسير، بدأت الرؤوس تهوم والعيون تنسد والأجساد تميل، موجة من النوم ترامت على القوم وجاء بها فراغ البطون وطول الانتظار، لأن الساعة بدأت تقترب من الثانية بعد الزوال.

العجلات تتحرك الآن وسط سهل مديد رتيب لا يبعث فيه الحياة إلا تموجات السنابل في حقولها اللا نهائية، وقطعان الأغنام المثوثبة في كل وجهة، والمنظر الوادع الذي تغطيه السماء بزرقتها المشرقة يدفع إلى المزيد من الحلم والتهويم.

ونظر الأستاذ علي حواليه : كل الجيران غائبون عن هذا العالم، فاستأنس بسيجارة جديدة، ثم فتح جريدته عسى أن يعثر على صفحة لم يقرأها، فلم يجد إلا صفحة الإعلانات، فقنع بها كمطالعة وغرق فيها مدة، ثم طوى الصحيفة وسرح بصره إلى الأمام، ينظر إلى الفراغ.

وانثالت عليه الصور : صورة أولى، يتراءى له فيها بورزة كأوعى القوم وأيقظهم، لأنه ممسك بالمقود وبمصير الجميع في آن واحد، وصورة ثانية يتراءى له فيها كرجل شاطر بهلواني متخرج من سيرك عالمي أو من مدرسة عليا في تعليم الشطارة والمهارة، وكل أنواع الحيل، جاء وراهن نفسه على أن يقود كارا متداعيا منهارا تقضقض قطعه مثل العظام البالية في الجسم الهرم الهزيل، واستطاع أن يقوم بالمغامرة الجريئة ويكسب الرهان، ويتكفل بحمل مئات الركاب في هذا الجهاز الذي يشكو من ألف علة، لم تبق إلا كلمة المعجزة لتعبر عن هذا الموقف، وصورة ثالثة تحكي الصورة الثانية وقد تشوهت وتغيرت معالمها وتراجعت إلى الوراء

في عتمة التاريخ، حيث يتحول الكار إلى عربة لنقل المسافرين، عربة من النوع القديم، ازدحم الناس في مقاعدها الخلفية بينما اقتعد بورزة مقعد السياقة، وقد أمسك باللجام والسوط ينطق في يده ويدور دورات بهلوانية وهو يحاول بجهد وتعب أن يحرك الحصانين العجوزين الهزيلين ويلتفت إلى الركاب طامعا منهم أن ينزلوا إلى الأرض حتى تستطيع العربة أن تتحرك، وفتح الأستاذ على عينيه : لقد كان هو، أيضا، يهوم مثل الآخرين.

وأخيرا بدأ الأفق ينجلي من البعد عن طوالع مدينة، وانبرى بعض الركاب يجمعون أمتعتهم لمغادرة الكار، وما هي إلا لحظات حتى كان بورزة يصيح بلهجة الظافر : «سوق أربعاء الغرب !» وخفقت قلوب لدى ذكر هذا الإسم إنها مرحلة مهمة قطعت في هذا السفر الذي أصبح يشبه المغامرة. وكان الركاب يبدو على وجوههم الارتياح والكار يخترق الشارع المركزي في المدينة، فكأنهم لم يتعبوا ولم ينتظروا عبثا ونالوا الجزاء على صبرهم ! وسرى في نفوسهم أن السفر لم يبق خياليا أو تجريديا، بل أصبح حقيقة ملموسة !

وانحاش الكار إلى أحد أركان الساحة المركزية وصاح بورزة في زبنائه : «لا بد أن نقف برهة لإصلاح إطار العجلة المنفشة، انتظروا قليلا ولا تبتعدوا !».

ونزل عدد من الركاب، وانسحب سكان سوق الأربعاء بأمتعتهم، حدث سر له الأستاذ علي وهو يقعد في مقهى بالساحة، لأنه اعتقد أن الكار المتداعي تخفف من بعض أثقاله، لكن ما أسرع ما خاب ظنه ! رأى بورزة، بعد أن دفع العجلة إلى مرآب من أجل إصلاحها، يعود

ويقف وقفة رسمية أمام باب الكار وينادي بأعلى صوته مرة أخرى : «وزان وأسواق الجبل. وزان وأسواق الجبل ! هيا يا ناس» كأنه كأنه يردد دورا محببا إلى نفسه. وسرعان ما بدأ يظهر الزبناء الجدد.

وانتفض الأستاذ علي من استسلامه وغيبوبته. ولم يدر كيف ترك فنجانه ملآن وهب مسرعا نحو بورزة وصاح فيه وأعصابه ترتجف : «أنصت. يا بورزة ! كفى تلاعبا ! إني لن أتحمل. مرة أخرى. الانتظار وضياع الوقت. لقد قلت لك إن لدي موعدا. هل فهمت ؟ هل فهمت ؟

ـ فهمت. فهمت. يا أستاذ ! ولكن هون عليك ! ليس في الأمر ما يدعو للقلق ! هل يليق بنا أن نمنع المواطنين من الركوب والسفر لقضاء أشغالهم وزيارة أحبابهم أظن أن هذا ليس من طبيعتك ولا من شيمك.

وأصحب بورزة جوابه بنظرة عطف ماكرة إلى الزبناء الجدد الذين لم يفهموا شيئا. وإنما أخذوا ينظرون شزرا إلى المحامي الذي تضايق من هذا الإمعان في الكذب والاحتيال وقال لهم بلهجة الصراحة :

ـ لعلكم وثقتم بهذا الرجل وصدقتم ما يقول ! إنه يخادع ويراوغ ويتهمني بمنع المواطنين من الركوب. اسألوه كيف أمنعهم. إنه هو الذي يفعل كل شيء ليتلاعب بهم ويضيع لهم وقتهم ! هل من المعقول. يا سادة. أن نركب في الثامنة بالرباط ولا نصل إلا في الثانية لسوق الأربعاء ؟! ست ساعات لقطع مسافة مائة كيلومتر أي بمعدل 17 كيلومتر في الساعة ؟! أين رأيتم هذا ؟!

ولكن بورزة بدل أن يقلق ويحتد. انحنى على المحامي وقبل كتفه وهو يردد : «سيدي ! لن يكون إلا ما يرضيك. أنا أعدك أمام هؤلاء

المواطنين أنه بمجرد إصلاح العجلة سنخف من مكاننا، كن متيقنا من ذلك.

وفي تلك اللحظة تقدم زبون جديد ليزيد المشهد تعقيدا بعنصر جديد. لقد كان يحمل سلالا ملأى بالدجاج ويريد أن يحطها في سقف الكار مع أمتعة المسافرين، وإنها لحجة جديدة لصالح بورزة جعلت المحامي ينسحب وهو غير مرتاح لما قال وسمع، ويرجع لفنجانه الذي تركه ساخنا شهيا فوق طاولة المقهى.

كان بورزة وفيا بوعده في هاته المرة، إذ لم يطل الانتظار بالمسافرين القدماء والجدد فما أن اصلحت عجلت الإنقاذ وأعيدت إلى مخبئها حتى كان ينادي الركاب ويستعجلهم «هيا يا مسافرون !»

وتسارعوا من كل جهة وأكثرهم يحملون بقية طعامهم ويمضغون، وهم يركضون نحو الكار، وما أن احتل كل واحد مقعده حتى كان بورزة أمام المقود وحرك المحرك، لكن لا جواب وأعاد العملية ثانيا وثالثا ورابعا و... بدون نتيجة.. إيه ! لا جواب !؟ ما هاته المصيبة الأخرى ؟ لقد أبى الميكانيك في هذا اليوم إلا أن يتحداه بالصمت المطبق، وقام ونزل من الكار ورفع غطاء المحرك وفحص البطارية والجهاز الكهربائي ثم رد الغطاء وعاد إلى مقعده وحاول مرات أخرى، أن يبعث الروح في التيار الكهربائي، لكن دون جدوى وتواتر النداء وراءه من جهات متعددة.

«ماذا يا بورزة ؟! لعلك احتجت إلينا في هاته المرة أيضا ؟

ـ أي والله، يا إخوة.

وعلق أحد الركاب بصوته الساخر :

ـ في هذه المرة، ولا شك، جاء دور البطارية ! أليس كذلك، يا بورزة ؟

ـ أسكت، قطع الله لسانك ؟ متى كنت تعرف الميكانيك ؟ خلك مع البقر والغنم !

ثم التفت إلى الركاب، وهو لا يجد بدا من إلقاء خطبة أخرى لا ليعتذر لهم أو يطمنهم، ولكن ليهجم على الحظ الغادر والقدر المعاكس ،

«ألم أقل لكم، يا ناس، إن عينا أصابتنا منذ البداية ؟! عين حسود خبيث شرير ! ولكن، بمساعدتكم سنتغلب، بإذن الله، على الكيد والحسد. هيا، يا سادة، أنزلوا من فضلكم وادفعوا بي الكار حتى تشتغل البطارية».

وتم الجلاء عن الكار في لحظة وجيزة. وانبرت السواعد المفتولة، من كل جهة، تدفع الكار من الخلف ومن الجنبين. وفي وسطهم الأستاذ علي بجاكيتته الأنيقة ومعطفه المطوي فوق ذراعه وكأنه يشارك في مظاهرة صاخبة مرحة أو يسير في موكب بدوي احتفاء بموسم أو عرس.

وشخر المحرك فجأة وتصاعد شخيره وتردد على الأسماع كأحسن بشرى، فتهللت الوجوه، وأطل بورزة من نافذته بوجه البطل المنتصر، وأشار إلى القوم بعينه أن اركبوا.

وركب الناس، وتحرك الكار وسار قدما في طريقه بين منعرجات وتلال لا تنتهي، تسطع فوقها الشمس ويرقص النسيم عشبها الأخضر وأزهارها الملونة والمنتشية برحيق الوجود، وكل مكان يدعو هناك لوقفة، لترتيل قصيدة، لحط عصا التسيار والتخلي عن بقية السفر. كل سر الحياة وجمالها تجمع بين تلك المناظر وتلك النسمات وذلك الحديث الطويل

الشيق الذي تدلى به الأرض للإنسان. ومع ذلك، فلا أحد يقف الكل ينبهر. ويمتلك الإعجاب حواسه. ولكنه يمر ويذهب إلى المشاكل إلى آخر ما في الطريق من أبواب مسدودة ومغارات مظلمة وشقاوات متراكمة كأن قوة لا يستطيع مقاومتها تجتذ به.

كان الأستاذ علي ينظر إلى الجنة من خلال دخان سيجارته المتصاعد برفق فيندفع إلى أحلام اليقظة وفيما كان فكره يداعب مئات الصور بأشكالها وألوانها المختلفة، متتالية في رفق كخفقان الفراش، إذا بعشرات من الطيور تتقافز من سطح الكار، ورجل في جنبه أخذ يصيح ويستغيث : «أبورزة، الله يرحم والديك، قف !» والآخر يجيبه متوترا :

- ما بك، يا رجل ؟ هل جننت ؟

- قف، يا بورزة، لوجه الله، لقد ذهب كل رزقي !

- ماذا تقول ؟

- قف، قف لقد طار كل دجاجي

وتدخل الناس متشفعين. فلم يجد السائق بدا من الوقوف وهو يزمجر ويهدد : «إذا لم يتحرك الكار بعد هذا، فالخطأ منكم، لقد أنذرتكم في الوقت المناسب !».

ونزل صاحب الدجاج وتلاه بعض المتطوعين لمساعدته ورجعوا مائتي متر إلى الوراء بحثا عن الدجاج الذي انحلت عنه شبكة السلة لعدم إحكام ربطها، والذي طار وتشتت في البرية. وبعد مجهودات، استطاعت الجماعة أن تقبض على بعض الطيور المريضة أو المسترخية من طول السجن. وأما الطيور القوية، فقد باتت مطاردتها صعبة لأن المكان فيه أجنة وأجمات متفرقة من الأشجار الكثيفة. بالإضافة إلى عدد من الأكواخ

المنبثة حول الحقول والمزارع والتي كان يجول خلالها الدجاج وغيره من الدواجن.

وجاء بعض أبناء المدشر لمساعدة الدجايجي المسكين، الذي بدت على وجهه علامات اليأس والتخوف، وهاج هائجه لما رأى أحد أبناء المدشر يتسلل خلسة بطير من دجاجه، فلم يتمالك عن سبه وشتمه، فقام شجار وتشاتم، وما هي إلا لحظة حتى جاء رجال آخرون من أبناء المدشر بعصيهم، وقد سرت بينهم إشاعة أن جماعة أجنبية جاءت لتسرق دجاجهم فما كان من المسافرين الذين تطوعوا لمساعدة الدجايجي إلا أن انسحبوا نحو الكار، في حين ظل الدجايجي يواجه الحملة وحده. ونزلت عليه العصى لكن بعض العقلاء من المدشر تدخلوا وخلصوه من يد الجماعة المعادية وأتوا به إلى الكار وهو يئن ويرتجف، وواعدوه بأن يبذلوا كل جهدهم ليجمعوا ما يعثرون عليه من دجاجه، وانصرفوا.

وتهامست الشفاه : «مسكين ! مسكين !» وسأله أحدهم : «لم لم تحكم إقفال سلتك ؟».

فأجاب بصوت قريب من البكاء : «إنها المرأة هي التي تكلفت بإقفالها، وخفت أن يفوتني الكار...

والتفتت عدة وجوه إلى المحامي كأنهم ينتظرون منه معجزة في مثل هاته النازلة، ولمس هو في الأنظار لونا من الفضول والتحدي وما كان شيء أكره إليه من العمل تحت الضغط والتحدي، بحيث ظل هادئا في مكانه لا يبدي حراكا ولا يهتبل بأي شيء حتى يئس منه المتطلعون وأشاحوا عنه بوجوههم، وخرج بورزة، في النهاية، عن صمته

وقد بدأ يتضايق : «والآن ماذا نفعل ؟ هل نقلع أم ننتظر الدجاج ؟ أين صاحب الدجاج ؟

ـ ها أنذا، يا بورزة ! الله يرحم والديك. أترك لي شيئا من الوقت عسى أن اجمع بعض رزقي !

ـ وهؤلاء الناس ؟ ماذا يقولون ؟ هل ينتظرونك حتى تعثر على دجاجك ؟ أليست هذه أنانية منك ؟ أنصت الأفضل أن تنزل بسلتك في هذا الدوار وتذهب إلى الشيخ عسى أن يجمع لك دجاجك. وتتركنا ننصرف بدون إبطاء.

ـ الشيخ ! الشيخ ! واهالك. يا بورزة ! أنت تضحك علي ! هل تظن أن الشيخ سينصت لي ؟ وإذا وقع، هل تظنه يقدم لي يد المساعدة ؟ أقل ما يفعله هو...

وقاطعه بورزة محتدا :

ـ والركاب ؟ والناس الذين لهم مواعيد مضبوطة مثل ذلك المحامي الكبير ؟ إما أن تركب أو تنزل

ـ إني أقبل يد المحامي وكل السادة الركاب ليعطوني فرصة لأحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من رزقي.

ـ ياله من يوم شؤم ونحس !

وتدخل بعض الركاب : «لا مانع من أن نعطيه ربع ساعة. يا بورزة !

ـ وإذا احتج علينا الأستاذ الكبير ؟

والتفت الناس كلهم إلى الأستاذ الذي لم يتردد في مجابهة سخرية بورزة بصرامة :

ـ من أجل مساعدة هذا المسكين أقبل بكل فرح. ولكن هذا لا يبرر تلاعبك، يا بورزة، بأوقات الناس ومواعيدهم.

ومضى صاحب الدجاج يبحث عن طيوره والكار واقف في انتظاره، ومرت الدقائق بسرعة وانتهى ربع الساعة وعاد الرجل فارغ اليدين وسأله بورزّة بإلحاح ،

ـ والآن ماذا نفعل، يا رجل ؟ اركب واتركنا نذهب لحال سبيلنا.

ـ اركب ؟ أركب ؟ وكيف ؟ معظم رزقي ضاع...

ـ وإذن ؟

ـ سأبقى هنا لأحاول تخليص رزقي، والذي يشغل بالي هو أن أرد للناس ما علي من دين، الدجاج كله أخذته بالدين. هل فهمت يا بورزة ؟ والآن، سآخذ سلتي، فانتظر حتى أنزلها من سطح الكار.

وتدخل شيخ من الركاب ،

ـ سيضربك أولاد الدوار يا مسكين ! خلك معنا، وسيخلف لك الله ما ضاع بدل أن يشمت بك الشامتون.

ولم يجبه صاحب الدجاج، كأنه لم يسمعه وصعد إلى سطح الكار وأنزل سلته الطويلة وراح في طريقه شبحا هزيلا مرهقا تلوي به الرياح في أسماله التي كان من الصعب تحديد لونها.

وأدار بورزة المحرك من جديد، فتعالى أزيزه في الفضاء وتحول إلى طنين دبابة حربية يصك الأسماع، وانطبع الابتسام على الوجوه مع ذلك ونسوا الدجايجي وقصته المحزنة، لأن الكار بدأ يتحرك بالفعل ويسير، ولم يحدث ما كان يتخوف منه الكثير من عطب طارئ فهاهي المنعرجات والعقبات والمنحدرات تتوالى. فهل، يا ترى، هي نهاية المحن

والمشاكل في هاته الرحلة التي باتت تتراءى للمحامي كمغامرة خطيرة كل أمنيته أن يخرج منها سالما ؟!

على أي كان بورزة يبرهن للجميع، في هاته المرة، على الحركة الفعلية ولو بالسير البطيء، ونظر الأستاذ علي إلى ساعته، لقد مرت الثالثة منذ زمان، فاستنتج في ذهنه أن نهاية ما يحصل عليه من هذا السفر هو أن يقدم للناس عذره ويبين لهم حسن نيته، ثم يعود إلى حال سبيله. فالمهم هو الاستجابة للدعوة ومقابلة الكرم باظهار العواطف النبيلة بكل تواضع حتى يشعر أولئك البسطاء والمستضعفون أن هنالك من يقدرهم ويحترمهم.

ونسي وسط هواجس هذا اليوم التاريخي في حياته، أن موعد غدائه المعتاد قد مضى عليه أزيد من ساعتين، لكن جسمه لم ينس إذ مال به ميلة طارئة نحو جنب المقعد فهوم لحظة، ثم نام نوما عميقا لذيذا لم يفارقه إلا مكرها حينما أيقظه جاره وهو يزف إليه هاته البشرى التي تردد في تصديقها : «سبحان الله ! لقد وصلنا يا أستاذ !

- صحيح ؟! صحيح ؟!

- أي والله ! وهل كنت تظن أننا لن نصل أبدا ؟ لقد نمت طويلا، يا أستاذ.

ولم يجب المحامي بشيء، وإنما نظر حواليه : الكار واقف في شبه ساحة من الأرض العارية تحيط بها بعض الحقول والروابي التي أنبثت فيها هنا وهناك أكواخ وبيوت متواضعة، ونظر إلى ساعته. إنها الخامسة وزيادة وعلامات الغروب الوشيك بادية في السماء، والناس ينزلون رويدا رويدا من الكار، وكأنهم آسفون لمغادرته. فترجل حينئذ ووقف وفكره

منشغل بما سيقوله لأصحابه في مقام الاعتذار. وتقدم نحوه بورزة وهو يغادر مكانه وعلى وجهه ابتسام من يرغب في المصالحة :

ـ سامحنا، يا أستاذ، ولا تؤاخذنا. أنت ترى أننا بذلنا كل ما يمكن من الجهد. وقد وصلنا ولله الحمد.

ـ نعم وصلنا، ولكن بعد كم ساعة من فوات الموعد ؟!

ـ سترى، يا أستاذ، أن الموعد لم يضع

ـ أفرض لو كان مكاني طبيب آتيا لإنقاذ مريض من الموت، هل كان يجده حيا أم ميتا ؟

ـ سكان هاته المداشر لا ينظرون إلى الأمور هكذا. ستحادثهم وتعرف منهم ذلك... ولكن لا تتركهم، يا أستاذ، واقفين ينتظرونك. إنهم أمام الكار.

والتفت المحامي، كانت هنالك جماعة كبيرة واقفة بجنب الكار. وفي مقدمتهم الرجلان اللذان كانا يتصلان به في شأن القضية التي أحسن الدفاع عنها وكانت سببا في هاته الضيافة التي دعي إليها، كان هنالك شيوخ وكهول وشباب وأطفال، وأحس بشيء من الخجل في نفسه لكونه أزعج كل هذا الجمع من البشر. ثم لكونه جاء إليهم بهذا اللباس الأفرنجي الذي يذكرهم بأيام المراقب والحاكم الأجنبي ويجعل بينه وبينهم حاجزا. فكيف، يا ترى، يحقق رغبته في الانسجام معهم والاندماج فيهم كواحد منهم. تلك الرغبة التي ما فتئت تساور فكره منذ اختياره لمهنة المحاماة ؟

ولكن، لم يكن لديه الوقت ليسرح مع أفكاره وهواجسه. بل نزل من الكار. فاستقبلته زغردة طويلة مشبعة. وتقدم إليه الناس واحدا واحدا

للسلام عليه، ولم يجد الفرصة للإدلاء بعذره حتى انتهى من مصافحة الناس التي أخذت وقتا. فالتفت حينئذ لأحد الرجلين اللذين كانا يترددان عليه بمكتبه، ونطق بهاته الكلمة التي طالما رجعها في ذهنه :

«قل لأصحابك، يا شيخ عبد السلام، كم أنا خجل من هذا الإبطاء عن الموعد الذي كان بيننا ! ولقد جئت منذ الصباح الباكر إلى الكار واعتقدت أنه سيصل بنا في الساعة المضبوطة. لكن تأخر بنا كثيرا في الطريق، ولو وجدت وسيلة أخرى لأتلافى الإبطاء لما ترددت في استعمالها. ولكن، لم تكن لدي أية حيلة، فعسى أن تقبلوا عذري.

ولمح بعض الابتسام على وجه الشيخ عبد السلام وهو ينصت إليه بهدوء، كأنه لم يكن معنيا في شيء بهذا العذر، وأجابه الشيخ بصوت متزن :

ـ لقد غمرتنا، يا أستاذ، بلطفك وأدبك، وليس هناك أي داع للاعتذار، فكن مطمئنا من هاته الناحية، إنك جئت قبل الوقت الذي كنا نتوقعه...

ـ ولكنكم دعوتموني للغداء...؟

ـ آه ! فهمت الآن إنك أخذت بقاعدة المدينة ! أما وقت الغداء عندنا نحن، فهو ساعة وصول الضيف... والحقيقة أن الكار بذل اليوم مجهودا من أجل الوصول في وقت مبكر.

ماذا يقول المحامي بعد كل هاته التطمينات ؟ كان كل شيء، إذن على أحسن ما يرام، هذا ما استنتجته من كلام الشيخ، وإن كان يحز في نفسه أن يسلم بأن الحق كان مع بورزة صاحب الكار، وانتزعه الشيخ عبد السلام من عمق اندهاشه :

- سامحنا يا أستاذ، إن اقترحنا عليك أن نسير بعض الخطوات على الأرجل، اللهم إلا إذا كنت تفضل أن تركب بغلة...

- لا داعي لذلك، ويسرني أن أسير على قدمي ولو مسافة طويلة.

- لقد اخترنا مكانا مشرفا جنب عين جارية، فنصبنا فيه قبة بهاته المناسبة، ونرجوك أن تتجاوز عن تقصيرنا. فكلنا نقدر المجهود الذي بذلته من أجل نجاح قضيتنا واسترجاع أرضنا. وكل هؤلاء الناس جاؤوا لما علموا بقدومك ليعبروا لك عن تقديرهم وشكرهم.

- ولماذا ؟ أنا لم أفعل شيئا، ما عدا القيام بالواجب.

وتحرك القوم مع الضيف الذي كان يحيط به أعيان المدشر، فخرجوا من الساحة التي وقف فيها الكار، وولجوا مسلكا ترابيا بين الجنينات والمزارع، وكانت تلوح في طرفه الآخر بعض البناءات، ولما وصلوا إليه، وجدوا أنفسهم في ساحة أخرى تحفها بعض البناءات الواطئة، فقال الشيخ عبد السلام للمحامي :

- أنظر، يا أستاذ، على اليمين، هاته زاويتنا، ولا بد من أن نقف فيها وقفة قصيرة. فلقد الح مقدمها الشيخ عبد الله مطالبا بأن يراك ويشكرك، ولولا شيخوخته وعجزه لجاء لاستقبالك.

مالوا لجهة الزاوية التي لم تكن تستلفت الأنظار بأي ميزة إذ كانت بناء مربعا بسيطا متواضعا. وكلما اقتربوا منها ازداد سماعهم لأصوات القراء والذاكرين، التي كانت تنبعث منها، وفي بابها المنخفض اقتعد شيخ جميل بلحيته البيضاء الكثيفة كرسيا من خشب، حاول أن يقف متكئا على عصاه لما اقتربت منه الجماعة إكراما للمحامي، وتطلب ذلك منه مجهودا، وأمكنه أن يقف في الأخير، وقدمه الشيخ عبد السلام

ـ هذا هو مقدمنا، يا أستاذ علي، وهو رجل ذو بركة ودعاؤه مقبول.

عانق المقدم المحامي وشكره واعتذر له عن عدم حضوره في الاحتفال باستقباله، ثم طلب من الجميع أن يقرأوا الفاتحة ويصلوا على النبي، وفي الأخير، دعا للمحامي، وكان الحضور يؤمنون على دعائه. ولم يدر المحامي ما يصنع للجواب على تلك الحفاوة لأنه قلما وقف مع أصحاب الزوايا، وقلما سمع دعاء مرتلا من هذا النوع. فكل ذلك بالنسبة له طقوس لا بد من قبولها والمشاركة فيها ولو غاب عنه سرها. ثم استرجع فكره المعتاد فرأى أن الزمان والتقدم العلمي كفيلان بتحرير الأفكار وإشاعة الأنوار العقلية بين الجميع، ثم قال له الشيخ :

ـ تفضل، ياولدي، لتزور زاويتنا وتصلي معنا المغرب فيها، إنها بدون زخرفة، ولكن بركتها مجربة عند الجميع هنا، وسينالك، أنت أيضا، نصيب من بركتها إن شاء الله.

وما وسع المحامي إلا أن يلبي الدعوة بدون تردد، فشارك الجماعة في صلاتها، ثم ودعوا المقدم الذي جدد لهم دعواته، وخرجوا من الزاوية وانغمروا في طريق صاعدة نحو قمة ربوة حيث كانت القبة منصوبة، وكان ثوبها المرقط بالأبيض والأسود يدخل شيئا من التنويع الحي على لون الغروب، فهاهم عند بابها حيث كانت جماعة أخرى من الناس منهمكين في أشغال مختلفة.

وإذا برجل يخرج من القبة ويتقدم إلى المحامي بشوشا متهلل الوجه : «مرحبا، مرحبا بالأستاذ، إنه لشرف عظيم لهذا المدشر المنزوي في ثنايا الكرة الأرضية.

ـ أنت ؟ أنت، يا بورزة ؟! أنت أيضا من المدعوين ؟

ـ نعم، نعم، يا أستاذ، أنت ترى أن كل شيء كان على أحسن ما يرام !

وفي تلك اللحظة جاء الشيخ عبد السلام ليأخذ المحامي إلى صدر المكان، حيث نصبت موائد الغداء.

سلا **محمد زنيبر**

المقاومة الشعبية المغربية للتدخل الأجنبي
في بداية القرن السادس الميلادي
حسب ما جاء في حوليات يوحنا الثالث.

محمد مزين

لم تنل دراسة المقاومة المغربية من الاهتمام ما تستحقه من طرف المؤرخين، المغاربة منهم والعرب ذلك أن حظها من الدراسة كان قليلا إذا ما قورن بدورها الكبير في تدعيم الجيوش الرسمية وتأسيسها. وقد يرجع سبب ذلك إلى ما حاوله المؤرخون في عهد الاستعمار إخفاء دور هذه المقاومة وأصولها رغبة منهم في قتل روح الوطنية عند المغاربة، وقد نتج عن ذلك إهمال لكل ما من شأنه أن يساعد على الوقوف على معلومات حول المقاومة المغربية من وثائق ومخطوطات قديمة أو حديثة.

لقد انصب اهتمامي لدراسة المقاومة الشعبية المغربية في إطار الدراسة المتواضعة التي قمت بها لمنطقة مغربية (فاس وباديتها) (1) في القرن العاشر والحادي عشر الهجريين : السادس عشر وبداية السابع عشر الميلاديين.

وأول ما أثار انتباهي تلك الوحدة الشعبية العامة في مغرب بداية القرن السادس عشر حول مبدأ مقاومة التدخل الأجنبي.

1). «فاس وباديتها من 1549 إلى 1637 مساهمة في تاريخ المغرب السعدي».

فبالرغم من محاولة بعض المؤرخين الفرنسيين (2) إخفاء هذه الفكرة تحت ستار اختلاف مراكز السلطة في المغرب آنذاك، فإن المتصفح لمكتوبات هذه الفترة، وهي كثيرة ومتنوعة (3) يدرك أن المغاربة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب لم يكن لهم سوى اهتمام واحد ألا وهو مقاومة التدخل الأجنبي (4).

ففي الشمال اشتهر الشيخ الهبطي (5) بألفيته (6) وفيها دعا إلى الجهاد وتلبية نداء الواجب، مبينا الحالة التي كان عليها السلف الصالح وكيف أنهم كانوا يتسابقون إلى الشهادة، وما أصبح عليه أمر المسلمين من تقاعس وتخاذل (7).

وكذلك كان الشيخ ابن يجبش التازي في شرق المغرب يدعو إلى مقاومة التدخل الأجنبي. ففي كتابه «تنبيه الهمم العالية» تطرق إلى الجهاد وأحكامه معتمدا على الخطاب والدعوة إلى التأمل والاعتبار. وتظهر من هذا الكتاب غيرة المؤلف الصادقة وإيمانه الشديد بالشعور

---

2) خاصة منهم
Henri Terrasse – Histoire du Maroc T. II.
Ed. Atlantides – Casa. 1950.
– R. Ricard.

3) جاء ذكر عدد منها عند : پروڤانصال - مؤرخو الشرفاء - الترجمة.
حجي محمد «الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين في جزأين. طبعة فضالة 1978.

4) حجي «القومية المغربية» دعوة الحق يونيو 1967 - ص 92 وما بعدها ويوليوز 1967 - ص 132 وما بعدها - المنوني (محمد) القومية المغربية، دعوة الحق، يوليوز 1968 - ص 76 وما بعدها.

5) أنظر ابن عسكر، دوحة الناشر 1976 - ص 7 إلى 14.
توفي أبو محمد عبد الله الهبطي عام 963 هـ / 1555 م وقد اشتهر في الشمال بذلك صاحب «عروسة المسائل».

6) «الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية» مخطوطة في ملك الأستاذ المنوني.

7) الألفية في باب ما وقع من التغيير في الجهاد بسبب تغيير الإيمان.
إن الجهاد أكبر معين عليه تنبني أمور الدين

الوطني، ويدل على ذلك ما جاء في القسم الثاني من كتابه، بصيغة شعرية، وأشهر هذه القصائد تلك التي قالها عند نزول البرتغاليين على الشواطئ المغربية واحتلالهم لمدينة أصيلا. يقول :

ولم أستطع صبرا وكيف يصح لي　　وقد هتكت من ديننا كل حرمة
وشاركنا الأعداء في قطر عربنا　　وقد أخذوا حل البلاد البهية

......إلى آخر القصيدة.

أما في الجنوب فقد كثر الدعاة إلى الجهاد، ففي سوس ذكر صاحب سوس العالمة (8) أن الشيخ العالم الحسن بن عثمان (9) (قرية اسجاور) والإمام محمد مبارك (10) (بقرية أقا) والشيخ علي بن محمد الأديب (11) وغيرهم قد دعوا إلى مقاومة الأجنبيين، وقد أدت دعوتهم هذه إلى ظهور دولة السعديين.

فكتب التراجم المعاصرة للقرن العاشر والحادي عشر أحسن دليل لمن أراد الوقوف على هذا الغليان القومي، فكتاب ابن عسكر مثلا (12) مليء بأسماء الشخصيات التي شاركت بقلمها وسلاحها للدفاع عن حوزة الوطن، فابن عسكر يذكر أكثر من خمسين شيخ كانت لهم صلة بالمقاومة...

---

8) المختار السوسي.

9) ص 156

10) نفس الصفحة والمصدر.

11) ص 133 أبو عبد الله محمد الكراسي، وجاء كتابه على شكل منظومة شعرية طبع بالرباط 1965 م.

12) ابن عسكر «دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشاييخ القرن العاشر» تحقيق محمد حجي، الرباط 1976.

ولن نستشهد اليوم بما كتبه المغاربة في القرن 16 في موضوع المقاومة الشعبية للتدخل الأجنبي لأن الموضوع مطروق في كل الدراسات الخاصة بالسعديين، حيث تدخل المقاومة الشعبية عند الدارسين كأساس لظهور الدولة السعدية.

ولكن اليوم سنعتمد على مصدر أجنبي شهد الجميع من مؤرخين مغاربة وأجانب على أنه كتاب أنجزه صاحبه لويس دوسوسا بأمر من فيليب الرابع (1627م) رغبة منهما في «تخليد مفاخر الملوك البرتغاليين» وقادتهم الذين كانوا يتولون السلطة بهذه الثغور.

والمتتبع العادي لهذا المصدر لا تظهر له سوى «البطولات البرتغالية» في أرض المغرب، ولا يستفيد منه سوى أن الجيوش البرتغالية كانت قوية ومتينة، وأنها قد أدت دورها في إبقاء المسيحية على أبواب المغرب الحديث...

ولعل التمعن في دراسة مصدر مثل «حوليات يوحنا الثالث» بحثا عن الإشارات المتعلقة بالمقاومة المغربية ليفتح آفاقا جديدة في البحث التاريخي انطلاقا من المصادر الأجنبية.

وهذا ما سأحاول الوصول إليه أمامكم في هذا العرض المتواضع مستسمحا حضراتكم عن الذكر الممل للصفحات قصد الاستشهاد، لأن نوعية البحث تفرض علي ذلك.

وقبل البحث في حوليات يوحنا الثالث عن وضعية المقاومة المغربية، أرى لزاما علي أن اذكركم بالأوضاع السياسية العامة في المغرب في بداية القرن السادس عشر الميلادي.

كانت السلطة الرسمية الحاكمة في المغرب آنذاك هي الدولة الوطاسية التي قامت على أبناء عمومتها المرينيين، وفي بداية القرن

السادس عشر بدأت هذه الدولة في الانحطاط لأسباب متنوعة اقتصادية وسياسية لا يسمح هنا المجال لتحليلها. على كل حال فمع السنين الأولى للقرن 16 كان نفوذ هذه الدولة ضعيفا إن لم نقل منعدما في جنوب المغرب، مما سهل ظهور إمارات محلية أشهرها إمارة الهنتاتيين بمراكش وإمارة السعديين بمنطقة درعة، ودخول البرتغاليين إلى السواحل المغربية الجنوبية. والحقيقة أن البرتغاليين والإسبان كانوا قد احتلوا قبل ذلك (وكان ذلك من أسباب قيام الدولة الوطاسية) عام 1415 م مدينة سبتة ثم بعدها القصر الصغير والعرائش وأصيلة وطنجة قبل أن يتجهوا إلى احتلال سواحل جنوب المغرب (13).

لقد تم كل ذلك تحت قيادة الملوك البرتغاليين (خاصة عمانويل وجيان) بموافقة من البابا (14).

وقد بدأت مقاومة هذا التدخل مع نزول أول جندي برتغالي بسبتة وتوبعت طوال القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. ومن المصادر البرتغالية التي أرخت لهذه الحقبة : دامياو دو كويش Damiao de Gois (15) ولويس دوسوسا Luiz de Soussa (16).

---

13) J. Brignon et coll. Histoire du Maroc. Hatier 1968.

14) المصادر الدفينة لتاريخ المغرب المجموعة الأولى.
– S.I.H.M. 1er Série
Portugal I. et II.
– Witte (Ch. M.) Les bulles pontificales et l'expansion europêene au 16e s. – Revue d'Histoire écclésiastique – Louvain. 1956.

15) ترجم الكتاب من البرتغالية إلى الفرنسية روبير ريكار تحت عنوان :
R. Ricard. Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521 Rabat 1937.

16) « Anais de Joâo III » traduction R. Ricard
Les Portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557. Paris 1940.

فدامياو أرخ لفترة عمانويل (1495 ـ 1521 م) ودو سوسا لفترة جيان الثالث (1521 ـ 1557 م).

وهذا الأخير هو موضوع دراستنا في هذا البحث.

ـ فماذا نعرف عن حوليات جيان الثالث ؟

وجد المخطوط لأول مرة حوالي عام 1840 م أي بعد قرنين من كتابته (1627) بمكتبة أخوذا، ونشره «هركولانو Herculano عام 1844م.

اعتمد دوسوسا على مصادر من أرشيف «طور دو طومبو « Torre de Tombo » التي عثر فيها على :

ـ كناشة قبطان ثغر طنجة فرانسيسكو بوطيلو Francisco Botelho

ـ كناشة بيرو دي أندراد كمينا Perro de Andrade Caminta

حول قيادة أنطوطنيو داسليرا بأصيلة.

ـ حوليات أصيلا لبيرناردو رودريگيز Bernardo Rodriguez

وقد مكنته مكانته الاجتماعية داخل الأوساط الأرستقراطية من الاطلاع على ما كتبه قادة الشعوب وبذلك الوقوف على عدد من المصادر جاء ذكرها في آخر المخطوط (17). منها :

ـ أرشيف السفير ألفارو ماند يس دي باسكونصيلوس Alvaro Mendes de Vasconcebs

ـ أرشيف السفير مانويل دو ميلو كونتينو Manuel de Mello Coutintio

ـ أرشيف الوزير أنطونيو كرنيرو Antonio Carneiro

---

17) مقدمة روبير ريكار في :

Les Portugais et l'Afrique du Nord. Op. cit. p. 14-15.

- أرشيف الوزير بيدرو دي ألسوفا كرنيرو Pedro de Alçova Carneiro.
- أرشيف مستشار جيان الثالث دون أنطونيو دي أطايد كونت دي كاسطانهيرا Don Antonio de Ataïde Comte de Castanheira

لا بد هنا من الإشارة إلى وجود مصدر يكمل ولا يزاحم ما جاء به دو سوسا. وهذا المصدر هو كرونيكا دي اندراد Cronica de Andrade (18)

والحقيقة ان كتاب اندراد هذا لم يهتم بالمقاومة الشعبية المغربية كما هو الحال عند دوسوسا. ذلك أن عمل اندراد اقتصر على عرض مطول لقضيتين : - قضية القصر الصغير والسينال.

- قضية المفاوضات بين شارل الخامس وملك بادس أبو حسون. (19) ويظهر ان اندراد لم يطلع على المصادر التي اعتمد عليها دوسوسا، ذلك أنه لا يعرف «حوليات أصيلا» لبيرناردو رودريكس - كما أنه لم يعتمد على أرشيف العائلات الارستقراطية.

ربما يكون ذلك هو الدافع الأول الذي جعل الملك الإسباني فيليب الرابع يعرض على دوسوسا فكرة كتابة حوليات يحنا الثالث.

وكيف ما كان الحال فلدينا اليوم كمية هائلة من الرسائل والذكرايات المعاصرة لبداية القرن السادس عشر الميلادي، يمكن للباحث فيها أن يمتحن معلومات دوسوسا وغيره ويحققها. وتوجد هذه الرسائل في مجموعة ضخمة يصل عدد مجلداتها إلى واحد وعشرين

---

18) R. Ricard. « Les Portugais et l'Afrique du Nord sous le regne de Jean III d'après la chronique de Fransisco de Andrade dans Hesperis 1937. p. 259-345.

19) بتاريخ 1549 - 1550 م.

مجلدا (20)، يعرفها المؤرخون المغاربة وكل المهتمين بشؤون المغرب في تلك الفترة، وهي مستقاة من أرشيف عدد من الدول الأوربية خاصة تلك التي كانت لها علاقات بالمغرب : ومنها البرتغال.

كما أن بعض الباحثين المغاربة (21) اليوم قد تعدوا ذلك ودخلوا الأرشيف البرتغالي في لشبونة ((Torre de Tombo)) واستقوا منها معلومات مكنتهم من إلقاء أضواء جديدة على ما كان متداولا بين المؤرخين الاستعماريين...

والآن وقد تعرفنا على المصدر وعلى مكانته في مصادر تاريخ المغرب لبداية القرن السادس عشر آن لنا أن نحاول الإجابة على سؤالين هامين :

1) ما هي المعلومات التي ينفرد بها هذا المصدر في موضوع المقاومة الشعبية المغربية في عصره ؟

2) كيف كان البرتغاليون ينظرون إلى المقاومة الشعبية المغربية ؟

(20 H. de Castries. Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc 1e série. Sène Saâdienne.

Portugal	5 volumes
Espagnes	3 volumes
Angleterre	3 volumes
France	4 volumes
Pays-Bas	6 volumes

ولقد انضم إلى دو كاستر في إنجاز هذا العمل : P. De Cenival – R. Ricard Ch. de La Veronne.
ولا يحتوي هذا المجموع إلا على القليل من الرسائل المغربية التي تعبر عن مواجهة التدخل الأجنبي ربما تكون تلك الرسائل قد أبعدت عمدا من طرف مخرجي هذا المجموع.

21) بوشارب (أحمد) «دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور» رسالة جامعية مطبوع في جزأين على الستانسيل 1979.

تمهيدا للإجابة على هذه الأسئلة لا بد من تسجيل عدد من الملاحظات :

- الملاحظة الأولى تكمن في منهج صاحب المصدر، ذلك أنه يتضح لمن يتبع خطوات دو سوسا ومنهجه وسرد الأحداث أن صاحب الكتاب يهتم بكل الأحداث ولا يفرق بين الصغير منها والكبير، حيث انه يصف المناوشات الصغيرة التي تقع بين سكان البلاد والأجنبي، كانت حول بقرة أو حول حصان، بدقة (ص : 21 و 28) قلما تجدها عند غيره ممن أرّخ لأحداث نفس الفترة. كما نجده يتوقف في وصفه مثلا لهجوم المقاومة على ثغر مزگان عام 1545 في شهر ينا ير (22)...

وقد تلمس حيرة دو سوسا عند رصده للمعلومات التي يقدمها حول هذه الهجومات المغربية على الثغور. فهو مرة ينساق في وصف متحيز للجانب البرتغالي ويظهر «شجاعتهم واستماتتهم» أمام المقاومة المغربية، ومرة يستدرك ويشير إلى عدد من «الأبطال المغاربة» مثل ذكره للمقدم (23) وسرده لعدد من « بطولياته»، وهو لا يذكر الإسم الكامل للمقدم ربما كان هذا المقدم معروفا عند كل البرتغاليين، كما ذكر القائد عبد الملك (Amelix) (24) وكذلك علي بن عيسى (Ali ben Aix) (25) والقائد العروسي سيدي أحمد ((Cid Hamet Laros)) (26) ومن ذكره

---

22) ص 162 - 167.
23) ص 28 - 64 - 87.
24) ص 64.
25) ص 27 - 64 - 72. إلى 75 - 92 - 93.
26) ص 26.

القادة إلى وصف شجاعتهم «شجاعة المغاربة» كما جاء في رسالة لويس دو لوريرو (Luiz de Loureiro) (27).

وقد نتج عن هذه الدقة في الوصف والحيرة في تقديم الحقائق عدد من المآخذ تكون بمثابة الملاحظات الثانية والثالثة والرابعة.

ـ الملاحظة الثانية هي أن رغبة دو سوسا في الاهتمام بالثغور المغربية كلها جعلته لا يلم بكل ما عرفته هذه الثغور، فجاء عمله عبارة عن عمل انتقائي واختياري لما كان يظنه يخدم نظرته وغايته.

ـ الملاحظة الثالثة أن رغبته في تناول تاريخ كل هذه الثغور في فترة زمنية واسعة (1521 ـ 1557) (28) جعلت عمله يكتسي صبغة السطحية الزمنية.

ـ الملاحظة الرابعة رغم أن غرضه الأول هو إظهار القوة البرتغالية فقد انتهى بنتيجة معاكسة لما مهد له. ذلك أن دو سوسا انتهى بمحاولة إبراء ذمة يحنا الثالث عند انهزام الجيوش البرتغالية وجلائهم عن الثغور المغربية حوالي عام 1541 م و (أگدير (29)، آسفي، آزمور ثم أصيلة) مما يدل على أن المقاومة المغربية كانت أعنف مما كان يذكره دو سوسا.

والآن ماذا يمكن استخلاصه من حوليات يحنا الثالث حول المقاومة الشعبية المغربية في النصف الأول من القرن السادس عشر ؟

ـ أولا يظهر من كلام صاحب المصدر أن المقاومة الشعبية المغربية عرفت تطورا ملموسا في هذه الفترة. فقد تزايدت إمكانياتها وتنظيماتها

---

27) ص 162 و 187.

28) والحقيقة أنه رجع في ص 113 إلى عام 1509 وذكر في ص 143 أحداث عام 1574.

29) أگدير Santa Cruz de Cap de Ague

مع مرور الزمن. ففيما يرجع للإمكانيات فإنه لم يرد ذكر سلاح النار عند المغاربة في كتاب دو سوسا إلا عام 1508 م (30) حيث كان سلاح المقاوم يتكون من :

- السيف.
- الخنجر.
- الرمح (31).

بينما استعمل البرتغاليون سلاح النار منذ محاربتهم الأولى لاقتحام آزمور عام 1508 م وبعد ذلك في عام 1513م (32).

أما في موضوع تنظيم المقاومة فيفهم من كلام دو سوسا أن القيادة في البداية كانت محلية : شيخ القرية، وقد ذكر قيام قرية بكاملها مع شيخها ضد البرتغاليين قرب القصر الكبير، وكان عدد أفرادها ستين شخصا (33)، كما كانت القيادة كذلك بيد المقدم (34) أو القائد (35) ذلك أن المقاومة الرسمية بقيادة السلطة المركزية كانت لا تزال نادرة بل منعدمة في بعض المناطق النائية...

ويظهر من كلام صاحب المصدر كذلك أن المقاومة كانت فصلية ترتبط بفصول السنة، حيث أن أياما الحرث والحصاد كانت أياما تتوقف

---

30) ص 10.

31) ص 64.

32) أنظر في الموضوع402 ـ S.I.H.M.P.I354وقد استعملت الأسلحة النارية قبل ذلك ـ أنظر الإيصال المتعلق بتمويل ثغر أصيلة الذي ذكر من بين المواد المرسلة إلى ثغر البارود ص 286 ـ 285. أنظر كذلك Chronique Anonyme de Santa – Cruz. Irad. P. de Cenival p. 85.

33) ص 127.

34) ص 28 ـ 72 ـ 75.

35) ص 26.

فيها الحركة ضد الثغور وتبقى تلك المناوشات الفردية (36).. في الليل والنهار...

وقد تعددت في المصدر الإشارات المتعلقة بنوعية الاصطدامات : كالمجابهة المباشرة الفردية والجماعية واستعمال الحيل، والمضايقة وغيرها.

ويتعذر على الباحث تحديد الفترة الزمنية التي يمكن اعتبارها مرحلة أولى للمقاومة المغربية انطلاقا من كتاب دو سوسا، وذلك لأن الاحتلال البرتغالي للثغور المغربية تم في بحر أكثر من قرن إذا انطلقنا من تاريخ احتلال سبتة (1415 م) وأن صاحب المصدر ابتدأ تاريخه انطلاقا من عام 1521.

والحقيقة أن دو سوسا يرجع بالقاريء حتى عام 1509 م (37) ولكنه سرعان ما يمر مر الكرام على ما نعرفه من مصادر أخرى معاصرة للفترة. فعلى سبيل المثال، فإن صاحبنا لم يشر ولو بكلمة إلى الحصار الذي ضربته المقاومة المغربية على آسفي عام 1510 م (38)، وقد دام هذا الحصار أكثر من سبعة عشر يوما، وقتل فيه عدد كبير من المحاربين، وقع ذلك على إثر إحساس السكّان بتكاثر عددِ البرتغاليين بالمدن الساحلية (آسفي وآزمور) ومضايقتهم للمغاربة، فتكون حلف شاركت فيه قبائل المنطقة تلقائيا ومن هذه القبائل :

---

36) ص 27 ـ 64 ـ 83.

37) ص 113 كما جاء ذكر عام 1517 في ص 68، وعام 1505 في ص 83.

38) Léon l'Africain. Description de l'Afrique. T.I. Epaulard – 1956.

ـ أولاد عمران السفلى والعليا، وأولاد يعقوب وأولاد بوعزيز وهذه قبائل آزمور، إلى جانب القبائل القاطنة في المنطقة الممتدة من آزمور و «المدينة» كأولاد الزبيت والغربية، وكذلك القبائل البربرية المستقرة في نواحي أكوز جنوب آسفي.

وكان الحلف يتكون من 1000 فارس و 20.000 من المشاة.

وقد اشارت المراسلات البرتغالية المتبادلة بين قادة الثغور والملك البرتغالي إلى هذا الهجوم (39).

فهذا الحصار الذي بين إمكانية اتفاق المقاومين المغاربة لم يشر إليه دو سوسا حتى بكلمة.

ويظهر جليا الارتباط الذي انتبه إليه دو سوسا نفسه بين الفترة الزمنية ونوعية المقاومة المغربية التي كانت تواجه البرتغاليين :

ـ فـ «جيش التحرير» في البداية كان يتكون من فئات شعبية يحركها الدين والشعور بالوطنية (40) ولا تحركها (كما ألمح إلى ذلك دو سوسا) حاجياتها المادية، يكفي الاقتناع من ذلك بما ذكره صاحب المصدر نفسه من أن المقاومين أحرقوا المحصولات الفلاحية بناحية طنجة

---

39) خاصة رسالة من نونو فرانديس دي أطايد Nuno Fernandez de Ataide حاكم اسفي إلى الملك البرتغالي عمانويل

ـ رسالة من نفس القائد إلى ماديرا (Madère)

ـ رسالة من نفس القائد إلى قشتالة.

وقد حصل هذا القائد على إمدادات كثيرة من الرجال والعتاد

S.I.H.M. Portugal I. p. 272. Gois p. 60-61.

40) حجي ـ القومية المغربية ـ سبق ذكره، والمنوني، سبق ذكره.

وأصيلة بدل الاستيلاء عليها واستغلالها عام 1529 م (41) يوم كان البرتغاليون محاصرين داخل أسوار تلك المدن !

وإذا كان لا بد من تحديد المرحلة الأولى من المقاومة الشعبية المغربية فإن عام 1523 م يفرض علينا ابتداء مرحلة جديدة، ان الباحث يلمس عند دو سوسا رغم ما يحاول اخفاءه ذلك الشعور بقوة الطرف الثاني، فهو لا يذكر معركة أو مناوشة إلا وذكر اسم القائد المغربي والأسلحة المستعملة، وهذا دليل على أن حاجيات وإمكانيات المقاومة المغربية قد تطورت، فكان لا بد من إجماع على قائد تكون منطقة نفوذه أوسع ليتمكن من تمويل جيشه وتسليحه.

وهذه أسماء القادة الذين ذكرهم المصدر :

البلدة أو المنطقة	اسم القائد	كما ورد عند دوسوسا	مصدر آخر يذكره
تادلة	القائد العطار	24 Latar	S.I.H.M. P. II. p. 265
القصر (الكبير)	سيدي أحمد العروسي	26 Cid Hamet Laros	״ ״ ״
جبل الحديد	المقدم علي بن عيسى	64 Ali ben Aix	Gois p. 47
القصر (الصغير)	القائد عبد الملك	27 Amelix	״ ״
الشاون (نركة)	القائد مولاي ابراهيم	87 Muley Abrahem	״ ״
القصر (الصغير)	القائد سيدي عبد الواحد	89 Cid Abalua	B. Rodrigues II. p. 107
(؟)	القائد سيدي أحمد	89 Cid Hamet	B. Rodrigues II. p. 57
وزان	القائد عسو (أوعاشور)	96 Assuar de Ouazzan	B. Rodrigues II. p. 77 et 81

جل هؤلاء القادة محليون، فهم إما قادة المناطق المجاورة للثغور أو قادة لبعض المدن التي كانت تقود الجهاد ضد الثغور مثل : القصر الكبير ووزان وتطوان وغيرها.

41) ص 114 ـ 115.

فالمصدر لا يذكر مدى علاقات هؤلاء القادة بالسلطة المركزية بفاس ما عدا في حالة واحدة أو حالتين، عندما ذكر أن القائد عبد الملك سافر إلى فاس لمقابلة ملكها (42) وكان عندما أشار إلى قدوم ملك فاس لقيادة الهجوم ضد الثغور بنفسه (43) حيث يذكر أن محمدا البرتغالى قام بمهاجمة ثغر أصيلا أربع مرات، كما عاد يذكر في صفحة 51 و 52 (44) ما مفاده أن الملك نفسه وألف من المحليين (ص 70) قاموا بمهاجمة ثغر أصيلة.

وقد حاولت إحصاء عدد المرات التي قام فيها المغاربة بضرب الثغور عند دو سوسا، ووجدتها كثيرة ففرقتها فيما بين ما هو محلي أو تحت قيادة قائد (وهذا ما يمكن اعتباره مقاومة شعبية صرفة أي بدون مساهمة السلطة المركزية) وهجومات تحت قيادة سلطنة فاس أو مراكش في الحقبة ما بعد عام 1528 م (45) فكانت النتيجة الجدول التالي :

42) ص 27.

43) ص 29.

44) من المصدر المدروس.

45) من بداية قيام الإمارة السعدية في الجنوب أي بعد سقوط مراكش بيد الأعرج 25 ـ 1526.

هجومات تحت قيادة محلية

الرقم الترتيبي	ص. من ك. ط. 1940	القائد	تاريخ وقوعها
1	24	العطار	1521
2	26	أحمد العروسي	نونبر 1521
3	32	أحمد العروسي	يونيو 1522
4	33	أحمد العروسي	أكتوبر 1522
5	36	أحمد العروسي	نونبر 1522
6	46	أحمد العروسي	1524
7	47	أحمد العروسي	1524
8	52	أحمد العروسي	أبريل 1525
9	63	أحمد العروسي	شتنبر 1525
10	72 ـ 73	المقدم علي بن عيسى	ماي 1526
11	79	المقدم علي بن عيسى	ماي 1526
12	87	مولاي ابراهيم	ماي 1526
13	90 ـ 92 ـ 93	سيدي أحمد	1527
14	96 ـ 98 ـ 99 100 ـ 101		1528
15	104	مولاي إبراهيم	1528
16	108	سيدي الناصر	دجنبر 1528
17	123 ـ 124	(غير مذكور)	1529
18	127	(غير مذكور)	أبريل 1530
19	129	الحسين النجار	أبريل 1530
20	132	(غير مذكور)	أبريل 1930
21	152	أخ بودبيرة	يوليوز 1541
22	162 إلى 166	(قادة الشريف)	يناير 1542

هجومات تحت قيادة مركزية

الرقم الترتيبي	ص. من ك. ط. 1940	السلطة	تاريخ وقوعها
1	52	ملك فاس (محمد البرتغالي)	9 ن. 1525
2	54 ـ 55 ـ 56	ملك فاس (الحسون)	د. 1524
3	70	ملك فاس (الحسون)	ي. 1526
4	71	ملك فاس (الحسون)	ي. 1526
5	87	الأمير مولاي أحمد بن محمد البرتغالي	ي. 1527
6	92	ملك فاس مولاي أحمد	1527
7	95	ملك فاس مولاي أحمد	1527
8	96	ملك فاس مولاي أحمد	1927
9	96	ملك فاس مولاي أحمد	-
10	114 ـ 115	ملك فاس	أبريل 1529
11	132 ـ 133	ملك فاس	أبريل 1530
12	136	ملك فاس	ماي 1530
13	143 ـ 144 ـ 145 146	السعدي محمد الشيخ	1540
15	173 ـ 174	محمد الشيخ	30 ن. 1534
16	191	محمد الشيخ	1548

يثير هذا الجدول عددا من الملحوظات ،

ـ أولا يذكر 22 هجوما تحت قيادة محلية بينما لا يذكر سوى ستة عشرة هجوم تحت قيادة رسمية ، ثلاث عشرة منها وطاسية وثلاثة هجومات سعدية. وهذا يفيد مدى قوة المبادرة الشعبية. والحقيقة أن هذا الإحصاء الذي يقدمه لنا دو سوسا جاء مطابقا لما نعرفه اليوم عبر المراسلات العديدة التي كشف عنها في الموضوع والتي تحدد كذلك أن هذه المقاومة الشعبية ظهرت مبكرة، أي منذ بداية التغلغل الاستعماري البرتغالي في شمال المغرب.

ثانيا ـ يظهر أن الهجومات المغربية المحلية (أو الشعبية) التي جاء ذكرها في المصدر وقعت كلها ما بين سنتي 1521 و 1542، بينما لم تبدأ المقاومة الرسمية في حوليات يحنا الثالث سوى عام 1524 م، ووقفت حسب نفس المصدر عام 1542. وهذا كذلك يدل على أن المقاومة الشعبية سبقت الرسمية، ومرجع ذلك إلى أن السنين الواقعة ما بين 1521 و 1525 كانت فيها وضعية السلطة القائمة بفاس (الوطاسية) ضعيفة ولا يتعدى نفوذها حدود الأقاليم القريبة من فاس، بينما لم تزل سلطة السعديين القائمين في جنوب المغرب لم تتمكن من تكوين جيش يقاوم الأجنبي في مناطق آسفي وآزمور، وتعتبر سنة 1526 م سنة تحول في ميزان القوى داخل المغرب، ذلك أن الأمراء السعديين استطاعوا الاستيلاء على مدينة مراكش وإخراج الهنتاتيين منها وجعلها عاصمة لهم في انتظار الاستيلاء على باقي أنحاء المغرب.

ثالثا ، لو ادمجنا التواريخ التي تحركت فيها المقاومة المغربية المحلية والرسمية التي جاء ذكرها عند دو سوسا لأدركنا أن الهجومات كانت متتالية ومتسلسلة مع تسلسل السنين، ولا ينقص اكتمال هذا

التسلسل سوى السنين، 1523 ـ 1532 ـ 1533 (46) ـ 1535 ـ 1539 (47).

والحقيقة أن الفترة ما بين سنة 1535 و 1539 هي فترة احتدم فيها الصراع وتقوت فيها المقاومة المغربية تحت قيادة السعديين، ولو رجعنا إلى المصادر التقليدية المغربية لأحصينا أكثر من عشرين هجوما ضد الثغور الجنوبية، أكدير وآسفي وآزمور ـ وأعظم حملة مغربية وصفها دو سوسا (48) تلك التي جمعت قبائل الشياظمة وعبدة وغربية والشاوية تحت قيادة القائد بوديرة وأخيه القائد السابق لمنطقة درعة (49) وأشياخ القبائل، وكلهم تحت سلطة الشريف (50).

وذكر دو سوسا أن المهاجمين حاولوا تجويع سكان ثغر آسفي لإرغامهم على الخروج، وهذا الهجوم مذكور في مصادر أخرى معاصرة تشير إلى أن هذا الجيش استعمل أسلحة نارية ومدافع كبيرة الحجم مثل المامونية (51).

وقد انتهت هذه الحملة عام 1541 ـ 1542 بإجلاء الجيش البرتغالي عن تلك الثغور الثلاثة ويقر بها دو سوسا نفسه (52) في حوليات جيان

---

46) سنة 1531 مذكورة في ص 139.

47) تقع هذه السنين في فترة لم يشر فيها دو سوسا إلى أي حدث، ذلك أن الكاتب أشار في الباب الثاني من كتابه إلى عام 1540، بعد إشارة عابرة إلى عام

48) نفس المصدر ص 144.

49) لم يذكر اسمه.

50) محمد الشيخ السعدي الذي تولى قيادة الإمارة السعدية من 1541 إلى 1557.

51) Dzuibinsky – L'armée et la flotte marocaine à l'époque saâdienne Hesperis 1972.

52) ص 190.

الثالث حين يذكر مصاريف الملك المتزايدة على الثغور حيث يظهر صعوبة بقاء الجيش البرتغالي بها :

ـ 1534 : 100.000 كروصادوس ((Cruzados)) لإنقاذ آسفي وتزويدها بالمؤونة وتزويد آزمور وأكدير بالعتاد والمؤونة.

ـ 1542 : 300.000 كروصادوس لمحاولة إنقاذ آسفي وآزمور بعد سقوط أكدير في أيدي السعديين وإخلاء الثغرين المذكورين ولأشغال ترميم أسوار مزكان...

ـ 50.000 كروصادوس لشراء الحبوب أيام المجاعة. ويظهر أن ما ذكره صاحب المصدر بعد 1542 (53) لم يعد فيه أثر للمقاومة المغربية مع أن الباحث في المجلدات الخاصة بالبرتغال في المجموعة الوثائقية لدوكاستر (2) يلاحظ كثرة الشهادات من الرحل والتجار المسيحيين وكثرة المراسلات حول تزايد حركة المقاومة واستعدادها في الجبهة الجنوبية والشمالية تحت قيادة السعديين الذين استطاعوا جمع شتات السلطة المغربية ضد التدخل الأجنبي وقد يتأكد هنا مدى صحة القولة بأن الجيش السعدي أساسه جيش المقاومة.

ـ الملاحظة الرابعة هي أن الجدول يبين أن أهم الهجومات المغربية على الثغور كان قد تم خلال أحد الأشهر التالية : شتنبر ـ أكتوبر ـ نونبر ـ دجنبر أو يناير، وهذه هي الشهور التي يضطرب فيها الجو وتتهاطل الأمطار في المغرب، وتصعب بذلك التحركات العسكرية وفي نفس الوقت يصعب السفر على البحر، وربما

53) واهتم في هذا القسم بالهجوم على المغرب الأوسط وإفريقيا.

كان ذلك هو سر المقاومة المغربية التي تضرب الثغور في المدة التي لا يمكنها التوصل بالإمدادات من البرتغال أو من اسبانيا.

- الملاحظة الخامسة والأخيرة تتعلق بمراكز المقاومة السعدية. حسب دو سوسا كل الأحداث المتعلقة بالمقاومة المغربية والواردة في هذا المصدر ترتبط بمناطق ثلاثة :

دكالة : آسفي وآزمور ومزكان وأگدير (سوس).

الهبط : العرائش وأصيلا.

الفحص : طنجة وسبتة.

وأكثر الأحداث المذكورة يتعلق خاصة بالمناطق الشمالية. ويرجع ذلك إلى أن صاحب المصدر اعتمد خاصة أرشيف الثغور الشمالية مثل Bernardo Rodrigues Anais de Arzila ، كما يرجع إلى أن دو سوسا يعتبر أن أكثر البطولات البرتغالية سجلت في الشمال.

وخلاصة القول ان المقاومة المغربية فرضت نفسها على الكتاب والمؤرخين حتى ظهرت عند الأجانب....

فاس محمد مزين

فلسفة أو لا فلسفة
ليس ذاك هو المشكل(•)

فاطمة الجامعي الحبابي

«إن الأسلوب الفلسفي الحق هو صراع الأفكار المباشر مع الموضوع»
(جان لاكروا)

يعتبر ابن خلدون أول من دعا إلى التأريخ العلمي، وواضع أسس العمران البشري، وهو علم أشمل مما اصطلح على تسميته اليوم بـ «سوسيولوجيا». وقد طبعت نظرياته عن سير العالم، وتفسيراته التي يعطيها للأحداث التاريخية بطابع فلسفي صميم.

فعلى أي نسق فلسفي ظاهر أو ضمني، اعتمد صاحبنا ليصل إلى اكتشاف هذين العلمين الهامين ووضع قوانينهما.

(•) هذه ترجمة لصفحات من كتاب «ابن خلدون أحد فلاسفة كل العصور» لمحمد عزيز الحبابي، صدر بباريز عن دار سيغرس.

يظهر البحث أن الفكر الخلدوني يستوحي عناصر من الفلسفة «المدرسية»، يعتمدها في تأسيس العمران البشري (الفلسفة المجتمعية)، كما يعتمدها في منهجه الفلسفي الذي وضعه للتاريخ، في الوقت الذي نجده يعارض الفلاسفة وأعمالهم معارضة عنيفة.

فكيف يمكن تفسير هذه المفارقة ؟

الجواب جد معقد، إذا نظرنا إلى مقاصد الخلدونية وتوترها أمكننا أن نؤكد أنها فلسفة، أما إذا نظرنا إليها من حيث التقنية، ظهر أنها ليست كذلك، وبذا نستطيع أن نقول أن لا مفارقة في الخلدونية. يوظف ابن خلدون تكوينه الفلسفي في أبحاث لا تنبثق مباشرة عن الفكر الفلسفي «المدرسي» وليس لها به سوى علاقة جانبية. إن الخلدونية لا تضع نسقا فلسفيا محددا، ولا تنتمي إلى مذهب فلسفي معين سابق عليها، إذ لا يوجد بالمقدمة تعبير عن منظومة فكرية شمولية، فما قام به صاحبنا شبيه بما سيقوم به فيما بعد (بوصوي) (1)، و (فيكو) (2) و (هيردر) (3)، و (كوندورصي) (4) وكثير غيرهم. لقد اراد أن يخطط لعلم جديد عام، لا أن يؤلف كراسات فلسفية على شاكلة أرسطو والكندي، وابن رشد وغيرهم من الفلاسفة المرموقين. ولعل ذلك ما جعل أعمال ابن خلدون لا تخلو من التباس.

---

(1) مؤرخ (1727 - 1804) من رجال الكنيسة الفرنسية، ألف كتابا عن تاريخ العالم.

(2) مؤرخ وفيلسوف إيطالي (1668 - 1744)، يرى في كتابه «مبادئ فلسفة التاريخ» أن تاريخ كل شعب يمر بثلاث مراحل أو أعمار هي :

- المرحلة الإلهية (سيطرة الفكر الديني والغيبيات).
- مرحلة الأبطال.
- المرحلة الإنسانية.

(3) مؤرخ (1744 - 1803) ألف كتابا «آراء حول فلسفة تاريخ الإنسانية».

(4) مؤرخ (1743 - 1794) ألف مدخلا عاما تاريخيا لمراحل تقدم الفكر الإنساني.

لماذا يستعين مؤلفنا بالفلسفة في الوقت الذي يحتقرها ويحذر من طرقها ونتائجها ؟

ذاك ما سنقوم بدراسته

۵ ۵ ۵

إن التفكير نتيجة حتمية للبحث المتعمق. فما أن يصل مفكر إلى مستوى معين من البحث حتى يجد نفسه يتأمل ويفكر، وقد انكب الجنس البشري على التأمل منذ بدء الحضارات (5).

يعتبر اكتشاف العرب المسلمين لأرسطو وترجمتهم مؤلفاته من السريانية إلى العربية (بدمشق)، ثم ترجمتها مباشرة عن الإغريقية إلى العربية (ببغداد)، ثورة فكرية بالنسبة للفكر العربي. لقد اصبح أرسطو المعلم الأول، ودخل المنطق الصوري الأرسطي كل الميادين : الفقه (المعاملات وعلم الأصول) والنحو، وفقه اللغة، وعلم الكلام، والفلسفة... فورث ابن خلدون هذا التراث المشائي الذي أصبح يحمل طابعا إسلاميا. ولكن، يبدو أن هذا الإرث، كما تعكسه **المقدمة**، كان خليطا من العقلانية واللا عقلانية. أو بتعبير آخر، يبدو **بالمقدمة** تعلق وثيق بالفلسفة يتواجد مع موقف جد حاد ضد الفكر الفلسفي والفلاسفة. يؤكد ابن خلدون أن العقل يمكنه أن يدرك كل حقيقة، ويتوافق مع طبيعة الأشياء، وأن عملية الإدراك هذه تولد علما خاصا لا يخلو من تفلسف (6).

(5) أنظر المقدمة، ج 3، ص 1085.

(6) أنظر : ج ١، ص 265.

ولذا يصف كتابه عن التأريخ العالمي «كتاب العبر...» بأنه فلسفي لما يتميز به من تأمل ومحاولة تفهم الحقائق وإدراكها. فهو قد :

«ذلل من الحكم النافرة صعابا، وأعطى لحوادث الدول عللا وأسبابا، وأصبح للحكمة صوانا وللتاريخ جرابا» (7).

بناء على ذلك يعتبر التأريخ فرعا هاما من الفلسفة :

«فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق (8). والفلسفة في رأي مؤلفنا كما تؤكد الفقرة التالية، علم بل علم نافع جدا لأنه يمكن من الحصول بوسائل الاستدلال والبرهنة على ملكة الحكم الدقيق الصائب :

«فهذا العلم (...) ليس له فيما علمنا إلا ثمرة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين» (9).

بيد أن الفلسفة تغدو خطرا على إيمان الذين لا يهتمون بمعرفة العلوم الدينية، إنها تشبه اللسان، يمكنه أن ينطق بالحق كما يمكنه أن ينطق بالبهتان والخطل.

وحيث أن ابن خلدون مؤمن ومقتنع بحقيقة إيمانه، فمن الطبيعي أن يكافح دفاعا عن الإيمان، بل من المنطق والصواب أن يلتزم بذلك، لكن كان عليه ألا يهاجم الفلسفة، وأن يكتفي بتحذير من ليسوا مهيئين لممارسة التأملات الميتافيزيقية من الوقوع في مغبة الانشغال بالماورائيات لخطرها على معتقداتهم الدينية.

---

(7) ج ١، ص 214.

(8) ج١، ص 209.

(9) 519، ط. م. ت.

لقد كان لابن خلدون موقفين من الفلسفة : يرحب بها متى عملت على أن تعطي «لحوادث الدول عللا...» وقربت من الحكمة، وأعانت على فهم العمران، ويرفضها رفضا باتا، ويجردها من كل قيمة ويعتبرها مضرة إذا ما عارضت الإيمان. فالفلسفة في حد ذاتها علم بلا جدوى لذا يجب أن يحترز في تطبيقها.

مشكل آخر يمثل مفارقة جديدة : تأثر ابن خلدون بمنطق أرسطو ومع ذلك يؤكد أن البرهنة المنطقية «عاجزة عن أن تنمي معرفتنا بالكون، لأن العقل البشري جد محدود» (10).

فإلى أي شيء تعزى أمثال هذه التناقضات ؟

يبدو أن هجوم ابن خلدون ينصب على التمنطق المتعسف لا على المنطق في مفهومه الحقيقي، إنه يعارض المنطق الصوري وشكلياته الجامدة لما يعطى من مطلقية تخوله التدخل في كل شيء، في الفقه والنحو... بل حتى فيما يتصل بشؤون عالم الآخرة وشؤون الخالق نفسه. بيد أنه رغم تدخل هذا المنطق في كل شيء، فإنه يفشل أمام ملكة الحكم السليم كما تظهر التجربة. حقا، إن الفلسفة تشبع رغبتنا الطبيعية في المعرفة، وتطلعنا إلى أشياء تتعلق بالعالم العلوي. ومن الخطأ، حسب ابن خلدون، أن نغتر فننساق إلى ادعاء القدرة على إزاحة الفلسفة عن مركز قواها المحدد. فإذا كان العمران الحضري يدفع إلى الغرور والتعالي عن القيم الفكرية والروحية وتحصل عنه إساءة إلى الدين والإيمان، فإن لا شيء يبرر ادعاء القدرة على الإدراك المباشر للحقيقة الإلهية. وسيأتي

(10) المصدر السابق، ص 514.

(كانط) بعد قرون فيؤكد أن المعرفة الاستدلالية لا تبلغ أبدا الكائن في ذاته، وإنما تقف عند الظاهرات وحسب.

إن فكرة (كانط) هذه تلتقي مع فكرة خلدونية أخرى هي : يرى صاحب المقدمة أن طبيعة الروح وصفاتها مشكلة عميقة جدا، وليس هناك أية وسيلة لمعرفتها معرفة حقيقية :

«أما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات (...) فإن ذواتها مجهولة رأسا، ولا يمكن التوصل إليها، ولا البرهان عليها (...ف) حقيقتها وصفاتها أمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه» (11).

إن وضعية ابن خلدون كمؤرخ، ورجل سياسة، ومنظر للعمران البشري ألزمته بأن لا ينجر إلى التأمل التجريدي الميتافيزيقي، وفرضت عليه القيام بتحليل الأحداث انطلاقا من معطيات قابلة للملاحظة والتجربة، فماهية الكائنات لا تخضع إطلاقا للمعرفة البشرية، ولا يمكن إدراكها بالاستدلال العقلي وحده.

إن عجزنا عن إدراك الماهيات لا يبيح لنا أن نحظر على الفكر البشري البحث فيها. وقد شعر بذلك ابن خلدون، فهو وإن كان يستند إلى العقل في كل ما يطلق من أحكام، يحذر من الادعاء القائل بأنه يمكن حل المشاكل، بما فيها المشاكل المتعلقة بطبيعة الروح وبذات الله وصفاته، بالمنطق فحسب. فالواقع أن التأملات الميتافيزيقية والأقيسة المنطقية لا تستطيع أبدا أن تحيط بالحقيقة كلها.

تلتقي عند العمراني غالبا، عملية التفلسف مع ممارسة الحياة، لذا عليه أن يعتمد الملاحظة عوضا عن التأمل والتجريد، وهو بذلك مخالف

(11) المصدر السابق، ص 516.

للفيلسوف إذ تبقى عنده الرؤية التي يكونها عن العالم بعيدة إلى حد ما عن الواقع، فكل نسق فلسفي يحتوي على نسبة ما من الذاتية.

وعلى العكس منهما فإن المؤرخ مطالب بأن يتقيد بالموضوعية حتى لا ينحرف عن الإخلاص للحقيقة، والأمانة في التعرض للأحداث التي ينقلها الشهود وتؤيدها الوثائق.

يرفض ابن خلدون، كما رأينا الفلسفة حينما تغدو مرادفة للميتافيزيقا، وتقوم على التجريد المحض، أو عندما تكون مرادفة للمنطق الصوري المتجمد (12). وفي مقابل هذه الفلسفة، يضع منهجه الخاص الذي يقوم على الملاحظة الملموسة، والتحليل المقارن للمعطيات الموضوعية.

فلنفرض أن الفلاسفة العقلانيين والواقعيين يرحبون بهذا الاتجاه، لن يمنع هذا من أن يظل للعقل حقه في الانسجام مع نفسه باسم حرمة الواقع والعقلانية، كما لن يكون في ذلك تناقض مع مبادئ الدين الإسلامي. ألا يحصل التواصل والتبادل بين الأفراد وبين الجماعات حسب النظرة التي يكونها القرآن والسنة عن العالم ؟ ولكن على المسلم أن يحذر العقل المطلق خشية أن يبعده عن «الصراط المستقيم» (13)، كما عليه أن لا يصدم إن بدا هذا الصراط، أحيانا، غير منسجم مع التفكير العقلي.

---

(12) خصص ابن خلدون لهذا الموضوع فصلا عنونه بـ : «إبطال الفلسفة وفساد منتحليها»، أنظر 514، ط. م. ت.

(13) على المسلم أن يطلب الهداية من الله في كل صلاة : «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» (قرآن 1، 6 و 7).

يرمي ابن خلدون قبل كل شيء إلى تتبع الظاهرات المجتمعية مترصدا الواقع كما يبرز للحس والملاحظة والتجربة. من ثمة لا يرضى على الشكلية الأرسطية، رغم احترامه لأرسطو. فالتأمل يعني انعكاس محتوى ذهني في سياق ما، ثم تجسيده في عمل تظهر نتائجه عمليا، أو على الأقل، تكون قابلة للظهور والملاحظة. وعندما يصل التأمل آخر مطاف تصبح للعقل كفاءة يهبها الله الإنسان كيما يتعرف عليه ويعبده (14).

جميع ما في العالم مقدس ودنيوي في آن واحد. وإن كل مسلم حق كابن خلدون التقي الفقيه لا يرضى أن يدنس الكون الذي هو من صنع الله بإخضاع كل مظاهره للعقل كقوة واحدة للإدراك. لذلك تعارض السنة الإسلامية العقلانية المتطرفة (15) التي تجرد العالم من القدسية، لتخضعه للعقل الخالص الذي لا يعطي في ميادين عديدة سوى تصورا فارغا وغريبا.

كما يقف أهل السنة (وابن خلدون أحدهم)، موقفا حذرا من إفراط العقل في دعواه، فإنهم يعارضون كذلك الصوفية المتطرفة التي تخص كلا من الذوق (16) والحدس الذي يجرد العقل من كل أهمية، بحظوة متميزة. فعندما يهيمن على الصوفي الشوق الروحي والمواجدة، يرى أنه يمكن حل كل المشاكل من المنظار الروحي فحسب، فيدير ظهره

---

14) «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (قرآن 51 : 56)، وبذلك يحيا البشر وجودهم الخاص وعظمتهم المتميزة في الكون.

(15) مثل عقلانية بعض الفلاسفة الإسلاميين المتأثرين بالهلينية.

(16) الذوق عند بعضهم عبارة عن «نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره». الجرجاني : التعريفات.

للبرهنة والعلم، إذ ذاك يغرق في لا عقلانية محض (الحلول، وحدة الوجود، الفناء في ذات الله) (17).

يقرر ا بن خلدون أن للإنسان قدرة على التفكير، ولكنه يؤكد في نفس الآن، أن العقل البشري محدود. فالواقعية الخلدونية وإن كانت تستنير بالعقلانية، ترفض أن يطغى العقل على الواقع، إذ لا ينكشف للعقل سوى جزء من الواقع. لا جدال في أن للمنطق في هذا الجزء من الواقع، دورا أساسيا يقي التأمل من الوقوع في الخطإ، إلا أنه لا يجوز أن نستعين بالفلاسفة والميتافيزيقيين لإدراك حقائق الأجزاء الأخرى، الحياة الروحية والغيبيات، وإنما من الممكن أن نسترشد بالمتصوفة، إذ الأمر يتعلق بعالم يسدل فيه حجاب سميك بين العارف وبين ما يود أن يعرف، فلا يمكن أن يرفع الحجاب إلا بواسطة التمارين الروحية :

«كشف الحجاب الذي أشرنا إليه إنما هو بالرياضة وبالإذكار...» (18).

ه ه ه

نستخلص تفرقة ا بن خلدون هذه بين الميدانين من تصوره النقدي للمعرفة، ومن تصنيفه للعلوم. إذ يجعل المعارف صنفين :

الصنف الأول، العلوم النقلية الشرعية (19)، أو كما يسميها : « النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي» (20).

---

(17) أنظر ج ٣ ص 1112 و 1113.

(18) ج ٣ ص 981.

(19) أي العلوم التي وضعها الله وأنزلها على عباده بواسطة رسله من الأنبياء، والمستندة إلى القرآن والسنة، بل وعلوم اللغة والتاريخ...

(20) ج ٣، ص 992.

أما الصنف الثاني، فهو العلوم الحكمية أو الفلسفية (العلوم العقلية). إنها «طبيعية» بالنسبة للإنسان والعقل، لأنه يلاحظ ويتأمل. ونظرا لكون التاريخ في رأي ابن خلدون، يعتمد التأمل والنظر، فإنه يدرجه منذ الصفحات الأولى للمقدمة، في أصناف الفلسفة (21). ويضيف بأن كتابه في التاريخ يهدف لأن :

«يستوعب أخبار الخليقة استيعابا، ويذلل من الحكم النافرة صعابا» (22).

تتصل العلوم النقلية بالتقاليد والأعراف الخاصة ببيئة مجتمعية معينة، وهي لذلك تتغير ضروريا من مجموعة لأخرى، ويقف انتشارها عند حدود الملة التي تتبناها وتنقلها بكل أمانة جيلا عن جيل. وعلى عكس ذلك، إن العلوم الفلسفية ترمي إلى الشمولية، وتنمو حيثما وجد التأمل الشروط الملائمة له. وحيث أن العقل مشترك بين جميع الكائنات البشرية، فإن العلوم الفلسفية، أو العلوم العقلية ليست ملكا خاصا لمجتمع ما. إنها :

«طبيعية للإنسان من حيث أنه ذو فكر، فهي غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها» (23).

ثم إن العلوم الفكرية لا تتعارض في شيء مع حقائق الإيمان في الإسلام، بل إنها تؤيده وتقويه فـ :

---

(21) أنظر ج ١، ص 209.

(22) ج ١ ص 214.

(23) ج ٣، ص 1085.

«أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية، وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة» (24).

من ثمة تبنى المسلمون العلوم الفلسفية لأنهم كما يرى ابن خلدون، أدركوا قيمتها وصلاحيتها، فالفكر الإنساني ينزع طبيعيا إلى معرفة تلك المواد، ولم يخرج المسلمون عن هذه الطبيعة، فهم أيضا :

«تشوفوا إلى الاطلاع إلى هذه العلوم الحكمية (...) بما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها» (25).

الرباط فاطمة الجامعي

---

(24) ج ٢، ص 1042.

(25) ج ٢، ص 1090.

هواجس...

علي الصقلي

رَبِّ مـاذا قـد لَقِينـــا ! نحـنُ بالشـك شَقِينــا
فاملِإ القلــب يقِينــا مـن هـوَى النفـسِ يقِينـا
ليس يَخبـو ما بَقِينـا

نحـنُ خُضنـاهُ عُبابـا لـك، شِيبـاً وشبابـا
أتَـرى تفتَـحُ بابـا للسنـا يَجلـو اللُّبابـا
بعـد أن عِفنـا الضَّبابـا ؟

آه مـن فَـرط عَمَانـا ! قـد نَسِينـاكَ زمانـا...
فحُرِمنـاكَ أمانـا... يـا إلهـي، وضَمانـا
فاجـرِ ذِكـرى فـي دِمانـا

هِـي ذي الأوهــامُ تبــدو   ولهــا الإنســانُ عبــدُ
زَبَدٌ (1) جافـاهُ زُبْـدُ   ضَـاعَ فـي جَـدواه كَبْـدُ

مـا كهـذا السَّبـدِ (2) يبـدُو!

كـم مُنـىً بالعمْـرِ تجـري   عَقِمـت مـن سـوء تَجْـرِ (3)
إن أتـى الليـلُ بفَجـرِ   عَمِيَـت عنـه لفُجْـرِ

رَكبتْـه دون زَجْـرِ

أَلَهَـا مِـن دونِ شفْـعِ   بجَمِيـلٍ، أيُّ نَفـعِ ؟
ذاك مَا يقضـي برَفـعِ   للمعالـي، وبِدفـعِ

لِـذوي شَيْـبٍ ويَفْـعِ (4)

عمَـلُ الغُمْـي وَجَـاءُ (5)   سَـاءَ مـا ظنـوا... وجـاءوا...
فلَهـمْ حـقُّ الهِجـاءُ   أوَ فـي مَيْـتٍ رَجـاءُ؟

أوْلَـهُ يُجْـدِي التِجـاءُ ؟

---

1) ما يعلو الماء ونحوه من الرغوة.
2) السبد : الداهية والمصيبة.
3) تجارة.
4) اليفع : ترعرع الغلام، ومناهزته البلوغ.
5) مالا خير فيه.

حَمَلوا عُوداً ونايا وتغنّوا بالدنايا
ولقد ضَلّوا الثنايا ونَسُوا أن المنايا
رقدت تحتَ الحنايا

يا إلهي ما وعَيْنا حكمةً فيما سعينا..
لا ! ولا نحن رعَيْنَا ذمةً، لا ! بل نعيْنا
خُلُقاً أمثَلَ عينا !

القلى أضحى وبيلا ليس يستثني قبيلا
فاجعلِ الحُبَّ سبيلا يَنفُذْ أعدانا نبيلا
لَن يُرى يوماً جَبيلا (6)

وهو ذا بادي المعالِمْ بيننا غولُ المظالمْ
ماله ليس يُسالمْ جاهلا منا وعالمْ ؟!
أفيبقى دون جالِمْ ؟ (7)

آهِ منهُ ! تاهَ شَعبُ بأذاه، فهو شِعبُ
تهله، واللهِ صعْبُ جِدُّه معناه لَعْبُ
أمْنُه ذُعرٌ ورعْبُ

6) غليظ الخلق قبيحه .
7) قاطع باتر.

وَلَكَـــمْ إفْـكٍ أبَـاحَـــــا مُسْتَبِـــدٌ وَاسْتَبَاحَـــــا
فَانْشُــرِ الحَـــقَّ صَبَاحَـــا رَائِعـــاً يُنْسِـي الصَّبَاحَـــــا
إنْ بَدَا بالظُّلْمِ بَاحَا

الرباط علي الصقلي

المفاهيم النقدية
عند الجاحظ
(150 - 255هـ)

د. حكمة علي الأوسي

لم يحاول الجاحظ أن يضع قواعد ومقاييس نقدية لمعالجة قضايا الأدب والنقد وتحديد المفهوم الذي يريده أو يتطلبه في كل منها.

وكل آرائه النقدية التي ساقها متناثرة، في أثناء كتبه، عامة وفي كتابيه البارزين البيان والتبيين، والحيوان، خاصة، لم تأت إلا على شكل نظرات عارضة استدعت الحديث فيها ووقوفه عندها مناسبات استطرادية غير مقصودة لذاتها.

ويبدو من الغريب أن لا يسعى الجاحظ، بما أوتي من نظرات نقدية نافذة، وذوق أدبي رفيع، وثقافة علمية وفلسفية ولغوية واسعة، أن لا يسعى إلى إقامة النقد على أصول منهجية لها قاعدتها الفلسفية الراسخة وتطبيقاتها العملية المتفردة. لهذا جاءت آراؤه، في مجال الدراسة النقدية الأدبية، نظرات سريعة أقرب إلى الخواطر والملاحظات منها إلى النظريات ذات الأسس والأصول.

ويمكن إجمال المفاهيم والآراء النقدية التي ألم بها في كتاباته في جملة من النقاط كان في بعضها مشاركا غيره من الدارسين، أو كان غيره يشاركه فيها، وكان بعضها الآخر من استنباطاته الذاتية ومن ملاحظاته الدقيقة النافذة.

1 ـ النظر الموضوعي :

يتجلى هذا النظر الموضوعي في قول الجاحظ منتقدا من يزرون بأشعار المولدين لا لأسباب أدبية أو فنية محددة، بل لأنهم مولدون فحسب :

«وقد رأيت أناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويتسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان، وفي أي زمن كان» (1).

فهو، هنا، يضع قاعدة نقدية موضوعية ترفض فكرة التفاضل الزماني والمكاني، ولا تنظر إلى الشخص الذي يصدر عنه الشعر وهل هو بدوي أو حضري، من القدامى أو المحدثين المولدين، وإنما تعتمد، في إصدار الأحكام النقدية، على ما في الشعر ذاته من جودة، من أي شاعر جاء وفي أي زمان كان. وهذا مبدأ قال به ابن قتيبة، أيضا، بتفصيل أكثر.

وتبدو هذه النظرة الموضوعية قائمة على مبدأ ديني أخلاقي في أساسه هو مبدأ الانتصار للحق ضد الباطل، أو مبدأ يدعو إلى التمييز بين الحق والباطل، والتصدي للأهواء التي تجعل الناقد مغلوبا على أمره فـ

---

1) الحيوان 3 / 130.

«لا يبصر الحق من الباطل». يبدو هذا واضحا في تفضيله شعر أبي نواس إذ قال :

«وإن تأملت شعره فضلته، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو، أبدا، أشعر، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء. فإن اعترض هذا الباب عليك، فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوبا» (2).

إن روح التجرد من الأهواء والأحكام المسبقة واضحة في هذا المبدأ النقدي، فهو يرفض الحكم لشاعر لأنه بدوي أو ابن زمن قديم ماض وهو يرفض أن ينجس حق شاعر مجيد لأنه مولد أو ابن الحاضرة والأمصار.

فالجودة هي المقياس الأول والأخير عند الجاحظ. ولكن، ما هي مقاييس الجودة وضوابطها ؟ إنها البصر بجوهر الشعر. وهذا يعني أنه يقرر مبدأ الخبرة المستندة إلى الثقافة الواسعة والممارسة الطويلة. وهو مبدأ سبق أن قرره ابن سلام.

ولا أدري لماذا يسمي الدكتور إحسان عباس هذا المبدأ العلمي المكين بـ «النظرة التوفيقية» و بـ «فكرة التسوية» (3) وهما تسميتان أقرب في مضمونهما ودلالتهما اللغوية، إلى فكرة المساومة التجارية وموقف «الترضية» في حل الخصومات، منهما إلى مفهوم النظر العلمي المنصف المجرد عن الأهواء وعن الأحكام المسبقة التي سبق أن استقرت في النفوس والأذهان دونما تمحيص أو تعليل. وهذا النظر هو أساس متين من أسس البحث الموضوعي بالمفهوم الحديث للمصطلح.

---

2) الحيوان 2 / 27.

3) أنظر : إحسان عباس تاريخ النقد... ص : 95 و 106 و 107.

2 ـ اللفظ والمعنى :

لم يكن الجاحظ من المنحازين للفظ انحيازا مطلقا دونما تحديد أو تقييد كما فهم من نظريته المتعلقة بالمعاني المطروحة في الطريق، حين قال :

«وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير» (4).

لم يكن الجاحظ يقصد بالمعاني العامة والمعاني الشائعة والمألوفة المرددة بين الناس، انها «مادة المشاهدة والتجربة في الحياة العامة» كما نعتها د. إحسان عباس (5).

ولعل الجاحظ حينما قرن الشعر بالصناعة والنسيج والتصوير إنما أراد أن يشير إلى أن أساس التفاضل بين صناعة وصناعة ونسج ونسج، وتصوير وتصوير لا يرجع إلى ما تعبر عنه من معنى ومغزى بقدر ما يرجع إلى جودتها الظاهرة وجمالها المحسوس المشاهد فالشأن في استحسانها إنما هو في شكلها ومظهرها، لا في مضمونها ودلالتها (6).

---

4) الحيوان 3 / 131 ـ 132.

5) تاريخ النقد العربي...، ص 18.

6) يذكرنا رأي الجاحظ هذا، أو ما نفهمه من رأيه هنا، بقول الروائي الكولومبي الشهير غابرييل غرسيا ماركيز : «مهمة الروائي... أن يكتب رواية جيدة... لا أطالب الكاتب أن يكون محاربا سياسيا في مؤلفاته، فهل يطالب الاسكا في أن يملأ أحذيته مضمونا سياسيا ؟» أنظر ميغيل فرنانديز براسو : عزلة غابرييل غرسيا ماركيز. ص 75، الترجمة العربية ـ بيروت 1981.

وحديث الجاحظ عن اللفظ لا يعني به اللفظ المفرد فحسب، بالرغم من أنه عني بالألفاظ المفردة وما يعتريها من عيوب وما تتصف به من محسنات، وإنما يعني به أيضا اللفظ في سياق «النظم» أي في سياق التركيب التعبيري الجملي، أي الصياغة الأدبية للمضمون (7).

وهذه الصياغة المؤثرة هي التي يقصدها الجاحظ، وفي ضوئها فهم قول العتابي : «البلاغة إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق» (8).

ومما يدل على أن الجاحظ كان يهتم بالمعنى أيضا، إلى جانب اهتمامه باللفظ، أنه كان يفاضل بين المعاني ويرى أن منها ما هو غريب عجيب، وما هو شريف كريم، وما هو بديع مخترع. وأن من المعاني ما يجيد الشاعر وصفه فيتحامى الشعراء تقليده، مثل وصف عنترة للذباب «فإنه وصفه فأجاد صفته فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له أحد منهم، ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه أنه صار دليلا على سوء طبعه في الشعر» (9).

---

7) وفي أهمية الصياغة الأدبية يقول غابرييل غرسيا ماركيز : «الحقيقة لا تبدو حقيقة لأنها كذلك ببساطة، بل بفضل الصيغة التي تصاغ بها»، المرجع نفسه ص 103. وقد ادرك الإحساس الشعبي هذه الحقيقة الأدبية فقررها في قول مأثور باللهجة العراقية مضمونه أن «الكذب المنمق خير من الصدق المخربق» أي أن العبرة في إقناع الآخرين والتأثير فيهم بالصياغة لا بالمضمون. وعلى هذا الأساس نفسه يقوم الفن الدعائي الحديث سياسيا وتجاريا.

8) البيان والتبيين 1 / 113 و 220 وانظر تعليق الدكتور جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف القاهرة، بدون تاريخ ص 282 ـ 287.

9) الحيوان 3 / 311 ـ 312.

فما يقصده الجاحظ، هنا بالمعنى، إنما هو الوصف والصورة الأد بية. ولا نظن أن هناك معنى أو وصفا لا يمكن تقليده أو سرقته، كما يقول البلاغيون وإنما العبرة بالتوفيق في أدائه وتصويره.

ويعلق الدكتور إحسان عباس على نص الجاحظ هذا وعلى موقفه من الشكل بقوله : «فقوله أنه لا يسرق دليل على أن (السر في المعنى) قبل اللفظ، ولكن الجاحظ لم ينتبه لهذا التناقض» (10).

وفي الواقع إننا لا نجد في نص الجاحظ المذكور عبارة له عن المعنى تنص على «أنه لا يسرق» وكل ما قاله هو «فتحامى معناه جميع الشعراء» أي تجنبوا القول فيه. وليس في هذا التعبير حكم يقطع بأن المعنى «لا يسرق» بل هو على العكس من ذلك قد ذكر أن بعض الشعراء المحدثين عرض لهذا المعنى ولكنه اضطرب فيه ولم يوفق في أدائه. وهذا يعني، ضمنا، أن غيره قد يوفق فيه. فليس هناك في نظري، تناقض بين اهتمام الجاحظ باللفظ وعنايته بالمعنى.

ومن الواضح أن «المعنى» الذي قصده الجاحظ هنا هو الصورة الشعرية التي أجاد عنترة رسمها للذباب، فسر الإجادة يبقى في جودة الأداء، وهو من عناصر الشكل، وليس في المعنى، وإن اطلق الجاحظ عليه هذا اللفظ.

إذن فهناك، عند الجاحظ، معنى جيد، ومعنى مستكره مضطرب. وهذا احتفال بالمعنى وتمييز بين أنواعه.

---

10) إحسان عباس كتابه المذكور، ص 100.

وللمعاني، عنده، أعيان وحقائق يكشف عنها التفسير و «عن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها من السار والضار، وعما يكون منها لغوا بهرجا، وساقطا مطرحا» (11).

وهو يرى أن أحسن الكلام ما جاد لفظه وشرف معناه، وما شف لفظه عن مضمونه : «وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه... فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع، بعيدا عن الاستكراه، ومنزها عن الاختلال، مصونا عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة» (12).

والشواهد كثيرة، في كتابات الجاحظ، على اهتمامه بالمعنى والعناية به على أن لا يكون في ذلك إهمال للفظ، لأنه يرى أن الكلام الجيد لا بد له من الملاءمة بين اللفظ والمعنى لأن المعاني «تحل من الألفاظ محل الروح من البدن (13).

وفي موضع آخر يؤيد موعظة في صفة الأديب البليغ جاء فيها (14) :

«... فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا واعاره البليغ مخرجا سهلا، ومنحه المتكلم دلا متعشقا، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملا. والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة تحولت في العيون

11) البيان والتبيين 1 / 76. فالجاحظ إذن، لم يسو بين المعاني كما فهم بعض الباحثين، أنظر د. جابر عصفور : مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، بيروت 1982، - دار التنوير ص 27.

12) البيان والتبيين 1 / 83.

13) هذا الرأي للعتابي والجاحظ يؤيده (انظر : عبد العزيز عتيق : النقد الأدبي عند العرب ص 328).

14) البيان والتبيين 1 / 254.

عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، وحسب ما زخرفت...».

ويبدو اهتمامه بمسألة الانسجام والتلاؤم بين اللفظ والمعنى، أيضا في قوله (15) : «ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء : فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل،...».

وما دعوته إلى التزام اللحن واجتناب الاعراب، إذا ما اقتضى الحال ذلك، إلا بسبب قناعته بضرورة الانسجام بين اللفظ والمعنى، ليكون الأداء الأدبي ناجحا وموفقا. ويبدو هذا واضحا في قوله (16) :

«وأنا أقول : إن الاعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الاعراب، لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج، وتلك اللغة وتلك العادة، فإذا دخلت على هذا الأمر ـ الذي إنما أضحك بسخفه، وبعض كلام العجمية التي فيه ـ حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل، وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدلت صورته».

لاحظ تأكيده على «الصورة» التي هي، ولا شك، الصورة الأدبية المكونة من تفاعل اللفظ مع المعنى.

---

15) الحيوان 3 / 39 وانظر أيضا البيان والتبيين 1 / 145 و 4 / 23 24.

16) الحيوان 1 / 282 وانظر هذا الرأي نفسه في البيان والتبيين 1 / 145 ـ 146 (نشر الخانجي، القاهرة 1975) ومن المواطن الأخرى التي يتحدث فيها الجاحظ عن المعنى : الحيوان 4 / 454 ـ 456 والبيان والتبيين 1 / 75 و 76.

المعاني غير محدودة والألفاظ محدودة :

ومن القضايا الأساسية المتعلقة باللفظ والمعنى،عند الجاحظ، قضية بالغة الأهمية في التعبير الأدبي خاصة،والفني عامة ، تلك هي مشكلة أن المعاني التي تستشعرها النفس الإنسانية غير محدودة في تنوعها وظلالها وألوانها والوسائل المعبرة عنها محدودة ومعدودة. وربما كان الجاحظ هو أول وآخر من قرر هذه الحقيقة الإنسانية، في التراث العربي، في مجال التعبير الأدبي، إذ قال (17) :

«... إن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصودة معدودة، ومحصلة محدودة».

وهذه النظرية الجاحظية هي صلب مضمون كتاب لاسل آبر كرومبي «قواعد النقد الأدبي» إذ يعرف فيه الأدب بأنه «فن استخدام وسائل محدودة كرمز لتجارب غير محدودة» كما وضحنا ذلك في كتابنا : مفاهيم في الأدب والنقد (18).

لكل أديب مفردات تميزه :

من الحقائق المهمة، في مسائل النقد الأدبي، ما التفت إليه الجاحظ ببصيرته النافذة من أن لكل شاعر أو أديب صاحب كلام منثور ألفاظا

17) البيان والتبيين 1 / 76 وربما كان الجاحظ أول وآخر من قرر هذه الحقيقة بين مفكري العالم في العصور الوسطى، أيضا.

18) أنظر حكمة علي الأوسي : مفاهيم في الأدب والنقد ـ القاهرة 1978 ص 7 ـ 17.

معينة تتردد في كلامه، وتكون سمات أسلوبية خاصة به. قال الجاحظ (19) :

«ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون، فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها، ليديرها في كلامه، وإن كان واسع العلم غزير المعاني كثير اللفظ».

يبدو من قوله «لكل قوم ألفاظ...» أن لكل فئة من الناس تجمعهم مهنة واحدة، أو ظروف اجتماعية واحدة، ألفاظا معينة يتداولونها في كلامهم وفي ما يكتبون. ولهذه الحقيقة أهمية خاصة في النقد الأدبي، لأن الناقد يمكنه، عن طريقها، أن يميز الأساليب المختلفة، ويقرر ما هو صحيح النسبة منها وما هو منحول. يضاف إلى ذلك أن هذه الحقيقة يمكن أن تساعد المنشئ الأدبي في الشعر القصصي أو الرواية أو القصص أو المسرح ليكون موفقا في ما يضعه على السن شخصيات قصصه من حوار يمثل بيئاتهم وثقافتهم المتنوعة.

أثر البيئة في تطور التعابير اللغوية :

أدرك الجاحظ أن التعابير اللغوية والمجازية، شأنها شأن المفردات تنشأ وتتطور، ويترك الكلام بها، وفق ما تتطلبه البيئات الجغرافية والاجتماعية المختلفة.

وقد رصد هذه الحقيقة الجوهرية في كلام للأصمعي نقله الجاحظ في البخلاء إذ قال : (20).

---

19) الحيوان 3 / 366 وانظر تعليق الدكتور عبد العزيز عتيق على هذا النص، في كتابه «تاريخ النقد الأدبي عند العرب» ص 328.

20) البخلاء ص 214 (تحقيق : طه الحاجري)، القاهرة 1981.

«كان الأصمعي يقول : قد كان للعرب كلام على معان فإذا ابتدلت تلك المعاني لم يتكلم بذلك الكلام. فمن ذلك قول الناس اليوم : ساق إليها صداقها. وإنما كان هذا يقال حين كان الصداق إبلا وغنما. وفي قياس قول الأصمعي أن أصحاب التمر، الذين كان التمر دياتهم ومهورهم، كانوا لا يقولون ساق فلان صداقه. قال : ومن ذلك قول الناس اليوم : قد بنى فلان البارحة على أهله، وإنما كان هذا القول لمن كان يضرب على أهله في تلك الليلة قبته وخيمته، وذلك هو بناؤه...).

إذن، فالتعابير والمجازات التي كانت ابنة البيئة الصحراوية حيث كان الناس يتعاملون بالإبل والأغنام، لا ينبغي أن تستعمل في بيئة زراعية يتعامل فيها الناس بالتمر، أو بغيره من الأثمار والمنتجات الزراعية. وقد قاس الجاحظ هذا الأمر على مضمون قول الأصمعي. وهذا قياس سليم، ولكنه لم يخبرنا هل حصل حقا، هذا الذي يقيسه، وكيف كانوا يقولون للتعبير عن هذا المعنى نفسه بقالب تعبيري مستمد من ظروف بيئتهم هذه.

إن فهم الجاحظ هذا لارتباط التعبير اللغوي ببيئته، وقياسه عليه لهو فهم لا يختلف، في جوهره، عما جاءت به أحدث النظريات اللغوية والأدبية، في العصر الحديث وهو الشيء الذي ما فتئ كبار الأدباء والنقاد العرب يدعون إليه، ويحثون الأدباء على انتهاجه في الأدب العربي الحديث، ليكون إنتاجهم ابن عصره وبيئته حقا.

ومما يلاحظ أننا لا نجد، في نظرات الجاحظ النقدية الصائبة هذه محاولة لتطبيقها فيما عرض له من نقد أدبي في صفحات كتبه. وهذه ظاهرة واضحة في كتابات النقاد العرب القدامى : يتوصلون بنظرهم

الثاقب، وخبرتهم الواسعة، وثقافتهم الأدبية والفكرية العميقة، إلى حقائق وأصول صائبة، ثم لا نجد لها، فيما يعالجونه من أمور النقد، أثرا بارزا.

أما ما لاحظه الجاحظ من تطور معاني جملة من المفردات العربية واختلاف دلالاتها في الإسلام عما كانت عليه في الجاهلية، ورصده طائفة من الألفاظ والتعابير مما كان مستعملا قبل الإسلام ثم تركه الناس وصاروا إلى غيره في الإسلام وفي زمن الجاحظ نفسه، فقد ذكر طائفة من هذا في مواطن مختلفة من كتاب الحيوان (21).

3 ـ غاية الأدب التواصل :

لقد أدرك الجاحظ بحسه المرهف، وروحه الأدبية الصافية، وثقافته العميقة الواسعة، الهدف الأساس لفن القول فقرره بوضوح لا غموض فيه إذ قال :

«إن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع (22)».

فغاية الأدب، على هذا، هي توصيل المشاعر والأحاسيس والمعاني والمقاصد إلى السامعين، أي هو التواصل النفسي وما فيه من تبادل التأثير.

ولا ينبغي أن نفهم من قوله : «فبأي شيء بلغت الافهام... فذلك هو البيان...» أنه يساوي بين البيان الأدبي والبيان بالإشارة أو بالرطانة، وإلا لكان يناقض نفسه. وإنما هو يتحدث، هنا، حديثا فلسفيا يحاول فيه

21) أنظر الحيوان 1 / 327 ـ 334، وراجع داود سلوم : مقالات في تاريخ النقد العربي، بيروت 1981 ص 135 ـ 137.

22) البيان والتبيين 1 / 76.

أن يبين أصناف الدلالات من لفظ وغير لفظ، على المعاني العامة، بأسلوب الحصر والتحديد الفلسفي. لذلك راح يدخل فيها، إلى جانب اللفظ المطلق من أية صفة أو شرط، الإشارة والعقد والخط...الخ. ففي كل هذه الوسائل دلالات على المعنى، ولكنها ليست دلالات أدبية، ولا هي بالوسائل الأدبية أو البلاغية، للدلالة على المعاني.

وقد وقع العتابي في خطأ تعميم مشابه لهذا، حين قرر «ان كل من أفهمك حاجته فهو بليغ»، فعلق الجاحظ على قوله هذا موضحا قصده فيه، إذ قال (23) : «وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء...» ان الغاية الأساسية للأدب هي التغيير عن طريق التأثير، ولا يمكن أن يكون هناك تأثير من غير تواصل ذهني ونفسي، وهذا التواصل لا وجود له من دون «الفهم والإفهام». وهذا ما أدركه الجاحظ إدراكا عميقا، سبق به النظريات الأدبية المعاصرة.

4 ـ موقفه من الشعر :

يصدر الجاحظ في نظرته إلى الشعر عن مفهومه العام لعلاقة اللفظ بالمعنى، وضرورة التلاؤم بينهما في صياغة فنية مؤثرة في النفس، مستميلة للمتلقي بما فيها من جمال النغم والإيقاع وتخير اللفظ السهل الجميل، في صحة طبع وجودة سبك وحسن تصوير، وملاءمة لمقتضى الحال.

فالمعاني عنده، إذا ما كسيت ألفاظا كريمة، وعرضت بأثواب رفيعة، ازدادت قيمتها، وقوي تأثيرها في النفوس، وأمكنها أن تقنع

23) المصدر نفسه 1 / 161 ـ 162.

المخاطبين بما تريد، وان تظهر لهم ما غمض من الحق، وتصور الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل (24). وتلك هي البلاغة، وذلك هو البيان الساحر.

ويشترط الجاحظ لهذا الأداء الأدبي البليغ أن يتجنب السوقي المبتذل من الألفاظ، والوحشي المنفر منها، وألا يكون فيه تكلف في تهذيب الألفاظ وكد للذهن في التخلص إلى غرائب المعاني (25)، أي : يكون وسطا بين طرفين مذمومين لا يفيد أي منهما في تحقيق غاية الأدب التي هي التواصل والتجاوب النفسي عن طريق «الفهم والإفهام».

إلا أن المقام إذا اقتضى سخيف المعاني، فلا بد، حينئذ، من اللجوء إلى سخيف الألفاظ «... وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني» (26).

وقد يستغرب أن يصدر هذا القول عن الجاحظ فيدعو إلى سخيف المعاني والألفاظ ويجعلها أكثر إمتاعا، في بعض المواضع، من الكريم الشريف. ولكن هذا الاستغراب يزول إذا ما فهمنا الجاحظ على حقيقته وهي أنه أديب واقعي وجه جل اهتمامه إلى شؤون الشعب في حياته الواقعية التي يحياها يوميا، وجعل اللغة طيعة مستجيبة لمقتضيات هذه الحياة.

وبهذا يمكننا أن نفهم، أيضا، قوله : «... إن النادرة الباردة جدا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جدا. وإنما الكرب الذي يختم على

24) أنظر البيان والتبيين 1 / 113 و 220.

25) المصدر نفسه 1 / 225.

26) المصدر نفسه 1 / 145.

القلوب، ويأخذ بالأنفاس. النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا باردة. وكذلك الشعر الوسط، والغناء الوسط. وإنما الشأن في الحار جدا والبارد جدا» (27).

ومع غموض مقصوده من «النادرة الباردة والفاترة والحارة» فربما أمكننا أن نفهم منها أنه يشير إلى ما يدور بين الناس في حياتهم اليومية المسترسلة على سجيتها، وما يحصل لهم في الواقع من نوادر وطرائف مثيرة للضحك، وممتعة للنفس، على ما في بعضها من سخف وفجاجة وبرودة شديدة، وما في بعضها الآخر من جدية مكتنفة بالمفارقات المدهشة المثيرة. فهذان طرفان ممتعان، أما ما بينهما من أحداث وسطى، لا هي إلى هذا ولا هي إلى ذاك، فتبدو سمجة ممجوحة.

والأدب والشعر، خاصة، والطرفة والنادرة، على الأخص، هي التي فيها طاقة الإثارة والإمتاع. ولا تكون كذلك إلا بأن تكون شيئا غير عادي، أي شيئا نادر الحصول حقا، وسواء انتهى إلى الطرف البارد جدا أو إلى الحار جدا.

والشعر الوسط لا إمتاع فيه، أي ؛ لا إثارة فيه. وكذلك كل فن. لأنه لا يكون، عندئذ عاديا. والعادي المألوف لا خير فيه.

ولعلنا نستطيع أن نستخلص، من هذا التفسير والتحليل، أن عنصر الإمتاع والإثارة عنصر ضروري للإنتاج الفني عامة، وللأدبي منه خاصة في نظر الجاحظ.

---

27) المصدر نفسه 1 / 145.

القصد إلى الشعر ضروري

وهناك موقف من الشعر يبدو صدوره من الجاحظ غريبا. إنه مفهوم يختلط فيه اشتراط القصد إلى الشعر، ومفهوم الكم المجرد عن الكيف، مع المعرفة بالأوزان. ويبدو هذا في قول، في معرض الرد على من زعم أن في القرآن، وبعض ما أثر عن الرسول من قوله، شعرا (28).

«... اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن كثيرا، ومستفعلن مفاعلن. وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا. ولو أن رجلا من الباعة صاح : «من يشتري باذنجان»، لقد كان تكلم بكلام في وزن : مستفعلن مفعولات. وكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر ؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها، كان ذلك شعرا...

فكان الجاحظ يشترط لإطلاق صفة الشعر على الإنتاج الأدبي، أن يتوفر فيه القصد إلى الشعر لدى القائل مع مقدار لم يحدده من الإنتاج داخل في باب الشعر والمعرفة بالأوزان.

ومن الغريب أن يركز الجاحظ هنا على الكم والمعرفة بالأوزان والقصد إليها، دونما ذكر لشروط الجودة الأخرى التي تطلبها في الشعر في نصوص مر ذكرها والتعليق عليها.

الشعر والترجمة

يسوق الجاحظ الحديث عن الترجمة على صورة محاورة علمية جدلية طريفة أشبه شيء بالحوار المسرحي أو الروائي، بين المفضلين

28) المصدر نفسه 1 / 288.

للكتب المترجمة عن الهند واليونان والفرس، والمدافعين عن فضيلة الشعر العربي ومن ينصره ويحوطه ويحتج له. فيقول على لسان محاور مدافع عن الشعر الذي هو فضيلة العرب وحكمتهم، ومأثرتهم، ان «... الشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه، وذهب حسنه وسقط موضع التعجب (فيه)، لا كالكلام المنثور...» (29).

وامتناع الشعر على الترجمة إنما هو بسبب قيامه، في مفهوم الجاحظ على إقامة الوزن الذي هو عنصر معجز في الشعر العربي (30) وعلى النظم المؤثر في السامعين والقارئين، أي بسبب جودة السبك وجمال الصياغة. فإذا ما نقل إلى لغة أخرى بطل سر الإثارة فيه، وفقد طاقته التأثيرية الإيجابية.

والترجمة النثرية لكتب العلم وآداب الأمم وحكمها، قد يحالفها التوفيق، ولكن الترجمان، حتى لهذا الكلام المنثور «لا يؤدي أبدا ما قاله الحكيم، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها...» (31).

فإذا كان الأمر في هذه الكتب المنثورة، على ما مرت صفته، وبانت نواقصه من صعوبة الترجمة الدقيقة الأمينة، فترجمة الشعر بما فيه من اتساق نظم، وإقامة وزن، وجودة صياغة وسبك، تكون، ولا شك، أكثر

---

29) الحيوان 1 / 75، وقد اضفت (فيه) وليست في النص لأن ذلك أكمل للتعبير.

30) الحيوان 1 / 75.

31) الحيوان 1 / 75 ـ 76.

صعوبة وأعصى على التنفيذ. فإن الشعر «إن هو حول تهافت، ونفعه مقصور على أهله، وهو يعد من الأدب المقصور وليس بالمبسوط ومن المنافع الاصطلاحية وليست (منفعته) بحقيقة بينة» (32).

وقد بدا هذا النص، للدكتور إحسان عباس، غامضا مغلقا، وحاول أن يبدد غموضه ويفك اغلاقه. كما حاول الدكتور داود سلوم، من قبل، أن يفسر بعض عباراته التي بدت له أن بها حاجة إلى تفسير. «وقد ذهب الدكتور سلوم إلى أن «الأدب المقصور» يعني هنا الأدب الذي يبغي منه المتعة والجمال. وقرن النص برأي أرسطو طاليس في المأساة التي تمنح القارئ اللذة الخاصة بها (لذة مقصورة عليها) (33) ». وقرر الدكتور إحسان عباس «أن هذا الرأي ليس مما يعتنقه الجاحظ».

ثم راح الدكتور احسان عباس يفسر مضمون هذا النص، فوفق في جانب من تفسيره، ولم يحالفه التوفيق في جانب آخر. فقد وفق في إظهار موضوع النص وهو «المفاضلة بين ما هو محقق النفع... وبين ما هو اصطلاحي المنفعة...» (34).

وما لم يوفق فيه، في نظري، هو تفسيره لتعبير «الأدب المقصور» و «المبسوط» وللفظة «حول».

فمضمون النص، كما يبدو لي، هو أن الشعر إن هو «حول» أي : ترجم إلى لغة أخرى «تهافت» أي : لم يعد له ذلك الماء والرونق الساحران، ولا ذلك الوزن الموسيقي المطرب الأخاذ و «المعجز» كما

---

32) الحيوان 1 / 80 وقد احسن الدكتور إحسان عباس بإضافة (منفعته) وليست في النص ليستقيم التعبير. أنظر كتابه المذكور ص : 102.

33) إحسان عباس : كتابه المذكور ص : 103.

34) المرجع نفسه ص : 103.

وصفه الجاحظ. وإذ أن الشعر العربي سره في صياغته وأوزانه، وإذ أن حكمة العرب في شعرهم هذا، فإن الهنود واليونان والفرس لو أنهم حولوا، أي ترجموا، هذه الحكمة الشعرية إلى لغاتهم «لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم» (35).

والشعر «نفعه مقصور على أهله» أي : أن ما فيه من تأثير نافع، سواء كان عن طريق إمتاعه أو تقويمه للنفوس بما يحويه من الحكم والعبر والفوائد المعبر عنها تعبيرا أدبيا فنيا قادرا على «إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق» (36)، نفعه هذا «مقصور على أهله» أي : على أهل لغته الذين يفهمونه ويتذوقونه ويتجاوبون معه ويتواصلون وليس كما يرى الدكتور عباس «أن نفعه - في رأي أولئك القوم - (يعني المدافعين عن الكتب المترجمة، والمجادلين في الشعر العربي) مقصور على أهله (أي هم ينكرون أن تنتقل المنفعة من المنشئ إلى المتلقي)...» (37). ذلك أنهم لا ينكرون أن تنتقل المنفعة من المنشئ في لغة ما (والمقصود هنا اللغة العربية على وجه التحديد) إلى المتلقي في نفس اللغة. بل هم يردون على «من ينصر الشعر - أي الشعر العربي - ويحوطه ويحتج له» (38)، وعلى من يقول : «وفضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب والشعر لا يستطاع أن يترجم...» (39) ويقول أيضا : «... ولو حولت حكمة العرب (يعني

---

35) الحيوان 1 / 75.
36) البيان والتبيين 1 / 113 و 220.
37) إحسان عباس : المرجع المذكور ص : 103.
38) الحيوان 1 / 75.
39) الحيوان 1 / 74 - 75.

شعرهم)، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع أنهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم...» (40).

وإذا كان الشعر العربي على هذه الصورة التي يعرضها له المدافعون عنه والناصرون له، فمن الطبيعي، إذن أن يكون «نفعه مقصور على أهله».

ويوضح هذا ويؤكده قول شخص آخر من المدافعين عن منافع الكتب المترجمة، مجادلا من ينصر الشعر : «إذا كان الأمر على ما قلتم (من أن الشعر لا يستطاع أن يترجم... ومتى حول... ذهب حسنه... ولم يجدوا فيه شيئا لم تذكره العجم...) والشأن على ما نزلتم، أليس معلوما أن شيئا هذه بقيته وفضلته (يقصد الكتب المترجمة على ما فيها من نواقص وأخطاء في الترجمة فإن ما يبقى منها من المنافع الحقيقية العملية) حري بالتعظيم، وحقيق بالتفضيل على البنيان والتقديم على شعر ان هو حول تهافت ونفعه مقصور على أهله...» (41).

وأما قوله : «هو يعد من الأدب المقصور وليس بالمبسوط» فيعني به أنه من الأدب المقصور (في منافعه وفوائده) على أهل لغته فقط، وليس بالمبسوط (أي الممتدة فوائده ومنافعه) إلى خارج لغته، أي أنه ليس مستطاعا أن يترجم إلى لغة أخرى فتنبسط فوائده، بذلك، وتمتد منافعه إلى أهلها أيضا كما هو الشأن في العلوم والمعارف والصناعات. وقد استعمل الجاحظ لفظة «المبسوط» بهذا المعنى في موضعين آخرين من هذا الجزء نفسه من كتاب الحيوان (42).

40) الحيوان 1 / 75.
41) الحيوان 1 / 79 ـ 80.
42) الحيوان 1 / 78 و 94.

إن هذا هو مضمون نص الجاحظ وليس ما ذهب إليه الدكتور احسان عباس إذ قال ،

«... ولذلك فإنه أدب مقصور (في منفعته وفي تعبيره عن حقائق الحياة بطريق الصور) وليس مبسوطاً (كما تبسط العلوم وتتحمل البرهان والتجربة). وما دام الشعر لا يحتمل التجربة والبرهان، فإنه إذا حول (عن سياقه الإيقاعي أو الصوري إلى سياق عملي) تهافت. ذلك هو ما أراه في تفسير هذه العبارة» (43).

وأما قوله «ومن المنافع الاصطلاحية وليست (منفعته) بحقيقة بينة» فقد اقترح الدكتور احسان عباس، وأصاب، ان نضع موضع «اصطلاحي» لفظة (تقديري) أي أن نضع بدل «اصطلاحية» لفظة «التقديرية» ليصح المعنى. والمقصود كما أرى أن المنافع المتأتية عن الشعر تقديرية أي ، نقدر أنها تحصل في النفس بأن تهذب النفس وتقومها وتغني تجاربها بها، مثلا. وهذه كلها، لو حصلت فعلا فليست بالمنافع الظاهرة البينة التي نستطيع أن نتلمس نتائجها بوضوح، وفي حينها.

يظهر من هذا التحليل لنص الجاحظ أنه ليس هناك من أثر لتأثر الجاحظ بالثقافة اليونانية (44) فيما عرضه، هنا من أمور الشعر وطبيعته بل إن تفكيره فيه عربي خالص يعالج القضايا بالتحليل الواقعي لعناصرها ويعرضها بأسلوب الحوار الجميل الأخاذ فتبدو لنا وكأنها محاورة مشوقة في مشهد من مسرحية جادة.

---

43) احسان عباس ، كتابه المذكور ص ، 103.

44) كما أوحى هذا الأثر د. احسان عباس في كتابه المذكور ص ، 98 و 102 و 103 وكما فهمه د. داود سلوم في كتابه النقد المنهجي عند الجاحظ ص ، 34 ـ 35 (نقلا عن كتاب احسان عباس المذكور ص ، 103 و 104).

5 ـ النقد الداخلي للنص :

يلجأ الجاحظ إلى هذه الطريقة في النقد لتمييز الشعر الصحيح من المنحول. وتقتضي هذه الطريقة خبرة عالية بالأساليب التعبيرية التي يتميز بها كل أديب، ليمكن تمييز النص الشعري أو النثري، إن كان له حقا، أو كان منسوبا إليه، ويمكن أن نفهم أيضا، أن الناقد عليه أن يفيد، في هذا المجال، من الحقيقة الأسلوبية التي قررها الجاحظ ومر الكلام عليها وهي أن لكل أديب مفردات خاصة يديرها في كلامه مهما كان غزير المعاني كثير الألفاظ (45).

ويقتضي هذا المنهج النقدي التدقيق في معاني النصوص للتحقق من أن مضامينها كانت معروفة في العصر الذي أنشئ فيه النص (46). وإلا كانت مزيفة موضوعة.

والجاحظ في هذا المنهج، يلتقي مع ابن سلام «فيستخدم شهادة الرواة ويتخذ تفاوت الشعر... وسيلة يثبت، بها الانتحال» (47).

6 ـ مقاييس انطباعية وأحكام مطلقة :

تتردد في كتب الجاحظ تعليقات له على بعض ما يروي من أشعار تتضمن أحكاما يختلط فيها النظر الذوقي الانطباعي والحكم النقدي المطلق، ولا يعتمد فيها التحليل أو التعليل، بل يعبر عن وقع الشعر في نفسه، ومنزلته الشاعر منها.

---

45) انظر ما سبق : الفقرة الثانية عن «اللفظ والمعنى» والحيوان 3 / 366.

46) انظر الحيوان 3 / 311 ـ 312 و 6 / 279 ـ 281 واحسان عباس : كتابه المذكور ص 100 ـ 101.

47) احسان عباس : كتابه المذكور ص 100.

من هذه الأحكام الانطباعية المطلقة قوله عن المطبوعين من الشعراء المولدين (48).

«والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلي والسيد الحميري وأبو العتاهية و... **وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء، وبشار أطبعهم كلهم**».

وقوله في المفاضلة بين حماد عجرد وبشار : (49) «... لأن حمادا في الحضيض، وبشارا مع العيوق. وليس في الأرض مولد قروي يعد شعره في المحدث إلا وبشار أشعر منه».

وفي تعليق له على مضمون قصيدة لأبي نواس يقول فيها أبو نواس في أبان بن عبد الحميد «انه يتشبه بعجرد ومطيع و...» يتعجب الجاحظ من هذا فيطلق حكما يقول فيه : «وأبان فوق ملء الأرض من هؤلاء...» (50).

وفي موضع آخر يذكر ما أخذ على أبي نواس من الغلو والكفر المقيت وفي وضع بعض الأوصاف في غير موضعها المتعارف عليه عند العرب، وهذه المآخذ كلها تتصل بالمعنى. وبعد عرضه لطائفة من الأمثلة عليها وبيان مواطن العيب فيها، يقول عن أبي نواس : «ومع هذا فإنا لا نعرف بعد بشار أشعر منه» (51).

---

48) البيان والتبيين 1 / 50.

49) الحيوان 4 / 453 - 454 وانظر حكما له آخر في بشار مشابها لهذا، في البيان والتبيين 1 / 51 وحكما آخر في حديث الاعراب، في المرجع نفسه 1 / 145.

50) الحيوان 4 / 448 - 451.

51) الحيوان 4 / 456 - 457.

وربما كان هذا أقل أحكامه الانطباعية إطلاقا، لأنه قيده بنفسه وبانطباعه الخاص حينما قال «فإنا لا نعرف...» ولكن أحكامه الأخرى كبيرة شاملة لا تحدها حدود ذاتية خاصة، ولا موضوعية مقيدة.

ومن نقده الذوقي غير المعلل قوله في أبيات لأبي نواس «وأبيات أبي نواس، على أنه مولد شاطر، أشعر من شعر مهلهل في اطراق الناس في مجلس كليب» (52).

ومن أحكامه العامة المطلقة من كل قيد أو تحديد، ولا يؤيدها دليل وتعليل قوله على لسان من ينصر الشعر العربي ويحتج له ؛ «وفضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب» (53).

وقوله عن البديع وعن تفوق العربية ؛ «والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، واربت على كل لسان...» (54).

وحكمه الكبير الشامل، وإن حاول أن يقيده بعض التقييد، في قوله (55) ؛

«والقضية التي لا أحتشم منها... أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب، أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والنابتة».

وكأنه شعر، بعد إطلاقه هذا الحكم، بسعة هذا الحكم وانفلاته مما ينبغي له من التحرز العلمي والتحديد المنطقي، لذلك عقب عليه بقوله ؛ «وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه...» فكان بذلك أقرب إلى النهج

---

52) الحيوان 3 / 129.

53) الحيوان 1 / 74 ـ 75.

54) البيان والتبيين 4 / 55 ـ 56.

55) الحيوان 3 / 130.

العلمي الذي تتصف به كتا باته، وأدخل في النظر الموضوعي الذي رسمه في نصوصه التي ذكرناها فيما مضى.

ويرتبط قوله هذا بنظرية له مبتسرة مختصرة يكتنف مصطلحاتها الكثير من الغموض والإبهام، تتمثل في كلامه على المقدرة في قول الشعر (56) :

وإنما ذاك عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز والبلاد والأعراق».

فكأنه يرى أن القدرة على قول الشعر حظ من الحظوظ التي يتمتع بها بعض الناس دون بعض من غير ما سبب ظاهر أو علة معروفة. ويعاون هذا السبب الغيبي الغامض ثلاثة عناصر أخرى هي : «الغرائز» وهي تعبير لا يقل غموضا عن السابق، وربما عنى بها الطبائع المواتية، و «البلاد» أي البيئة التي يعيش في كنفها الناس، و «الأعراق» أي الأجناس البشرية التي ينحدر منها الشاعر (●). وفي هذا بذور وملامح من نظرية «تين» المعروفة.

وربما عنى بـ «العرق» النشأة المتأصلة في تكوين الإنسان بكل مكوناتها من عوامل اجتماعية وثقافية ولغوية، إذ أن الناشئ في بيئة ما تتفاعل عناصرها في تكوينه فيكون أقدر على التعبير بلغة أهلها «وعلى مجاري كلامهم» (57).

---

56) الحيوان 4 / 381.

●) وقد استعمل الجاحظ لفظة (عرق) بمعنى الوراثة والأجداد، أنظر كتابه البرصان والعرجان والعميان والحولان ـ تحقيق : د. محمد مرسي الخولي ـ بيروت 1981 ص 40.

57) أنظر البيان والتبيين 1 / 161 ـ 162.

أما المولد الذي نشأ، في الغالب، في بيئة أعجمية، فإن الأداء العربي السليم ذا الماء والرونق والطبع لا يؤاتيه كما يؤاتي العربي النشأة، والجاحظ يتحدث هنا عن اللغة العربية بالذات ـ ذلك لأن المولد يأخذ العربية أخذا صناعيا عن طريق الدرس والتحصيل، لا عن طريق السليقة والنشأة والطبع ولهذا احترز الجاحظ بعبارة «وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه»، مراعاة للقدر الذي قد يكون لبعض العرب من الطبع وحظوظ النشأة العربية السليمة، أو لبعض المولدين ممن يتيسر له حظ من هذه النشأة، ومن الطبع المواتي (58).

بعد هذا العرض النقدي لآراء الجاحظ نود أن نسجل ظاهرة غريبة نلاحظها على الكتابات النقدية عند الجاحظ وابن قتيبة وابن سلام هي ظاهرة انعدام التواصل الفكري فيما بينهم، ذلك أن أحدا منهم لا يشير إلى رأي الآخر النقدي في مسألة يوافقه فيها أو يخالفه وكأنهم لم يكونوا متعاصرين، أو كأنهم لم يكن أحدهم يعرف الآخر، ولم يطلع على كتاباته وآرائه.

58) وانظر تحليل د. احسان عباس لهذا النص وتعليقه عليه في كتابه المذكور ص : 96 ـ 97.

المـــراجـــع

إحسان عباس : تاريخ النقد العربي عند العرب ـ نقد الشعر ـ من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري. الطبعة الأولى، بيروت 1971.

جابر عصفور : مفهوم الشعر. دراسة في التراث النقدي. دار التنوير، بيروت 1982.

الجاحظ : 1 ـ البيان والتبيين تحقيق : عبد السلام محمد هارون الطبعة الرابعة 1948. ونشر الخانجي، القاهرة 1975.

2 ـ الحيوان. تحقيق عبد السلام محمد هارون الطبعة الثالثة 1969.

3 ـ البخلاء تحقيق طه الحاجري. دار المعارف، الطبعة السادسة القاهرة 1981.

4 ـ البرصان والعرجان والعميان والحولان. تحقيق : د. محمد مرسي الخولي. بيروت 1981.

حكمة الأوسي : مفاهيم في الأدب والنقد. الناشر : دار النهضة العربية. القاهرة 1978.

داود سلوم : مقالات في تاريخ النقد العربي ـ بيروت 1981.

عبد العزيز عتيق : تاريخ النقد الأدبي عند العرب. دار النهضة العربية. بيروت 1974.

ميغيل فرنانديز براسو : عزلة غابرييل غرسيا ماركيز الترجمة العربية، بيروت 1981.

د. ح. ع. أ

الإسلام والتنمية الاجتماعية

د. محسن عبد الحميد

تمهيد :

لقد بدأ المجتمع الإسلامي المعاصر يدرك بعمق وشمول أن التقدم الحضاري أصبح قضية مصيرية في حياته، وأنه في سبيل الوصول إلى تعويض ما فاته في الماضي القريب، بفعل عوامل التخلف المتنوعة، عليه أن يعتمد على خطط التنمية الاجتماعية المبنية على أسس علمية سليمة، لتفجير طاقات الإنسان المسلم وقدراته في مضامير الحياة كلها، وذلك لكي يشترك بقوة ووضوح في بناء حياته ومجتمعه من جديد.

وإذا كان الإنسان المسلم في هذا العصر لا بد له أن يتحرك تحركا إيجابيا سليما للقيام بذلك الدور، فإن التخطيط لتحشيد القوى المعنوية والمادية في سبيل بنائه الذاتي والاجتماعي والحضاري يصبح من الضرورات المنطقية الملحة.

وإذا كنا في هذا البحث نؤكد على دور الإسلام في التنمية الاجتماعية الشاملة، فلأنه عقيدة الأمة ولأنه له معها تجربة ماضية، نقلها من حياة البداوة والسبات والتمزق إلى حياة الحضارة والحركة والوحدة، صاغها في ظل عقيدته وشريعته وحضارته صياغة جديدة، غدت بفضلها قائدة أعظم تنمية اجتماعية وحضارية في نواحي الحياة كلها شهدها العصر الوسيط وانتهى إلى بناء الحضارة الإسلامية التي أدت دورها العظيم في خدمة العالم الإسلامي كله والإنسانية جمعاء (1).

ولأننا نعتقد أيضا دون أن نتجاوز الحقائق العلمية أن الأهداف الاجتماعية والاقتصادية التي حددها الإسلام والقيم السلوكية والأخلاقية التي رسمها لتعتبر أسسا ومنطلقات فاعلة للنهوض بالمجتمع الإسلامي ودفعه إلى طريق التنمية الشاملة.

على أننا إذا أردنا تحقيق تلك النظرة العلمية الإسلامية للتنمية، فما علينا إلا أن نعيد دراسة المبادئ والتعاليم التي أتى بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في ضوء الواقع الاجتماعي المعاصر، إذ يمكننا من خلال هذه الدراسة إدراك قدرة القيم الإسلامية وملاءمتها ومرونتها في إحداث التنمية الاجتماعية والاقتصادية في كل زمان ومكان، طالما أن من أهم أهداف الإسلام وقواعده تحقيق مصالح العباد، حتى إن الفقهاء صاغوا القاعدة الفقهية المشهورة «حيثما كانت مصلحة المسلمين فثمة شرع الله» (2) وبما أن الإنسان في ضوء أوضاعه الاجتماعية والطبيعية هو

1) حضارة العرب - گوستاف لوبون - الأولى - لجنة التأليف والترجمة والنشر ص : 455، 466، 473، 479، 488.

2) راجع كتب أصول الفقه، بحث مقاصد الشريعة الإسلامية، لا سيما : أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف، وراجع أيضا : مقاصد الشريعة الإسلامية للأستاذ علال الفاسي.

مخطط التنمية ومحركها، فقد جعله الإسلام مدارا لهذه العملية التغييرية التنموية الكبرى.

الإنسان ودوره في التنمية في الإسلام :

عد الإسلام الإنسان قيمة حقيقية وركنا أساسيا في الحياة، بما أودع الله فيه من القدرة الجسدية والذهنية وقابلية التكيف المستمر. ودليل ذلك أنه جعله مكلفا مسؤولا يستطيع من خلال تلك القدرات أن يحقق خلافة الله على هذه الأرض التي خلقت له خلقا فريدا متميزا، وأودع فيها كل ما يساعده على العيش والحركة والتغيير.

قال تعالى :

«وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة» (3).

وقال تعالى :

«هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا» (4).

وقال تعالى :

«سخر لكم ما في السموات» (5)

وقال تعالى :

«وسخر لكم ما في الأرض» (6).

---

3) البقرة 26.
4) البقرة 29.
5) لقمان 20.
6) الحج 20.

لقد حمل الإنسان هذه الأمانة الكبرى في هذه الأرض وليست في غيرها ولذلك فقد وجب عليه أن يفهم نفسه فهما دقيقا وأن يعلم بأن طاقته العقلية الجبارة هي مدار تكليفه (7).

ونتيجة لذلك فإن عليه أن ينظر إلى ما حوله ليجد آيات الله مبثوثة في كل ناحية، وقوانينه ظاهرة على مختلف وجوه الحياة والكائنات فيتحرك للاستفادة منها والكشف عنها وتسخيرها لإسعاد نفسه. بإنشاء الحضارة وبناء الحياة ودمج الطاقات المفردة بعضها إلى بعض للقيام بذلك التسخير الضروري.

فعلى ذلك فإن الإنسان عليه أن يغير ويبدل ويتحرك ويبني ولا ينتظر المفاجئات الكونية، لأنه بطل التغيير والإنتاج المستمر في الحياة (8).

وقد نبهنا القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة الاجتماعية بقوله:

«ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم» (9).

وقوله:

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (10).

---

7) راجع في هذا الموضوع كتاب «الإنسان في القرآن الكريم» الأستاذ العقاد.
8) حركة التغيير الاجتماعي - الدكتور محسن عبد الحميد - الأولى - مطبعة كاظم - دبي، ص 12 وما بعدها.
9) الأنفال 58.
10) الرعد 12.

وضرب المثل بقوله ، «**وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كان يصنعون**» (11).

وحدد هذا القانون بقوله تعالى ، «**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا**» (12).

والآية هذه مفسرة بقوله تعالى ،

«**وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**» (13)

وقوله ، «**وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**» (14).

وهذا التدمير هو القانون الاجتماعي المدمر المعاكس للحياة، عندما ينعدم فيها الإصلاح والتخطيط والتغيير.

وبما أن هذه الخلافة في أساسها حركة مستمرة ومواجهة لأقدار الحياة ومشاكلها ولذلك فإن القرآن الكريم نبه الإنسان إلى أن السلبية والزهد في الحياة تناقض تلك الحركة الإنسانية الكونية. من حيث أنها أساسا هو الدور المنوط به في هذه الأرض. يقول الله تعالى في كتابه الكريم ،

«**يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا**» (15).

«**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم**» (16).

---

11) النحل 112.
12) الإسراء 16
13) هود 118.
14) هود 102.
15) البقرة 168.
16) البقرة 267.

«يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» (17).

«لا تحرموا طيبات ما أحل الله» (18).

هذا هو جوهر نظرة الإسلام التي لا تتغير، لقضايا الإنسان الاجتماعية والاقتصادية التي تتغير. إنها نظرة لتجدد الإنسان في كل زاوية من زوايا حياته في ظل الرؤية الشاملة لآيات تطوره الكوني، وهي ليست عبودية واستسلاما، ولا قدرية واستخذاء ولا سكونا وتقليدا، ولكنها حرية وانطلاق والتزام وانعتاق وحركة وتغيير.

وهي نظرة رسمت طريق الحقوق الإنسانية للإنسان في ذاته، مستهدفا بالحقوق بقدر ما كان ذلك الحق يستهدف قبل الإسلام القبيلة والعائلة والعرق والطاغية (19).

ومن هذا المنطلق الراشد في النظرة إلى الإنسان المسؤول، أختتمت النبوة في الإسلام، وهو أوضح دليل على رشد الإنسان وتقويمه الحسن والاعتراف بدوره الكامل في اكتشاف وتسخير قوانين الحياة والمادة وإحداث التنمية الحضارية المطلوبة، مستهديا بالتشريع الاجتماعي والأخلاقي الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام.

والآيات التالية ترشدنا إلى هذا المعنى :

«بل الإنسان على نفسه بصيرة» (20).

---

17) الأعراف 31.

18) المائدة 87.

19) راجع في هذا الموضوع : الإنسان في القرآن الكريم، للأستاذ العقاد.

20) القيامة 14.

«الذي خلقك فسواك فعدلك» (21).

«لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» (22).

مظاهر اهتمام الإسلام باستغلال الطاقة الإنسانية :

بما أن التنمية عملية اجتماعية متعددة الجوانب، لذلك فإن مذهبية التنمية الاجتماعية في الإسلام مذهبية متكاملة، فهي تخطط لتفجير طاقات الإنسان كلها، وتوازن بينها موازنة سليمة، يشترك جميعها دون خلل في أداء الدور الكامل لتقدم المجتمع الإنساني وإقامة حضارته النامية.

وينطلق هنا من مبدأ أن تعطيل أية غريزة من غرائز الإنسان ومحاولة قتلها يؤدي إلى إحداث فجوة كبيرة في الحياة. ولذلك فإن الإسلام في أنظمته الحياتية المتنوعة، شرعت لاستغلال طاقات الإنسان كلها دون استثناء

وقمين بنا أن نبين بالتفصيل دور كل نظام من أنظمته التفصيلية في فتح المجال أمام الإنسان لاستغلال طاقاته كلها في إحداث التنمية الحضارية.

النظام العبادي :

قد يظن البعض أن النظام العبادي في الإسلام يقتصر على الفرائض العبادية المعروفة، من صلاة وصوم وحج وغيرها، وعلى الرغم من أن تلك الفرائض مهمة جدا، لأنها تشترك في بناء الكيان الإنساني المنضبط المستقيم، وتشعره بلذة الفضيلة والطمأنينة، وتوجه

21) الانفطار 7.

22) التين 4.

غرائزه الحيوانية وجهة بناءة، وتحول بينها وبين الوقوع في الانحرافات السلوكية والقلق والضياع والاضطراب، إلا أن العبادة في الإسلام لا تقتصر على تلك الفرائض، بل لها مفهوم أشمل يسع الحياة كلها.

وفي سبيل توضيح هذه الفكرة نسأل : ما معنى العبادة ؟ فنقول : العبادة من «عبد» ومعناه اللغوي هو الخضوع، ومعناه الشرعي الاصطلاحي هو الطاعة والخضوع لله سبحانه وتعالى (23).

فإذا كان الأمر كذلك فأي شيء أمر الله الخالق سبحانه بفعله، فالقيام به طاعة وخضوع وقربة. ولقد جعل الله الإنسان ـ كما ذكرنا ـ خليفة في الأرض وكلفه بالأمانة الكبرى. قال تعالى :

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها فحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا» (24).

فأي إنسان يتحرك في أي اتجاه لتحقيق أية مصلحة اجتماعية يعتبر عابدا لله، مطيعا له، في تحقيق هدف من أهداف تلك الخلافة. فعلى ذلك، فالعامل الذي يعمل بجد وإخلاص لزيادة الإنتاج الصناعي هو عابد، والفلاح الذي يزرع الأرض كي يكثر المحصول ويتنعم به أبناء مجتمعه عابد، والمهندس الذي تأتمنه الدولة وتعهد إليه الإشراف على بناية تكلف ملايين الدنانير، فيخلص في إشرافه ويقطع دابر خيانة العاملين فيها والبانين لها عابد، وهكذا المدرس والطبيب وأهل المهن والحرف، إذا أخلصوا في أعمالهم بقصد إفادة المجتمع هم في الحقيقة

23) راجع في ذلك كتاب «العبودية» لابن تيمية.
24) الأحزاب 73.

مطيعون لله بتحقيق قانون من قوانينه إذن كل شيء في الحياة ينقلب إلى عبادة، إذا كان قصد العمل فيه إطاعة الخالق، وتحقيق أكبر قدر ممكن من المنفعة الذاتية والاجتماعية المشروعة ودليلنا في تلك القاعدة قوله تعالى ،

«إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا» (25).

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم ،

«من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء » (26).

ويقول ، «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخره فشكر الله له فغفر له» (27).

وقد وردت أحاديث عدة تجعل تبسم المرء في وجه أخيه صدقة، وإسماع الأصم وهداية الأعمى وإرشاد الحيران ودلالة المستدل على حاجته، وما يدور في هذه الأرض من الأعمال، عده رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة كريمة وصدقة طيبة.

وبهذا يعيش المسلم في مجتمعه ينبوعا للخير، مصدرا للبركة، مقداما عند الملمات معاونا لكل المحتاجين مخلصا في جميع

---

25) 107.

26) مختصر صحيح مسلم للمنذري 144 الأولى 1388 رياض الصالحين للنووي 119. الأولى - القاهرة 1380.

27) رواه الشيخان، نقلا عن كتاب «العبادة في الإسلام» 58.

أعماله، لأنه يطيع الله بذلك ويعبده، وينتظر عليه الجزاء في يوم لا ينفع مال فيه ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وإذا راجعنا تاريخ القرون الإسلامية الأولى، رأينا أن المسلمين في ظل مثل الإسلام هذه، تحركوا لمواجهة الحياة وبنائها، وتغلغلوا في كل اتجاه، وبنوا الحضارة الإسلامية في فترة زمنية قياسية مستغلين قوانين المادة وتسخيرها بما يرجع عليهم وعلى البشرية جميعا بالخير العميم.

لقد كان أسلافنا يفهمون قوله تعالى حق الفهم في انطلاقهم العظيم ذلك :

«ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» (28).

إن الإسلام ينفر عن طريق نظام العبادة للجهاد العام في المجتمع، ويبني قاعدة متينة للضمير الإنساني، بحيث ينطلق بإخلاص لاتخاذ مواقف صحيحة في الحياة. ومن المؤكد أن حساسية الضمير لها دخل كبير في تحريك المجتمع حركة مستمرة منتجة، طالما أن طاعة الله والرجاء في ثوابه والخوف من عقابه في الحياة الآخرة، هي الباني والموجه الأساس لتلك الحساسية الضرورية لكل عملية تغيير اجتماعي، لأنه يتولد منها الضمير الاجتماعي الذي يؤدي إلى التعاون الاجتماعي، أو المسؤولية الاجتماعية التي يوطد أساسها القرآن الكريم بقوله : **«وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»** (29).

---

28) المائدة 2.

29) مختصر صحيح مسلم 2 / 88.

والحديث الشريف بقوله عليه الصلاة والسلام :

«ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير على الناس راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته ومسؤول عنهم، والمرأة اعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم. ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» (30).

النظام الاجتماعي :

إن الدراسة الواعية للنظام الاجتماعي الإسلامي تجعلنا أمام حقيقة أساسية، وهي، أن المجتمع الإسلامي ليس مجتمعا مغلقا، بل هو مجتمع مفتوح، لا يقيم الإسلام فيه العلاقات الاجتماعية العامة على أساس التعصب الغنصري أو الطائفي أو الديني. وينطلق المجتمع الإسلامي في ذلك من أن الناس كلهم عيال الله وأنهم سواء أمام الله، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، والعمل الصالح وأن المسلمين وغيرهم متساوون في حقوقهم وواجباتهم أمام الشريعة الإسلامية وأن الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره» (31).

قال تعالى : **«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة»** (32).

وقال : **«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»** (33).

---

30) اشتراكية الإسلام للدكتور مصطفى السباعي 76 الثانية - دمشق 1379 هـ
31) النساء 1.
32) الحجرات 13.
33) البقرة 256.

وقال : «**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**» (34).

وبناء على ذلك فإن الإسلام لا يعيق أي إنسان في مجتمعه من أن يقوم باستعمال طاقاته وتوجيه قابلياته ووضعها في خدمة مجتمعه، لأنه يدعو إلى العمل الصالح. والعمل الصالح يتولد من تفجير الطاقات الإنسانية، ولن تكون لهذه الميزة قيمة في الإنسان، إذا لم تعط الفرصة الكاملة المتساوية للجميع كي يتنافسا شريفا. وفي ذلك يقول سبحانه «**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**» (35) ويقول : «**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**» (36).

على أن الإسلام لا يجعل هذا التنافس أو السعي قاصرا على المسلمين وإنما يدعو كافة الأفراد الذين ينتمون إلى مجتمعه، مسلمين وغير مسلمين، إلى الاشتراك في التنمية الاجتماعية، وبناء الحضارة الإنسانية، طالما أن الخليفة هو الإنسان وليس المسلم فحسب.

قال تعالى : « «**ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون**» (37). والخطاب موجه لبني الإنسان جميعا حيث أنهم مكنوا جميعا دون تفريق.

والحقائق التاريخية شاهدة على أن سمات المجتمع الإسلامي عبر التاريخ كانت سمات إنسانية، فلو راجعنا التاريخ الحضاري لأمتنا لوجدنا أن العناصر الإسلامية وَغير الإسلامية اشتركت في عملية البناء

---

34) المصطفين 26.

35) النجم 39.

36) الأعراف 10.

37) الحضارة الإسلامية ادم متز 1 / 86.

الاجتماعي، وكانت الفرص متكافئة أمامها جميعا لإثبات وجودها وإظهار مهاراتها في مجالات الحياة كلها.

يقول آدم متز : «ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكان قدمهم راسخا في الصناعات التي تدر أرباحا وافرة، فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء،

إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام مثلا يهودا، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى» (38).

وهنالك قضية اجتماعية مهمة لابد أن نبحثها في هذا المجـال، ونبين موقف الإسلام منها، ألا وهي قضية المرأة ودورها في التنمية الاجتماعية، لأن هذا الدور ثابت وواقعي، باعتبار أن المرأة تمثل نصف المجتمع.

ومن المؤسف أن أقول هنا، إن الحقائق الإسلامية حول المرأة قد تعرضت إلى تفسيرات خاطئة وتشويهات مقصودة، من حيث إن كثيرا من الناس يحكمون على هذه القضية من خلال التيار القديم الفاسد الجاهل المريض الذي يعود إلى عصور من الضعف الإيماني، والتأخر الحضاري والتفكير العامي الوليد من العادات القبيلية، والتقاليد الاجتماعية الناتجة عن تطور أعمى، غير موجه.

---

38) راجع المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي. الإسلام والمرأة المعاصرة لبهي الخولي. وحقوق المرأة في الإسلام للسيد محمد رشيد رضا وحقوق المرأة في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافى.

لقد وضع الإسلام أساسا متينا لتكوين الأسرة القوية، وشرع لها الضمانات التي تؤدي إلى إنجاح عملية الزواج والإنجاب والتربية، حتى تكون الأسرة قادرة على مواجهة عملية التنمية والتغيير.

إن الإسلام دعا إلى مقدمات سليمة للزواج، واعتبر رضا الطرفين أساسا وفرض التساهل في المهور وأمور الزواج المادية، وحدد الحقوق والواجبات الزوجية، ووضع قانونا أخلاقيا سليما لكي يكون أساسا للتعامل الأسري، حتى لا تنهار الأسرة، فيؤثر انهيارها في نمو المجتمع وانحرافه واعتبر الطلاق أكره الحلال إلى الله، ووضع أمامه عقبات كثيرة، والنصوص الواردة في الكتاب والسنة عن تعدد الزوجات توحي بأن الإسلام لا يعتبره قاعدة عامة، بل رخصة لا تستعمل إلا للضرورات. والقاعدة الشرعية أن الضرورات تقدر بقدرها.

ومن أهم المبادئ التي جاء بها الإسلام رفعا لشأن المرأة اعترافه بإنسانيتها واستقلال شخصيتها واعتبارها أهلا للتدين والعبادة، وإقرار حق المبايعة لها كالرجل، ودعوتها إلى المشاركة في النشاط الاجتماعي الذي يغني التربية وقد سمح لها بالأعمال التي تتفق مع طبيعتها «البيولوجية» وشرع لها نصيبها في الميراث وأشركها في إدارة شؤون الأسرة وتربية الأولاد، وأوجب معاملتها بالمعروف، واحترام آدميتها، كما أنه ساوى بينها وبين الرجال في الولاية على المال والعقود وأقر لها شخصيتها القضائية المستقلة (39).

39) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 1 / 86، 105.

وإذا كان وضع المرأة اليوم في كثير من جوانب حياتها المتخلفة في البلاد الإسلامية، يعيق عملية التنمية والتقدم، فإن ذلك ناتج من أن الحياة الاجتماعية الإسلامية، مشت في خط معاكس في كثير من جوانبه لمبادئ الإسلام وأحكامه وتشريعاته، وأن العادات القديمة والتقاليد الاجتماعية الفاسدة، هي التي تتحكم في علاقات الناس العامة والخاصة.

وإن دراسة سريعة لوضع المرأة في العصور الإسلامية الزاهرة لدليل واضح على ما نقول (40).

النظام السياسي :

النظام السياسي الإسلامي قائم على الشورى، ويعتمد على مشاركة الأمة في حمل أمانة الحكم، واختيار ممثليها ورئيس دولتها الذي هو نائب عن الأمة في تنفيذ الشريعة الإسلامية، وقيادة حركة المجتمع في مجالات الحياة كلها (41).

وجاءت نظرة الإسلام هذه إقرارا لآدمية الإنسان في المجتمع بدرجة كافية بحيث يشعر في ظله بالأمن النفسي والاجتماعي حتى يستطيع أن يستغل طاقاته كلها، من خلال حريته في مشاركته السياسية، وخدمة المجتمع في سبيل رقيه الحضاري،والإنسان الذي يساق قسريا في المجتمع وتهدر إنسانيته، وتطمس معالم شخصيته، إنسان معطل القوى مزعزع الشخصية، قلق وخائف، ولن يستطيع أن يشترك بقوة وأمان في

---

40) نظام الحكم في الإسلام للدكتور محمد عبد الله العربي 64، الأولى ـ القاهرة. ومقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية للمستشار علي علي منصور، الأولى القاهرة. والدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي 356 للدكتور منير البياتي. الأولى ـ بغداد 1979 م.

41) اشتراكية الإسلام 75 وما بعدها. علم أصول الفقه لخلاف 200 ـ 201.

بناء مجتمع الإنسان. فقوة السياسة الاجتماعية وتماسكها وشوريتها وتقدمها تتماسك طرديا مع ابراز كرامة الإنسان وتحقيق آدميته. ولا يمكن أن تتحقق كرامة الإنسان إلا من خلال مبدأين :

الأول : إقرار حريته. فلقد مر بنا أن القرآن الكريم قد جعل الإنسان مكلفا مسؤولا. وهذه المسؤولية لن تتحقق إلا من خلال حريته التي تمثل ذاته في الاختيار وإلا كيف يكون مسؤولا ؟

وتتفرع من ذلك حريته في العقيدة والرأي وحريته في التملك وحريته في استخراج طاقاته الفطرية إلى حيز الوجود (42).

وهذه الحرية ليست مطلقة. فحريته في الاعتقاد لا يجوز أن تتحول إلى أذى للآخرين في عقائدهم. وحريته في التملك لا يجوز أن تكون مطلقة تلحق الضرر بأملاك الآخرين. وحريته في إبراز طاقاته لا يجب أن تكون سلبا للطاقات الكامنة بالقوة أو بالفعل عند الآخرين.

الثاني : عدم استغلاله من حيث هو إنسان. لأن استغلاله من قبل إنسان آخر يعني قتل آدميته وتعطيل طاقاته. وبذلك يحدث ظلم كبير يلحق ضررا بالغا بالإنسان من حيث ذاته، والمجتمع من حيث استفادته من الطاقات المسلوبة. فينتقل المجتمع إلى مجتمع السادة والمسود، وهو المجتمع الظالم الذي رفضه القرآن الكريم والذي سماه مجتمع أهل الترف الذين يقفون دائما أمام كل تغيير صالح.

---

42) سبأ 34. راجع «حركة التغيير الاجتماعي» 65.

قال تعالى ، «وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون» (43).

إننا لو تأملنا في ملامح المجتمع الإسلامي في العصور التاريخية الزاهرة، نرى أن اعتراف الإسلام بحرية الإنسان العقيدية والفكرية كان له دور عظيم في عملية التقدم الحضاري والتنمية الاجتماعية، بحيث استطاع كل إنسان في المجتمع الإسلامي أن يؤدي دوره دون رقيب أو عائق مهما كان نوعه، وإن ملايين المخطوطات في شتى العلوم والفلسفات والآداب والفنون، المنتشرة في مكتبات الشرق والغرب لدليل واضح على الإنجاز الحضاري الإسلامي الذي تم في ظل تشجيع الإسلام لحركة العلم والحرية الفكرية (44).

النظام الاقتصادي :

ينطلق النظام الاقتصادي الإسلامي من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، وهي جلب المصالح إلى الناس ودرء المفاسد عنهم، وترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وتحمل أخف الضررين، ورفع الضرر وتقديم الحاجات الضرورية وتكريم الإنسان ومنع استغلاله بأي شكل من الأشكال ورفع التعسف في استعمال الحقوق.

وأول مبدأ من مبادئ الاقتصاد الإسلامي، إقرار الملكية الفردية باعتبارها غريزة ذاتية تدفع إلى الجد في العمل والاستثمار والتنافس

---

43) راجع في هذا «تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن والحضارة الإسلامية لادم متز.

44) عن محاضرة في الاقتصاد الإسلامي ألقاها الدكتور علي عبد الواحد وافي في مؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقد في الرياض عام 1396 هـ وكذلك راجع «الملكية في الشريعة الإسلامية» رسالة دكتوراه للدكتور عبد السلام العبادي 1 / 133 ـ 204 و 2 / 36، 54، 255.

الطبيعي الذي يزيد من الدخل القومي عن طريق زيادة الإنتاج، ولكنه مع ذلك لم يدع المالكين أحرارا يتصرفون بملكهم كما يشاؤون وتشاء لهم أهواؤهم، بل يقيد تصرفاتهم بقيود كثيرة في حياتهم وبعد مماتهم، ويحدد لهم الطرق السليمة التي يكسبون منها أموالهم ويستثمرونها، ويحظر عليهم ما وراء ذلك من طرق التملك والاستثمار التي تفقد المال وظيفته الاجتماعية وتحوله إلى سيف مسلط على رقاب الكادحين والمحرومين والمستضعفين (45).

وبجانب الملكية الفردية فقد اعترف الإسلام بالملكية العامة وملكية الدولة وأعطى الدولة في حالات كثيرة حق التدخل في ملكية الأفراد إذا تحولت إلى أداة استغلال.

أما العملية الإنتاجية فإن الإسلام يلتقي في مبادئه الكبرى مع مقوماتها سواء ما تعلق منها بالتقنية أو ما اتصل منها بالتنظيم. ذلك أن تقنية الإنتاج تتحد بالعلم والمعرفة. والإسلام يحض على تحصيل العلم ويستحث على إدراك المعرفة ومصداق ذلك قوله تعالى :

«قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون».

وقوله : **«يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»**.

ومن البديهي أنه لا يوجد تعارض بين العلم والإسلام بل توافق وتلاحم لما فيه خير البشرية. وينبني على ذلك أن عطاء العلم في

45) عن كتاب «الاقتصاد الإسلامي، منهاجه ومقوماته للدكتور ابراهيم دسوقي أباظة. وكذلك راجع كتاب «الاقتصاد الإسلامي مذهبا ونظاما» للدكتور ابراهيم الطحاوي 1 / 85، 194، 198، 215، 218 و «اشتراكية الإسلام 127 و «نظرات في الاقتصاد الإسلامي» لكاتب هذا البحث 22. الأولى - بغداد 1398 هـ

ميادين الآلة واكتشافاته في ميادين الكهرباء والذرة تتمشى كلها مع روح الإسلام ونصه

أما الجانب المذهبي من الإنتاجية فقد خصه الإسلام بأدق تنظيم وهو علائق القوى المنتجة فيما بينها، وعلاقة هذه القوى بأدوات الإنتاج ويبرز ذلك على وجه الخصوص في موقفه من العمل ورأس المال (46).

أما موقفه من العمل فهو نابع من فكرة الاستخلاف في الأرض لأنها لن تتحقق إلا بالحركة والتغيير والعمل، ومصداق ذلك قوله تعالى : «**ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**» (47). وقوله تعالى : «**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه**» (48).

ومن هنا فإن الإسلام جعل العمل المعيار الأساس في الحياة فكل مغنم أو مال لا يكون ناتجا عن جهد بشري فكري أو عضلي يبذل فهو مرفوض (49)، لأن الإنسان المستخلف يثبت بعمله حقيقة وجوده وإنسانيته، ولذلك فإنه حرم عليه التمتع بثمرات أعمال غيره، لأن ذلك يؤدي إلى الاستغلال وتعطيل الطاقات ونقص العمل والحاق أضرار عظيمة بحركة التقدم الحضاري (50).

إن اهتمام الإسلام بخلق المجتمع العامل ينبع أساسا من قانون اقتصادي ثابت هو أن الإنتاج لا يتوقف على الرأسمال الممثل في

---

46) يونس 14. أنظر : اشتراكية الإسلام 154.
47) الملك 15.
48) عدا حالات خاصة كالإرث والهبة ومساعدة غير القادرين على العمل وما أشبه
49) حركة التغيير الاجتماعي 88.
50) الجمعة 10.

الملكية الفردية فحسب، بل يتوقف كذلك على العمل الإنساني، ولذلك فإنه يبارك العمل في كل وقت ولا يجعل العبادات عائقة عن طلب العمل، فقد قال تعالى :

«فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من رزق الله» (51).

والعمل في عرف المجتمع الإسلامي يعتبر حقا وواجبا في آن واحد، فهو حق للفرد قبل المجتمع وواجب عليه أيضا قبل المجتمع.

وينبني على ذلك التزام المجتمع بتوفير العمل لكل قادر والتزام كل قادر بتقديم العمل إلى المجتمع، فلا مكان في المجتمع المسلم للعاطل جبرا واختيارا، لأن كل طاقة إنسانية فاعلة لا بد أن تكرس لخدمة وأغراض الإنتاج والتنمية وتوفير أسباب الارتقاء بها.

وإذا لم يتكاثف المجتمع كله في توفير العمل هذا، أثمت الجماعة كلها لأنها قصرت في توفير الجو الملائم لكي يظهر كل إنسان استعداده وقدراته فيحقق بذلك الأمانة التي كلف بها من قبل خالقه.

عن أنس رضي الله عنه أن رجلا من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فقال أما في بيتك شيء ؟ فقال : بلى، حليس (أي كساء غليظ ممتهن يلبس بعضه ويبسط بعضه) وقعب نشرب فيه الماء. قال : آتني بهما. فأخذهما رسول الله بيده وقال من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين فأعطاها إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال : اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر

---

51) رواه أبو داود والنسائي والترمذي.

قدوما فأتني به، فأتاه به، فشد فيه رسول الله عودا بيده ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر، ففعل، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما فقال رسول الله : هذا خير لك من أن تجيء نكتة في وجهك يوم القيامة (52).

إن نظرة الإسلام التي تعتبر العمل عبادة، دافع قوي يدفع الإنسان إلى الإتقان في عمله والإخلاص فيه، ويعتبر مقصرا إذا تقاعس أو لم يؤد واجبه على الوجه المطلوب.

وينتهي هذا الجانب الخطير بالمجتمع إلى زيادة الإنتاج المستمر، طالما أن الدافع إليه ينبع من أعماق النفوس المؤمنة التي تعتقد بأنها بعملها ذلك تتقرب إلى الله وتحصل على محبته وتبتعد عن عقابه.

وأما ما يتعلق برأس المال، فقد أمر الإسلام بالمحافظة عليه وإنمائه ونهى عن إضاعته وتبذيره، وجعل فيه وفي ثماره حقا لأصحاب الحاجة والمصالح العامة. وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى :

«وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا» (53).

وقال تعالى :

«ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» (54).

52) 52) الإسرا

52) الإسراء 26

53) الإسراء 29.

54) راجع في هذا كتاب «الاقتصاد الإسلامي» للدكتور أباظة.

وينبني على ذلك أن الإسلام قد وضع الأسس السلوكية التي يتوقف عليها تكوين رأس المال، فاستوجب الامتناع عن تبذيره بالاستهلاك وضرورة إنمائه بالاستثمار.

ومجمل القول ان المذهب الاقتصادي الإسلامي يضع في الاعتبار قانون الحركة والتغيير الذي يعتبره من سنن الحياة ويرتب عليه نتائجه، غير أنه لا ينسب الحركة إلى عامل واحد، ولا يردها إلى ما هو مادي بحت ولا ما هو معنوي بحت، ولكن يضعها في إطار ناموس طبيعي من العوامل المادية والمعنوية، تؤثر كل منها في الأخرى بقدر سلوك الإنسان وجهده، فتتجه بالمجتمع إلى الارتقاء أو إلى التردي (55).

النظام التعليمي :

من الصعب جدا أن تنجح التنمية الاجتماعية والاقتصادية بكل أبعادها المتشابكة في مجتمع غير متعلم، تسيطر على أبنائه الفوضى العقلية التي تبعده عن التخطيط، ولذلك فإن تطوير المجتمع نحو العلم والعقلية العلمية أمر ضروري مطلوب، لأنه الباب الذي يلج منه المجتمع من البداوة إلى الحضارة، ومن الفوضى إلى التخطيط والنظام وكسب الوقت للوصول إلى الإنتاج الوفير وبناء الصحة العامة، والقضاء على الأمية ومحاربة العقلية الخرافية، التي لا تهتم بالأسباب ولا تستفيد من قانون العلية في الوجود لرسم مستقبله الحضاري.

وإذا كان العلم يعني اليوم اكتشاف قوانين الحياة والمادة (56) فإن الإسلام قد دعا إلى ذلك بهذا المعنى الخاص، لأن القيام بواجب الخلافة

---

55) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ـ أميل بوثرو 189 ـ 190. ترجمة د. محمد فؤاد الأهواني ـ الأول ـ القاهرة.

على هذه الأرض لا يتم إلا من خلال عملية تسخير القوانين المبثوثة في العالم المادي.

لقد اعطى الله سبحانه وتعالى الإنسان الاستعدادات والطاقات الكاملة للاستفادة من قوانين الحياة المادية، فلم يبق إلا أن يسخرها ويكشف عن مجاهيلها ويخطط الحياة على أساسها.

ولقد نبهنا القرآن الكريم إلى هذه المعاني في عشرات من آياته. حتى إنك عندما تقرؤها لا تشك في أن العلم الحديث قرآني في موضوعه. إذ هذه العلوم الطبيعية إنما تبحث عن أسرار الظواهر الكونية التي نبه إليها وأمر بالبحث فيها (57).

إن القرآن يفتتح الدعوة إلى العلم بمثل قوله : **«قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق»** (58) وقوله : **«قل انظروا ما ذا في السموات والأرض»** (59).

ولقد دعا إلى منهج علمي واضح قبل أربعة عشر قرنا، للوصول إلى الحقيقة وبنائها على أسس متينة نجملها فيما يلي :

الأول : يقوم على أساس رفض الظن والتمسك باليقين. قال تعالى : **«وما يتبع أكثرهم إلا ظنا. إن الظن لا يغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون»** (60).

---

56) الإسلام في عصر العلم ـ د. محمد أحمد الغمراوي 23 الأولى / القاهرة.
57) العنكبوت 20.
58) يونس 101.
59) 36.
60) البقرة 178.

الثاني : منع التقليد الأعمى للسابقين، والبحث دائما عن الدليل والبرهان عن طريق البحث والنظر قال تعالى :

«وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون» (61).

الثالث لقد قرر القرآن الكريم أن الحقائق متوافقة بحيث لا تصطدم حقيقة بحقيقة أخرى قال تعالى :

«ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» (62).

الرابع : يشمل التدقيق والتركيز في المشاهدة، إذ أن القرآن الكريم يدعو إلى استعمال الحواس جميعها في سبيل الوصول إلى الحقيقة، وثبت هذا المبدأ في عشرات من الآيات القرآنية منها قوله تعالى :

«ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» (63).

ولو عرضنا هذه الأسس على أحدث المناهج العلمية نرى أنها لم تصل إلى أكثر مما قرره القرآن الكريم.

فأما بالنسبة إلى الأساس الأول، فإن العلم يحاذر كل المحاذرة من أن يجعل يقينا ما ليس بيقيني.

وأما بالنسبة إلى الأساس الثاني فإن العلم يمنع التقليد في النظر من غير وقوف على الدليل واقتناع به.

---

61) تبارك 3.

62) الأعراف 179.

63) الإسلام في عصر العلم 33 ـ 41. اشتراكية الإسلام 95 ـ 112.

وأما بالنسبة إلى الأساس الثالث فإن العلم في تطبيقه قوانين التفكير المجموعة في علم المنطق القياسي يتخذ أصلين يبني عليهما، الأول أنه لا تناقض مطلقا بين الحقائق. والثاني أصل إطراد الفطرة واستقلالها، فما ثبت أنه حق في وقت ما سيكون دائما حقا أو بعبارة أخرى أن الحق مستقل عن الزمان والمكان.

وأما بالنسبة إلى الأساس الرابع، فإن المشاهدة الدقيقة بالطريقة الطبيعية والآلية أساس مهم من أسس التقدم العلمي الكبير في هذا العصر.

وإذا أدركنا حقيقة مطابقة العلم الحديث مع الحقائق القرآنية، عرفنا سر التقدم الحضاري بعد مجيء الإسلام.

إن فهم واستيعاب المنهج العلمي الدقيق، الذي أرسى أساسه القرآن الكريم، ينتهي إلى بناء العقلية الاجتماعية والحضارية، على أساس من المنهجية العلمية والإيمان بمبدأ العلية والتجريبية، والحيلولة بينها وبين الوقوع في براثن النظرة الخرافية الناتجة من العقلية العامية، في فهم أحداث الوجود، والتي تقع دائما في تصديق الأشياء دون تطبيق المنهج العلمي السليم، الأمر الذي يلحق الأضرار الفادحة بعملية التنمية الشاملة في مجالات الحياة كلها.

خاتمة :

لما كانت التنمية الاجتماعية بمعناها الشامل، غدت هدفا من أهداف المجتمع الإسلامي، لأنه طريق تجاوز التراكمات السلبية المتخلفة التي استحكمت في مجتمعنا منذ قرون، وبناء المجتمع الحضاري المتقدم بعقلية علمية دقيقة في الوقت الحاضر.

ولما كانت جذور الإسلام ما زالت قوية في النفوس لأنه عقيدة الأمة وخلفيتها ورسالتها الحضارية، وقانونها الروحي والأخلاقي،فإن تربية الأمة في المجالات كلها، وعلى مستويات متنوعة، تربية إيمانية، وإفهامها بحقائق الإسلام، ومحاولة صقلها بروح حضارته ومنهجه العلمي وأنظمته الحيوية المتشابكة، وقيمه الأخلاقية والنفسية العالية، لمن شأنها أن تعيد للأمة أصالتها وحركتها، وتشعل في نفوس أبنائها روح الجهاد العام في كل زاوية من زوايا المجتمع، لإنجاح عملية التنمية الاجتماعية الحضارية، كي تستيقظ الأمة من سباتها وتسترجع أمجادها، وتعيد توازنها، وتلتفت إلى ما حولها فتأخذ من الحركة العلمية العالمية أحسن ما فيها مما يساعدها على بناء وحدتها الفكرية والحضارية المستقلة.

وإن أفراد أمتنا إذا عرفوا أن العمل الدائب هو عبادة لله تعالى وأنهم مأمورون دينا أن يتحركوا، وأنهم سيحاسبون إذا فرطوا وقصروا، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الصحيح ، «لا تزول قدما عبد يوم القيامة إلا ويسأل عن ثلاث عن عمره فيما أفناه، وعن ماله مم اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به».

أقول ، إذا تربوا على ذلك وعرفوه، فإنهم سيندفعون اندفاعا حماسيا عظيما لإتمام المهمة وإعادة البناء الجديد، من خلال التنمية الشاملة في نواحي الحياة كلها.

الرباط — **د. محسن عبد الحميد**

قصة :

وسالت مدامعُ النّور..

أحمد عبد السلام البقالي

رفعت سماعة الهاتف، وأدرت القرص، وأنصت.. تخيلت الجرس يرن داخل المنزل الكبير الفارغ، والسيدة الفاضلة تضع ما بيدها من آنية، أو تقطع ما كانت بصدده من شغل لتسرع إلى الجهاز الصارخ..

وعرفت صوتي في الحال فحيتني باسمي وسألتني عن جميع أفراد العائلة، وسألتها عن حالها وعن صحة أستاذي الجليل زوجها، وقلت :

- لقد هزني إليه شوق عظيم.. ولولا بعد الشقة لما طال عنكم غيابي.

فردت بصوت مستسلم لقضاء الله :

- إنه في يد الله.. يكثر من الذكر، ولا يشكو خشية ان التألم لحاله.

وأحسست في صوتها الحنون بنبرة من الكآبة أعمق مما عودتنيه، فعقدت العزم على شد الرحال إليه في أقرب فرصة، وحاولت التسرية عنها في تلك اللحظة بإشاعة جو من المرح على المكالمة، وقلت :

ـ لا تقلقي عليه.. المحارب القديم لا يستسلم بسهولة.. وما كنت ترينه فيه عنادا وصلابة دماغ، كنا نحن تلامذته وحواريه نراه عزيمة وقوة شكيمة، وثباتا على المبدأ. هل تذكرين ما كنا نسميه بـ «اللغط الأعظم» ؟

فجاءتني ضحكتها رقيقة ناعمة تدفئ الأسلاك، فشكرت الله في سري.. ربما لم ترن مثل هذه الضحكة في أرجاء ذلك المنزل منذ أمد طويل.

وعقبت السيدة الفاضلة :

يوم كنتم تحاصرونه في مكتبه وتقفون جميعا ضده في مسألة فلا يستسلم ولا يلين.

ـ لذلك قال عنه الأديب العربي الكبير (أمين الريحاني) : «إنه ينكسر ولا يلين، فلا تخافي عليه إذن من شيء..

٥ ٥ ٥

وســافــرت إليه..

وقصّر الطريق تحت عجلات سيارتي شريط حي ملون حافل بالذهبي من الذكريات غطى ما يناهز الأربعين سنة.. كان أستاذنا الكبير فيها علما بارزا من أعلام الوطنية والجهاد، ورائدا في حقل التربية والتعليم استطاع بإصراره وذكائه الفذ أن يرغم الإدارة الاستعمارية على بناء عدد من المدارس العصرية، ويقنع معلمي القرآن المحافظين جدا آنذاك أن ينتقلوا إليها بتلاميذهم. كما استطاع حملها على بناء معهد ثانوي لم يوجد نظيره في البلاد، وجاءه بأربعين معلما متضلعا من أرض

الكنانة.. وبملء باخرة ضخمة من أمهات الكتب والمعاجم والمترجمات كانت نواة الخزانة العامة بعاصمة تلك المنطقة.

وتعددت أبعاده العلمية والأدبية، والوطنية، والسياسية، فكان كلما وجه اهتمامه إلى ميدان انغمس فيه وأبلى حتى يقال : «ذلك ميدانه».

فحين اتجه إلى الصحافة في أول شبابه، أصدر مجلة لم يكن لها في العالم العربي بإسره مثيل.. فقد كان يستكتب لها عباقرة القلم من كل قطر عربي، ويتناول فيها القضايا المحرقة التي كانت تنوء بها عقول الناس وأفئدتهم..

وما كان لمجلة مثلها أن تعمر طويلا.. فقد عاشت دائما في خندق وفي صفوف القتال الأولى.. ولم يكد يدور عليها الحول حتى أصدر الفرنسيون الظهير البربري، فكتب أستاذنا افتتاحيتها النارية بمداد أحمر، وحرض فيها الناس على الثورة والمقاومة.. فطارت أعدادها إلى سائر أنحاء المغرب، وهربت إلى العالم العربي عبر مدينة (طنجة) الدولية وكان ذلك العدد آخر أعدادها..

وحين ضاق عليه خناق الاستعمار توجه بكامل حماسه إلى التعليم وكتابة التاريخ الذي كان يعتبره المعلم الأول للوطنية، والحافز الأعظم على الجهاد..

ولحرصه الشديد على الكمال، فقد كان لا يقنع من تلامذته بالمتوسط من الأمور وكان يشتط في واجباته عليهم لدرجة إثارة حنقهم وشكواهم.. وكان أقسى على نفسه منه عليهم في استقصاء الأحداث التاريخية، وضبط أسماء أماكنها، وتواريخ وقوعها، وأسماء وأنساب أبطالها. فكنت تراه يقلب في صفحات المجلدات المكتوبة بلغات لا يعرفها

كالألمانية والإنجليزية، والبرتغالية، مستعينا بقواميسها أو بمن يعرفها من أصدقائه المغاربة والأجانب، وكنت تراه أحيانا يتجول بين القبور القديمة يكنس بيده المشاهد ليكشف على ما كتب عليها، ثم يلتقط له صورا بآلته..

ولم يمض عقد من الزمان حتى كان قد جمع ما يملأ أزيد من عشر مجلدات ضخمة مزينة بالرسوم والصور والخرائط.

ه ه ه

وانقطع شريط ذكرياتي فجأة وأنا أوقف السيارة على باب الدرب الذي يقع فيه منزله.. ودخلت الدرب الطويل فرجعت بي الذاكرة ثلاثين سنة إلى الوراء.. إلى الأيام التي كنا نزوره في مكتبته صحبة جماعة من تلامذته ومريديه..

وارتعشت كبدي وأنا أعانق مرابع شبابي، أكاد أسمع أصوات ضحكاتي الصافية، وقهقهات أصدقاء الصبا البعيدة بين هذه الجدران البيضاء المكسوة أعاليها بالياسمين، ومسك الليل.. وفغمني العطر القديم ممتزجا برائحة خشب السرو والبرى وهو يحترق في فرن الحمام الملحق بالمسجد الذي بناه شيخنا، ونقل إليه خزانة كتبه النفيسة، وجعلها حبسا على طلاب العلم من حيثما قدموا..

وضغطت على جرس الباب..

وفي صحن الدار قابلتني الحاجة الفاضلة بقامتها الضئيلة، ووجهها الأبيض البشوش وعينيها الزرقاوين الصافيتين اللتين لم تبرحهما نضارة

الشباب، وحيويته، وتفاؤله وابتسامته، رغم ما تعانيه إلى جانب ألفها المريض في صمت، وصبر، وإيمان.. ورغم ضآلة حجمها، فقد كانت شخصيتها قوية حاضرة..

وأدخلتني عليه.. وكان متمددا على مطرف في يمين الغرفة الخالية تماما من الأوراق والكتب، فبدا لي وكأنه عار لاقترانه في ذاكرتي بغرفة مكتبه المغطاة حيطانها برفوف المجلدات من الأرض إلى السقف.

وسبقتني إليه فأمسكت بذراعه تساعده على القعود. وكان قد زاد وزنه في أيام مرضه الأخيرة.. وأومضت في مخيلتي صور لهذا الرجل الضخم الواهن الملفوف في قفطان أخضر وفرجية رهيفة بيضاء، وقد لف على رأسه الحليق عمامته الصغيرة، فأصبح لا يختلف في مظهره عن أي شيخ من شيوخ القرويين.. لمعت في ذهني صوره وهو شاب في عشريناته، وقد سرح شعره الأسود الناعم اللامع إلى الوراء، ولبس نظارته الذهبية الإطار، وملابس السواح الأوروبيين من قميص وشورط أبيضين، وجوارب طويلة الساقين، وتمنطق بآلة تصوير، وهو يجوب عواصم أوروبا والشرق العربي كشعلة من الحيوية الصحافية، والذكاء السياسي والحماس الديني، والوطني والعلمي ينتقل من وسط لوسط، يستجوب قادة الفكر، والأدب، والسياسة والدين، ويلقي الأسئلة، ويكتب الأجوبة بشبه هوس لمجلته التي سبقته سمعتها إلى تلك الأصقاع..

وبنفس الحماس الذي كان يأخذ به عن هؤلاء القادة، كان يملاهم بقضية المغرب العربي الكبير، وما هو مقبل عليه من جهاد وتنظيم، ويدعوهم لزيارة المغرب والتعرف على رجاله وقضاياه.

ولمع في ذهني السؤال : «أين ذهب ذلك الشاب الشعلة ؟ لا بد أنه هناك.. دفنته الأيام وصروف الدهر تحت هذا الركام. وفي لحظة انجذاب امتزجت نفسي بنفسه وأحسست بموجة عارمة من الرحمة والحب والحنان لهذا الرجل الذي هو «أنا» بشكل من الأشكال...

وسمعتها تذكر له اسمي، على غير عادتها لمعرفته بي كأحد أبنائه، فأدركت عند رؤية عينيه الواسعتين تسرحان في الفراغ، وهو يمد يديه في غير اتجاهي، إنه قد كف بصره..

وحاولت كتمان إجهاشتي وأنا أجثوا أمامه وأمسك بيديه ألثمهما، وهو يستغفر الله، ويدعو لي برضاه، فكشفتني دمعتان سقطتا على يديه، ونبرة صوتي وبحة نشيجي الصامت..

وأمسك هو برأسي يقبلها ثم ضمني إلى صدره بشوق عظيم وقد رن في أذني صوته الموسيقي العذب القوي، وعباراته المختارة الرقيقة التي تشعرك في محضره بأنك شيء عظيم..

وحين تبوأت مكاني بجانبه بادرني بقوله :

- لم آسف على بصري أسفي عليه هذه اللحظة لأنني لا أستطيع أن اراك..

فقلت مواسيا :

- لست بحاجة إلى عيون لتراني أنا.. فأنا أعد نفسي طرفا منك..

ورنت ضحكته الصافية فشاع دفؤها في أرجاء البيت.. وأذابت غصتي، وزايلني انقباضي وكآبتي.

قال مداعبا وهو ما يزال ممسكا بيدي :

- ما زلت شاعرا رغم تنكرك للشعر.

وسألته عن صحته، وعن بصره فأجاب باقتضاب ؛

ـ إنه السكر اللعين تمرد في دمي كعفريت مجنون وصنع بي ما رأيت، ثم هناك ضغط الدم، وغيره من البلايا..

وضحك مرة أخرى وهو يضرب على ركبتي مغيرا موضوع الحديث ؛

ـ لا تشغل نفسك بهذا الجسد الواهن فقد أدى واجبه على أحسن وجه مدة نيف وثمانين سنة.. فلا يجب أن نطالبه بأكثر من ذلك.. أم هل يعجبك الحديث عن الخردة ؟

وضحكت أنا الآخر من قلبي، فدخلت السيدة الفاضلة علينا بصينية القهوة، وقد اشرق وجهها الوضاح بابتسامة ربما لم تكن عرفتها منذ زمن بعيد..

قالت وهي تضع الصينية ؛

ـ لم اسمع هذه الضحكة منذ زمن بعيد.. ليتك كنت تكثر من زيارتنا.. لولا بعد الشقة..

ورشفت من فنجاني وهو يسألني ؛

ـ حدثني عنك، وعن إنتاجك الأدبي.. هل من جديد ؟ لقد كنت دائما تتحفنا بالجديد في مثل هذه المناسبة الكريمة.

وكان يعنى بالمناسبة ذكرى مولد الرسول الأعظم (صّ)، فقد كانت عزيزة عليه، أثيرة لديه.. وكان يتهيأ لها بالبحث عن زاوية جديدة في السيرة النبوية تتلاءم وقضايا الساعة ليحدث بها في الجامع الأعظم ابتداء من دخول شهر الذكرى المبارك حتى ليلة مولد الرسول الأكرم..

ولمعت في ذهني صورته وهو في حلته البيضاء جالسا إلى جانب المحراب وقد احاط به تلامذته في نصف دائرة واسعة، يتوسطها ثلاثة شمعدانات، وعدد من مباخر العود وأعواد الند، وقد اكتظ المسجد على سعته بأهل المدينة ينصتون في شغف وخشوع وقد ملأ مظهر الشيخ الجليل قلوبهم هيبة وجلالا..

كانت صورته المهيبة تلك أول ما انطبع في ذهني عنه وأنا غلام غرير من الواردين على المدينة طلبا للعلم في مدرستها الثانوية الوحيدة..

وانتبهت إليه وهو يعيد السؤال عن الجديد من إنتاجي..

وكان يعني به إنتاجي الشعري.. فقد كان يريدني شاعرا فحلا أصيلا ليباهي بي شعراء الشرق.. وقد عبر لي غير ما مرة عن خيبة أمله حين رآني أتجه إلى القصة والرواية.. وكنت أحب أن أثير حميته على الشعر بقولي ،

- إن الشعر مات. قتلته السياسة، والمادية، وازدواجية اللسان، وعقدة الغرب.

أو بقولي متعمدا ، «إن الشعر في شكله القديم الموزون المقفى، لم يعد يستجيب لأغراض العصر الحديث.. وإن بحور الشعر الستة عشر بمجزؤاتها أصبحت قوالب موسيقية قديمة مستهلكة استهلاك أنغام الآلة الأندلسية لا يلبث من يسقط فيها أن ينتج كليشيهات لصور قديمة واهنة، وأن القوافي أصبحت قيودا ثقيلة في أعناق شعراء اليوم، كلماتها معروفة ومعدودة ومحدودة وكأنها حفر في نهاية كل بيت لا بد أن ينحدر إليها، ولا بد أن تصاغ معناه لتلائمها».

وكان رأيي هذا يستفزه فينزلق بنا الحديث أو الجدال إلى ساحة الشعر الحديث من منثور، وحر، وتشكيلي، وإليكتروني، إلى آخر اللائحة..

وكنت أتقمص دور محامي الشيطان، فأتبنى الرأي المخالف لرأيه، وأدافع عنه بحرارة توحي بالاقتناع، ثم أقعد أنصت إليه وهو يفند حججي واحدة واحدة بأسلوب قوي، وفكر واضح صاف.

ولكنني أشفقت عليه هذه المرة من الإثارة والاستفزاز فقلت له صادقا :

- لم أكتب شعرا أرتاح لنشره منذ أحداث (بيروت).. وأخشى أنني قد أصبت بعقم أدبي.. فقد صرت أعتبر أن كل عمل، غير حمل البندقية ومواجهة العدو، عبث، ونفاق وكذب على النفس.

فرفع يده كعادته حين يهم أن يدلي برأي مخالف، وقال :

- اسمح لي أن اختلف معك في هذا.. لقد كنت دائما تنادي بالاختصاص في أحاديثك ومقالاتك، أتذكر ؟

- نـعـم..

- وكنت تسخر من لقب «العالم المشارك» وترادفه بـ «سبع صنايع».

- نـعـم..

- فلماذا تريد أن تغادر اختصاصك إلى اختصاص غيرك ؟

وأردت أن اجيب، فقاطعني :

- اسمح لي.. البندقية ليست من اختصاصك.. اختصاصك القلم.. والقضية العربية ليست بحاجة إلى سواعد وبنادق بقدر ما هي محتاجة إلى وعي.. وحالما تصل الأمة العربية والإسلامية إلى كامل الوعي بما

يراد بها فإنها ستنتفض، وتثور لكرامتها.. فهل سترمي ببندقيتك الحقيقية وتولي الاد بار ؟

ـ معاذ الله.. ولكن الواقع لا يرتفع.. الحقيقة أنني أصبت بعقم في تفكيري وبشلل في تعبيري.. والشعر كما تعلم رغم أنه تدفق للمشاعر، فهو كذلك فن، وصناعة.. يقتضي كثيرا من صفاء الذهن، وطواعية القدرات الإبداعية.. وكلها أصبحت عندي مشلولة.

فأحنى رأسه كعادته، حين تخطر بباله فكرة جديدة، وقال :

ـ لن أجادلك في هذا.. فالعواطف تحتاج إلى نضج، والنضج يحتاج إلى وقت ولكن، إذا لم يسعفك الشعر، ألا تحاول النثر ؟

فقلت مستغربا :

ـ النثر ؟ في مثل هذه المناسبة ؟

ـ ولماذا لا ؟ لماذ لا تكتب في السيرة النبوية ؟

ـ أنا أكتب في السيرة ؟ «أيفتى ومالك في المدينة ؟».. لا.. والله لن أجرؤ على الكتابة وأنت على قيد الحياة.. مد الله في عمرك وزكاه..

فقال منزعجا قليلا :

ـ ماذا تعني ؟ السيرة ملك لجميع المسلمين.. وهي مرجع لهم في جميع قضاياهم وأحداثهم الكبرى والصغرى.. ومصدر للعبرة لأولي الألباب منهم.. ولو درس قادتنا السيرة بإمعان لوجدوا فيها مختبرا علميا دقيق القوانين والنواميس.. ولا يوجد موقف معاصر إلا ويوجد له مقابل ينطبق عليه في السيرة النبوية، ويقترح لإشكاله الحل المناسب.. فالسيرة ليست تاريخ عصر غابر، أو مجموعة أحداث ميتة مدفونة في بطون الكتب

الصفراء.. إنها بالنسبة للأمة الإسلامية كالقانون الطبيعي.. لا يبليه الزمن فلن يضلوا إذا اهتدوا بهديها وساروا على محجتها.. فماذا ترى ؟

وفاجأني اقتراحه، فقلت ،

- في الحقيقة.. أصارحكم ياسيدي، بأنني فوجئت.. فلم أكن فكرت في هذا من قبل.. ولكن لكل شيء بداية..

وفي جزء من الثانية مثل في مخيلتي شبح واقع أمتنا المرعب، وكأنه غول عملاق أسود منحوت من قطع الزفت، ونحن ملتصقون به لا نستطيع منه فكاكا.. فتنهدت وقلت ناشدا رقية من رقى شيخي الجليل لطرده والخلاص منه ،

- ما أحوجنا في هذا المنحدر الخطير إلى روح بدر، ورجال بدر، وإيمان بدر.

ففكر قليلا، ورفع يده ،

- لو كنت مكانك ما فكرت في «بدر».

وأصغيت إليه على مضض، وهو يضيف ،

- نحن دائما نرتكب نفس الخطأ.. نتعلق بمواقفنا المجيدة في ساعات هواننا، ونتذكر انتصاراتنا الماضية في أوقات هزائمنا فتختلط علينا الأمور، وننصرف إلى أحلام اليقظة، فننسى حاضرنا، ونهمل الاستعداد له..

ونظر إلى الأرض وكأنه يبصر ثم قال ،

- لو كنت مكانك لتناولت غزوة أحد، فهي أنسب لحاضرنا، وأقوى عبرة وذكرى.

وتظاهرت بعدم الاقتناع فأضاف ،

ـ أقول لك لماذا..

وذلك ما أردت.. فما عرفت قط أحدا أقدر منه على استنطاق أحداث السيرة النبوية واستجلاء خوافيها، وسبر أغوارها وأبعادها، واستخلاص العبر الكامنة فيها..

قال مستجمعا شتات فكره وكأنه يبتلع شيئا عصيا :

ـ لنبسط أحداث (أحد) باختصار أولا.. (غزوة أحد) كانت كما تعلم حملة انتقام قريش لهزيمتهم في (بدر) فبعد (بدر) لم تعد قريش تستهين بقوة المسلمين وخطرهم على شريانهم الحيوي أي طريق التجارة إلى الشام والعراق.. ولم ينس أشراف قريش وساداتها ما سقط من قتلاهم في الميدان.. وكيف لهم ذلك وفي كل بيت نائحة تندب أبا، أو أخا، أو زوجا، أو ابنا عزيزا ؟ وهكذا اتفقت قريش على أن تباع العير القادمة من الشام ويجهز بأرباحها جيش عرمرم لا قبل للمسلمين به.

ومرت سنة كاملة وقريش تستعد للحملة في غفلة من المسلمين.. وجاء اليوم الذي قررت فيه الخروج إلى المدينة، بعد أن استنفروا من اتبعهم من الأحابيش، وهم الأجانب المقيمون بمكة. وأصرت النساء على الخروج مع الغزاة، فاختلف رأي قريش في ذلك، فمن قائل بأخذهن لدفع الرجال إلى الاستماتة في القتال، ورفض الهزيمة والفرار إذا حمى وطيس المعركة.. ومن قائل بتركهن حتى لا يتعرضن للسبي فتصبح كرائم قريش جواري وإماء في بيوت المسلمين وأسواقهم.

وتغلب الرأي الأول القائل بأخذ النساء، وكان ذلك دليلا قاطعا على عمق مشاعر قريش بمرارة الهزيمة، ورغبتهم المبرحة في الانتقام لشرفهم وقتلاهم..

وكان (لهند بنت عتبة) زوج (أبي سفيان)، وقولتها الشهيرة لمن يعترض على خروجهن أثر فعال في تغليب الرأي الأول، إذ صاحت بأحد المعترضين ،

«إنك والله سلمت يوم (بدر) فرجعت إلى نسائك، نعم نخرج فنشهد القتال. ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات في سفرهم إلى (بدر) حين بلغوا (الجحفة)، فقتلت الأحبة يومئذ إن لم يكن معهم من يحرضهم».

وكانت (هند بنت عتبة) أشد النساء حرقة على الثأر، إذ قتل أبوها وأخوها يوم (بدر).

وخرجت قريش في ثلاثة آلاف مقاتل ومائتي فرس، وثلاثة آلاف بعير محملة بالعدة والعتاد الحربي، وعلى رأسها (طلحة بن أبي طلحة).

وكان العباس بن عبد المطلب، عم النبي، يراقب تحركاتهم، ويسجل كل دقيقة من أخبارهم فيما يمكن أن نسميه بلغة اليوم بـ «تقرير حربي سري» ليبعث به إلى ابن أخيه محمد الذي كان يكن له حبا كبيرا، وإعجابا عظيما بشجاعته، وجرأته على الوقوف في وجه عدو جبار متكبر عنيد مثل أعيان قريش ورغم عدم إسلامه وبقائه على دين آبائه وأجداده، فقد كانت عصبيته لابن أخيه أقوى من روابط الديانة البالية التي كانت تربطه (بقريش).

وحين أتم (العباس) تقريره دفع به إلى رجل غفاري أخذه إلى رسول الله في ثلاثة أيام وسلمه إليه على باب مسجد قباء بيثرب، وهو يهم بركوب حماره، وسلم رسول الله الكتاب إلى (أبي بن كعب) فقرأه عليه، فاستكتمه ما فيه وذهب إلى المدينة فأرسل (انسا) و (مؤنسا)، ابني

(فضالة) لاستطلاع خبر (قريش)، فوجداها فعلا قاربت المدينة، وأطلقت بهائمها في زروع البساتين المحيطة بها.

ولم يعد خبر مقدم (قريش) سرا بعد أن كادت طلائعها تدخل (المدينة)، وخشي الأوس والخزرج عاقبة هذه الحملة التي أعدت لها قريش ما لم تعده لغزوة قبلها.

وبات كبار المسلمين مدرعين مسلحين في المسجد خوفا على رسول الله. وانبث الحراس في جميع أرجاء المدينة خشية التسلل.

وفي الصباح دعا الرسول إلى اجتماع للتشاور، فحضر أهل الرأي من المسلمين وانضم إليهم بعض المتظاهرين بالإسلام من المنافقين، وعلى رأسهم (عبد الله بن أبي).

وانقسم المسلمون قسمين متباينين : قسم يقول بالبقاء في المدينة وتحصينها، فإذا حاولت (قريش) اقتحامها كانوا أقدر على الدفاع عنها. وكان على رأس هؤلاء رسول الله وأيده في رأيه (عبد الله بن أبي بن سلول) بقوله :

«لقد كنا يا رسول الله، نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي، ونجعل معهم الحجارة، ونشبك المدينة بالبنيان، فتكون كالحصن من كل ناحية فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة، وقابلناه بأسيافنا في السكك إن مدينتنا يارسول الله، عذراء ما فضت علينا قط.. وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه وما خرجنا إلى عدو منها إلا أصاب منا. فدعهم يا رسول الله، وأطعني في هذا الأمر، فإني ورثت هذا الرأي عن أكابر قومي، وأهل الرأي منهم..».

قلت : «كلام مقنع.. ولكنه جاء من منافق».

قال الأستاذ ، «بل من زعيم المنافقين، والغريب أنه كان رأى رسول الله، وأكابر أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقد كان ميزان القوى راجحا لصالح (قريش) بعدتها وعددها الذي كان يزيد عن عدد المسلمين بأكثر من أربع مرات.. إلى جانب استعداد قريش الطويل في غفلة المسلمين..».

قال ، «وفيئة كان رأيها الخروج لمنازلة العدو خارج المدينة حتى لا يظن أنهم جبنوا عن ملاقاته، وتحصنوا بجدران (يثرب) ثم إنهم في (أحد) سيكونون أقرب إلى (المدينة) مما كانوا يوم (بدر).

فعلقت ، «لا بد أن هذا الفريق كان أغلبه من الشباب المتحمس المؤمن بأن دين الله لا يقهر».

قال ، «كذلك.. فقد كان بعضهم فتياننا دون السادسة عشرة لم يشهدوا (بدرا) وبعضهم رجالا حضروها وأكرمهم الله بالنصر، وما تزال ذكراها عالقة بأذهانهم، ودفؤها ساكنا في قلوبهم.. وقد لخص أحدهم رأى هذه الفئة بقوله ، «إني لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون ، «حصرنا (محمدا) في صياصي (يثرب) وآطامها، فتكون هذه مجرئة (لقريش) وهاهم هؤلاء قد وطئوا سعفنا فإذا لم نذب عن عرضنا لم يزرع، وإن قريشا قد مكثت حولا تجمع الجموع، وتستجلب العرب من بواديها، ومن تبعها من أحابيشها ثم جاؤونا، وقد قادوا الخيل، وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا. أفيحبسوننا في بيوتنا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا . لئن فعلنا لازدادوا جرأة، ولشنوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا، ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا، ثم لقطعوا الطريق علينا..»

وتعاقب الخطباء الشباب يوقدون الحمية والحماس في النفوس، والشجاعة في القلوب فرجحت كفتهم، ومال الأكثرية إليهم.

وما كان لرسول الله أن يخرج عن رأي الجماعة حتى ولو كان له رأي مخالف، فهو القائل صلوات الله عليه : «يد الله مع الجماعة» إلا إذا أوحى إليه بأمر..

وسألت : «ألم يكن في الأمر إلهام من الله لرسوله بألا ينحاز لرأي المنافقين مهما كان وجيها ؟»

فأجاب : «بدون شك.. فلا بد أن رأي (عبد الله بن أبي) «كان صادرا عن كرهه القتال من أجل دين لا يؤمن به في سره. فاختار البقاء في المدينة».

قلت : «ولعله كان يبيت للمسلمين وقيعة أو ينوي بهم غدرا حين تحاصرهم (قريش) فيتخلى عنهم في ساعة الحسرة، أو يفتح الأبواب عليهم للمشركين، إلى غير ذلك مما يخامر بال كل منافق أثيم».

فقال : «هذا احتمال كان واردا جدا، ولكن سره بقي مدفونا في باطن الغيب فقد حاد الرسول عن طريق (ابن أبي) وأصر على سلوك الطريق الآخر، رغم أن أنصار الخروج (لقريش) ندموا على مخالفتهم وجهة نظر الرسول، وخصوصا بعد أن جادلهم (أسيد ابن خضير) و (سعد بن معاذ) بقولهما : «لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن (بالمدينة) فقلتم ما قلتم، واستكرهتموه على الخروج، فردوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى أو رأيا فأطيعوه».

فلما خرج الرسول إليهم لابسا درعه، متقلدا سيفه، أقبلوا عليه فقالوا : «ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك، والأمر إلى الله ثم إليك».

فأجابهم صلى الله عليه وسلم :

«قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم. وما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، أنظروا ما آمركم به فاتبعوه، والنصر لكم ما صبرتم». وهكذا رسخ النبي مبدأي الشورى والنظام في جملتين صغيرتين، لو عمل بهما المسلمون ما خسروا معركة (أحد)، ولا أية معركة بعدها إلى يوم الدين».

٥ ٥ ٥

«وخرج المسلمون.. وتقدموا حتى نزلوا بمكان يدعى (الشيخين)، فرأى النبي كتيبة لا يعرف أهلها، فسأل عنها فقيل له : «هؤلاء حلفاء (ابن أبي) من اليهود». فقال عليه السلام قولته الذهبية الثانية في نفس اليوم : «لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك».

قلت وكأني أسمعها لأول مرة :

«ما أعظمها قولة.. وقد عاشت الأمة الإسلامية لترى الفاسدين من حكامها يستعينون بالمشركين على المسلمين، كما حدث في الأندلس (ووادي المخازن) فأنزل الله الهزائم والكوارث على الجميع».

فتنهد الشيخ في حسرة، وقال :

«ولماذا ترجع بعيدا إلى الأندلس ووادي المخازن ؟ أنظر من حولك الآن ترى ما تشمئز له نفس كل مسلم غيور على دينه ووطنه، وقومه».

ثم استأنف حديثه، وقد لمعت في ذهنه إحدى أفكاره..

«على ذكر ما قلت من غدر المنافق : (عبد الله ابن أبي) بالمسلمين، انه لم يبق سرا في باطن الغيب، كما أسلفت، بل كشف الله نواياه وهو في طريقه مع المسلمين إلى (أحد)، إذ وسوس له أتباعه بمخالفة الرسول لرأيه والعمل برأي الغلمان، فصادف ذلك هوى في نفسه، فانخذل مع كتيبة من أصحابه وحلفائه اليهود، تاركا الرسول في سبعمائة من المؤمنين فقط ليقفوا في وجه جيش من ثلاثة آلاف من المشركين».

«وفي الغد سار المسلمون حتى وصلوا (أحدا)، فعبروا مسالكه، وجعلوه خلفهم وانصرف الرسول إلى تنظيم صفوف المسلمين. ووضع منهم خمسين من الرماة على شعب في الجبل، وقال لهم...

ثم توقف الأستاذ، ورفع يديه معا وكأنه يهم بالتصفيق. وكانت تلك علامة تعودناها على تنبيهه لتلاميذه إلى أمر هام، أو نقطة جوهرية في درسه، أو بيت قصيد، فأرهفت سمعي.. قال :

«أنصت جيدا إلى قولته، صلى الله عليه وسلم.. أنه وهو يوجه هذه الكلمات، لم يكن ينظر إلى الرماة الخمسين على الشعب فقط.. بل كان ينظر إلى جميع أفراد الأمة الإسلامية الذين وضعت في أعناقهم الأمانات الكبرى، وقلدوا المناصب الخاصة بحماية أمن المسلمين، والدفاع عن كرامتهم إلى يوم القيامة.. ومن هنا يأتي تفسيري لأحداث السيرة النبوية بأنها قوالب ونماذج للسلوك صالحة في جوهرها لكل زمان ومكان.. فرغم قصر المسافة التاريخية التي جرت فيها هذه الأحداث فهي عبارة

عما يسمونه في علم البيولوجيا بـ (الجينات) أو ما يشار إليه حديثا بالحروف الثلاثة الأولى.. التي هي نسيتها.. هل تذكرها ؟

قلت ؛ «د. ن. أ»

قال ؛ (دانا) ـ تماما.. وهي ذرة مجهرية لا ترى بالعين المجردة ولكنها تحمل في داخلها جميع خصائص التكوين الدقيقة ، سواء بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات. كذلك السيرة النبوية، تحمل في أحداثها خصائص هذه الأمة ما دامت تستلهم عبرها، وتنهل من ينابيعها.. فإذا تخلت عنها تشوهت، وتغير مظهرها كتلك المخلوقات الغريبة التي نسمع أو نقرأ عنها في وسائل الإعلام..

وهذه قولته للرماة الخمسين ؛

«احموا لنا ظهورنا، فإنا نخاف أن يجيئونا من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ؛ وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدافعوا عنا. وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل».

ونهى غيرهم أن يقاتلوا حتى يأمر هو بالقتال.

وصفت (قريش) صفوفها، وجعلت على الميمنة (خالد بن الوليد)، وعلى الميسرة (عكرمة بن أبي جهل)، ودفعت اللواء إلى (عبد العزى طلحة بن أبي طلحة)..

ومشت القرشيات بين الصفوف يضربن بالدفوف والطبول، وعلى رأسهن (هند بنت عتبة) ينشدن الأشعار، ويحرضن الرجال على القتال، ويعدن الشجاع بالعناق والجبان بالفراق، منشدات ؛

إن تقبلوا نعانق   ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق   فراق غير وامق

وفي معسكر المسلمين مد النبي يده بسيف قائلا : «من يأخذ هذا السيف بحقه ؟».

فقام إليه رجال أمسكه عنهم، حتى قام (أبو دجانة سماك بن خرشة) فقال : «وما حقه، يا رسول الله ؟» «فقال : «أن تضرب به العدو حتى ينحني»، وكان (أبو دجانة) شجاعا عرف بين المجاهدين بعصابة حمراء يسميها عصابة الموت، إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل.. فأخذ السيف، وعصب رأسه، ومشى يتبختر بين الصفين كعادته عند الحرب فلما رآه الرسول قال : «إنها لمشية يبغضها الله، إلا في هذا الموطن».

وأضاف الأستاذ : «فعلا، كان لتبختر (أبي دجانة) مفعول نفسي قوي على معنويات المسلمين، فكان يدخل الطمأنينة على نفوسهم فيوقنون بالنصر».

«ووقعت مناوشات بين الجمعين، فصاح (حمزة بن عبد المطلب) صيحة القتال : «أمت ـ أمت» واندفع إلى قلب جيش (قريش).

«وصاح (طلحة بن أبي طلحة)، حامل لواء قريش : «من يبارز ؟!» فبرز له (علي بن أبي طالب) فبادره بضربة شقت رأسه. واغتبط النبي، وكبر المسلمون وهجموا..

«واندفع (أبو دجانة) يشق صفوف المشركين بسيف النبي، ولا يلقى أحدا منهم إلا قتله، فلقي شخصا يجهز على جرحى المسلمين، فحمل عليه فولول فإذا هو (هند بنت عتبة)، فتراجع عنها إكراما لسيف

الرسول أن يضرب به امرأة.. بينما هي كانت قد خططت لقتل (حمزة)، سيد الشهداء، مع (وحشي الحبشي)، ووعدته خيرا كثيرا إذا هو ثأر لها لمقتل أبيها وأخيها وعدد من أحبائها قتلهم (حمزة) ـ فكان لها ما أرادت.. إذ ترصده هذا العبد الصنديد الخبير في رمي الحربة على الطريقة الحبشية، وأرسلها فاخترقت ثنته حتى خرجت من بين رجليه..

وقاتل المشركون كذلك بشجاعة واستماتة، وحقد على المسلمين، ورغبة مبرحة في الانتقام لقتلاهم يوم (بدر).

ولكن الله كتب النصر للمسلمين بمقتل حملة لواء المشركين، فولوا الأدبار حتى أحيط بنسائهم، وسقط الصنم الذي جاؤوا به تيمنا من هودجه عن ظهر الجمل.. وتبعهم المسلمون حتى دخلوا معسكرهم، فبهرهم ما كان به من بذخ وزينة ورياش، فانصرفوا إلى جمع الغنائم والنفائس التي تركها الهاربون، وصرفهم ذلك عن مطاردة عدوهم، والتأكد من هزيمته.

ورآهم الرماة الذين أمرهم الرسول بحماية ظهور المسلمين، فوقعوا ضحية إغراء شديد، ووسواس شيطان لعين، فتركوا الشعب ونزلوا لجمع الغنائم.

والتفت (خالد ابن الوليد) فرأى بنظرة القائد العسكري الموهوب الثغرة التي تركها انسجاب الرماة في ظهور المسلمين، فشد برجاله على ما كان قد بقي منهم بالشعب فأجلاهم عنه، وصاح بقريش فعادوا من مفرهم وأثخنوا في المسلمين طعنا وقتلا، فانخذلوا وتمزقت صفوفهم، وقتل بعضهم بعضا خطأ لتفشي الفوضى.

وصاح أحد المشركين : «قتل محمد ! وأسقط في أيدي المسلمين، وكف عدد منهم عن القتال، وأما (قريش) فزاد ذلك في حماسهم، وتدافعوا إلى ناحيته يريدون نصيبهم من جسده الطاهر للفخر به كتذكار على القبائل والأجيال التي لم تحضر (أحدا)..

ولكن المسلمين أحاطوا بنبيهم إحاطة سور حديدي من الإيمان والاستماتة.. وأصابته جراح كثيرة من الحجارة التي قذفه بها المشركون، فشج في وجهه، وجرحت شفته، ودخلت حلقتان من مغفره في وجنته فاستلهما أبو عبيدة بن الجراح بأسنانه فسقطت ثنيتاه، ووقع في حفرة حفرها المشركون، فأخرجه (علي) و (طلحة) رضي الله عنهما منها، وتسلق الجميع الجبل.. ورماهم المشركون بالنبال فوقف (أبو دجانة) حائلا بينها وبين رسول الله، وانحنى يقي عنه النبال وهي تنغرس في ظهره.

ونهى رسول الله عن تكذيب خبر مقتله حتى لا يقصده المشركون ولكن خبر نجاته شاع بين المسلمين فنهضوا به نحو الشعب..

وعلم بنجاته (أبي بن خلف) فتبعهم وهو يقول : «أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا» فتناول رسول الله حربة (الحارث بن الصمة) وطعنه بها طعنة جعلته يتقلب على جواده، ويعود القهقري ليموت في الطريق، وكان هذا أول مشرك قتله الرسول بنفسه..

وحاول (خالد بن الوليد) ورجاله مهاجمة المسلمين من أعالي الشعب فتصدى له (عمر بن الخطاب) وجماعة من الصحابة فردوهم على أعقابهم.

وصعد المسلمون الجبل حتى أخذ منهم الإرهاق كل مأخذ. وصلى النبي قاعدا متأثرا بجراحه، ومثقلا بدروعه، وصلى المسلمون خلفه قعودا.

وابتهجت قريش بنصرها. ومثلت نساؤها، وعلى رأسهن (هند) زوج (أبي سفيان)، بقتلى المسلمين تمثيلا شنيعا جعل أبا سفيان يتبرأ من فعلتها.. فقد صنعت من آذان القتلى وأنوفهم قلائد وأقراطا تزينت بها..

وكان أفظع ما حفظ لها التاريخ في سجل مخازيه الأبدي، تحريضها على (حمزة بن عبد المطلب)، عم النبي، وبقر بطنه بعد موته، وإخراج كبده وافتراسها كما تفترس الكلبة الجائعة طعامها..

ودفنت قريش قتلاها وانصرفت. ونزل المسلمون إلى الميدان لدفن الشهداء، وابتهجت (قريش) بنصرها..

وبحث الرسول عن عمه (حمزة)، وكان يحبه حبا شديدا، ويعتز بانتمائه إلى دين الله.. فقد كانت شخصية (حمزة) القوية، وشجاعة التي طبقت الآفاق تشيع الثقة والطمأنينة في نفوس المسلمين، وكان مجرد وقوفه في مقدمة صفوف المسلمين في المعارك يلقي الرعب في قلوب المشركين.. فكان رضي الله عنه، قلعة من قلاع الرسول، وجيشا وحده إلى جانب جيش المسلمين.

وهكذا يمكننا أن نتصور ألم الرسول وحزنه الشديد حين وقف عليه، وقد بقر بطنه، ومثل به. فقال : «لن أصاب بمثلك أبدا ما وقفت موقفا قط أغيظ إلي من هذا».

وأقسم أن يمثل (بقريش) إن أظفره الله بهم، ولكن الله تداركه بالآية الكريمة : **(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين).**

٥ ٥ ٥

وتهدج صوت أستاذي الجليل وهو يتلو الآية الكريمة، وقد أخذ الانفعال والإجهاد منه كل مأخذ، وكأنه كان يقاتل بنفسه في (أحد).. وكأنه كان يقف إلى جانب الرسول وهو يبكي عمه ويرثيه.

وتقطع كلامه فدفن وجهه في كفيه، وأجهش باكيا في صمت واغرورقت عيناي أنا الآخر رحمة به، وتأثرا بأساه وإشفاقه على رسول الله..

ودخلت زوجته الحاجة رقية التي كانت تجالسنا لحظة، ثم تتركنا لبعض شؤونها المنزلية، فوجدتنا في تلك الحال، فقالت بلهجة العارف :

- إنه (حمزة).. أليس كذلك ؟

وجلست إلى جانب زوجها، وناولته من حزامها منديلا ليجفف به دموعه وقالت موجهة الكلام إلي :

- هكذا شأنه في كل مرة يأتي فيها ذكر (حمزة) رضي الله عنه. وكأنه قتل بالأمس.

ومسحت أنا دموعي، وأنا أبحث عن موضوع أنقل إليه الحديث، فقلت :

- لولا عصيان الرماة لأوامر الرسول لكانت نتيجة (أحد) غير ما كانت.. ولتغير وجه التاريخ..

فقال، وهو يكفكف دموعه بالمنديل المعطر :

- ما تردت أحوال المسلمين إلا حين كثر فيهم مثل هؤلاء الرماة.. وستبقى نتائج (أحد) سارية علينا ما تركنا أوامر الله، واشتغلنا بجمع الغنائم..

- يا ترى ماذا كان موقف الرماة بعد أن كانوا سبب الكارثة ؟

وذهب سؤالي بغير جواب..

فقد رفع الأستاذ وجهه عن المنديل ونظر إلي بعينين لمع فيهما نور البصر، ثم جال بهما داخل الغرفة، حتى توقف على وجه زوجته.. ومد يده إليها فأمسكت به، وقال :

ـ رقية ـ إنني أرى ـ لقد زالت تلك الغشاوة اللعينة عن عيني ـ وعاد بصري..

ـ وأمسكت أنا بيده مهنئا.

ـ إنها بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وكرامة من كراماته.. ونهض هو وقد ارتعشت يداه من التأثر، وذهب إلى حيث كانت سجادته فكبر وسجد لله سجدة ما ظننت أنه سيقوم منها.. فودعت السيدة (رقية) على أن اعود في آخر النهار، وتركت شيخي يناجي ربه بما يناجيه به الأولياء الصالحون..

الرباط　　　　　　**أحمد عبد السلام البقالي**

"كشف القناع عن وجه تأثير الطبوع في الطباع"

أرجوزة في طبوع الموسيقى الأندلسية

لسليمان الحوات

تقديم وتحقيق:
أحمد العرايشي

صاحب الأرجوزة

1 ـ حياته (1) :

هو أبو الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن موسى العلمي الحسني، الشهير بالحوات، من عقب الشيخ المولى عبد السلام بن مشيش (2) دفين جبل العلم بشمال المغرب. كان أبوه «أديبا أريبا محققا عالما مشاركا... له أنظام جيدة»، (3) تولّى القضاء بشفشاون، وبها توفي سنة 1160 هـ. وهي السنة التي ولد له فيها سليمان.

1) ترجمته في : ثمرة أنسي، له، مخط. خع 1264 ك. السلوة، للكتاني : 3 / 116 ـ 119. الدرر البهية، للفضيلي ـ 2 / 95. شجرة النور، لمخلوف ـ 379. مؤرخو الشرفاء، لبروفنصال ـ 241 ـ 244. الاعلام، للزركلي ـ 3 / 197 (ط 3).

2) انظر في شأنه ـ الموسوعة المغربية، لبنعبد الله 2 / 115.

3) النقاط الدرر، للقادري ـ 384 (الترجمة رقم 533).

رحل سليمان في مستهل شبابه إلى مدينة فاس، واستقر بها، وكرس حياته فيها لطلب العلم، فأخذ عن طائفة من علماء وقته نذكر منهم :

- المؤرخ النسابة محمد بن الطيب القادري (4) (تـ 1187 هـ) صاحب «نشر المثاني» و «التقاط الدرر».

- وأبا حفص عمر الفاسي (5) (تـ 1188 هـ)، وكان من كبار أدباء وعلماء العصر.

- ومحمد بن الحسن البناني (تـ 1194 هـ) محشي الزرقاني، وهو فقيه مبرز، يذكر صاحب السلوة أن مجلسه بضريح المولى إدريس كان حفيلا معمورا (6).

- والشيخ عبد الكريم اليازغي (تـ 1199 هـ)، وكان «فقيها عالما مدرسا مفتيا، متفننا في علوم شتى من فقه وحديث وتفسير ولغة ونحو وبيان...» (7).

- وشيخ الجماعة التاودي ابن سودة (8) (تـ 1209 هـ)، وكان مبرزا في فنون متعددة وبخاصة في الحديث والفقه، وله فيهما تصانيف كثيرة.

أخذ سليمان عن هؤلاء الشيوخ وغيرهم حظا من المعارف والفنون المتداولة في عصره، تلك التي كانت تشكل مواد الدراسة في القرويين وغيرها من معاهد التعليم، والتي يحدثنا عنها ويرتبها لنا عصريه العربي

---

4) السلوة : 2 / 351 ـ 352. ومؤرخو الشرفاء : 227 ـ 231.
5) عناية أولى المجد، للمولى سليمان ـ 60 ـ 66.
6) 1 / 95 ـ 96.
7) السلوة ـ 2 / 115 ـ 116.
8) نفسه : 1 / 112، وترجم له الحوات في الروضة المقصودة، وثمرة أنسي.

المساري في أرجوزته «سراج طلاب العلوم» وهي التوحيد والفقه والنحو والبيان والأصول وعلم المنطق والحديث والتفسير والتصوف ثم سائر العلوم غيرها بعد ذلك (9) ويبدو أن سليمان كان قد استطاع في نهاية مزحلة الطلب أن يكون لنفسه ثقافة عامة متعددة الجوانب لكن مع ميل كبير إلى الأدب والأنساب، وهما مجال كتاباته كما سيتبين لنا ذلك عند استعراض آثاره.

ولم يكن يخرج عن نطاق هذه الثقافة العامة الاهتمام بالموسيقى وطبوعها، وهو عنوان للسمو والامتياز كما أشار هو نفسه إلى ذلك في أرجوزته :

يسمو بها المرء على الأكابر وان يكن من جملة الأصاغر

ولا شك أن وجود سليمان بفاس كان من شأنه أن يزيد من اهتمامه بها، إذ كانت هذه المدينة قاعدة للموسيقى الأندلسية، وكان لأهلها يد طولى فيها، وينتمي لمدرستها كل من مراكش ومكناس (10).

عاش سليمان حياة دعة وسعة مما كان يمده به ذووه من خيرات وغلل، ولم يسع إلى التماس الوظائف الدينية أو الشرعية (11). وكان على اتصال وثيق بالقصر الملكي على عهد السلطان المولى سليمان (1206 ـ 1238 هـ)، إذ كان إلى جانب الشاعر حمدون ابن الحاج السلمي (12) (تـ 1232 هـ) من أكبر شعراء دولته الذين أكثروا من مدحه. ولما

---

9) الابتهاج، للبلغيثي : 1 / 141 ـ 183.

10) تاريخ الموسيقى الأندلسية، للمنوني ـ 44.

11) مؤرخو الشرفاء : 242.

12) انظر ترجمته ومصادرها في مقدمة تحقيقنا لديوانه النوافح الغالية ـ 44 ـ 72.

تقدم به السن عينه السلطان المذكور نقيبا للشرفاء، وقد أتاح له ذلك الاتصال بعدد كبير من الأسر الاستقراطية القاطنة بفاس وحفزه على الاهتمام بدراسة أنساب الأشراف (13).

وقد توفي بفاس في 29 صفر سنة 1231 هـ، ودفن خارج باب الجيسة بها.

2 ـ آثاره :

خلف سليمان إنتاجا غير قليل، أغلبه في الشعر والتراجم. وهذه لائحة بما هدانا البحث إليه من ذلك :

ـ ديوان شعر في مدح السلطان المولى سليمان (14).

ـ وله خارج هذا الديوان أشعار كثيرة في أغراض متنوعة الغالب عليها غرض الاخوانيات (15).

ـ ثمرة أنسي في التعريف بنفسي (16)، ترجم فيه لنفسه، ألفه سنة 1205 هـ.

ـ البدور الضاوية في التعريف بسادات أهل الزاوية الدلائية.(17)وهو من أهم مؤلفاته، له قيمة تاريخية تكمن في تراجم رجالات هذه الزاوية، وأخرى أدبية تكمن فيما يحويه من نصوص نثرية وشعرية كثيرة.

---

13) مؤرخو الشرفاء : 242.

14) يوجد مخطوطا بالمكتبة الحسنية بالرباط تحت رقم 2941، وبالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 753 د.

15) انظر على سبيل المثال بعض مساجلاته ومراسلاته مع الشاعر حمدون ابن الحاج في ديوانه النوافح الغالية ـ 238 ـ 240، 360، 363.

16) يوجد مخطوطا ضمن مجموع الخزانة العامة بالرباط رقم 1264 ك (ص 52 ـ 83).

17) يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 261 د.

ـ الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة (18).

ـ قرة العيون في الشرفاء القاطنين بالعيون، (19) ويعرف فيه بالشرفاء الدباغيين القاطنين بحي العيون بمدينة فاس.

ـ السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الطاهر من أعقاب الشيخ عبد القادر (20)، وهو للتعريف بالشرفاء القادريين.

ـ المسك الأريج في نسب أولاد الدريج، (21) تكلم فيه على نسب اولاد الدريج الموجودين بفاس وتطوان.

ـ تأليف في ترجمة شيخه محمد بن الحسن البناني (تـ 1194هـ) (22).

ـ منظومة في نحو ثمانين بيتا في الشيخ أبي عبد الله محمد (فتحا) ابن الفقيه (23) (تـ 1136 هـ).

ـ تأليف في الناصريين (24)، أهل زاوية درعة. ولأبيه فيهم تأليف أسماه «تحفة المعاصر في بعض صالحي تلامذة أبي عبد الله محمد ابن ناصر» ينقل عنه ولده في بعض مؤلفاته (25).

---

18) يوجد مخطوطا بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 3585، وفي خزانة المرحوم عبد السلام ابن سودة.

19) الدليل، لابن سودة : 1 / 116.

20) طبع على الحجر بفاس سنة 1351 هـ.

21) الدليل ـ 1 / 108.

22) نفسه ـ 1 / 190.

23) توجد مخطوطة ضمن مجموع الخزانة العامة بالرباط رقم 1306 كـ (الموسوعة المغربية ـ 2 ـ 84.

24) الدليل ـ 1 / 82.

25) نفسه ـ 1 / 255.

- كناشة (26).
- نفي المنكر فيمن زعم حرمة السكر (27).
- كشف القناع عن وجه تأثير الطبوع في الطباع، وهي الأرجوزة موضوع التحقيق.

الأرجــــوزة

1 - موضوعها :

وضع سليمان الحوات أرجوزته «كشف القناع» في خمسة وخمسين بيتا، وكان قد نظمها إستجابة لطلب من يكنيه بابن سعيد، وهو حسبما ورد عنه في الأرجوزة من كبار الموسقيين، له باع طويل، وحلاه بفريض عصره ومعبده. ويظن الأستاذ المنوني أن ابن سعيد هذا قد يكون هو ابن نصيحة، الموسيقي المغربي الكبير، الذي كان يعيش بفاس على عهد السلطان العلوي محمد بن عبد الله (1171 - 1204 هـ)، وأنه كان معه كالموصلي للرشيد (28).

وعلى كل فإن الحوات عدد لنا في أرجوزته خمسة وعشرين طبعا للموسيقى الأندلسية وقدم ترتيبين مختلفين لها :

أولهما، وهو الذي يراعي فيها أصولها وما يتفرع عنها وارتباطها بالطباع الأربعة : السوداء والدم والبلغم والصفراء. وهي كما يلي :

---

(26) نفسه : 2 / 465.
(27) شجرة النور : 279.
(28) تاريخ الموسيقى الأندلسية - 46.

ـ الأصل الأول ، وهو طبع الذيل، ويربط بالسوداء، وتتفرع عنه ستة فروع، وهي ، رمل الذيل واستهلال الذيل ومجنب الذيل ورصد الذيل وعراق العجم وعراق العرب.

ـ الأصل الثاني ، وهو طبع الماية، ويربط بالدم، وتتفرع عنه أربعة فروع، وهي ، رمل الماية وانقلاب الرمل والرصد والحسين.

ـ الأصل الثالث ، وهو طبع الزيدان، ويربط بالبلغم، وتتفرع عنه ستة فروع، وهي : الحصار والزوركند والعشاق والحجاز الكبير والحجاز المشرقي والأصبهان.

ـ الأصل الرابع ، وهو طبع المزموم، ويربط بالصفراء، وتتفرع عنه ثلاثة فروع، وهي غريبة الحسين وحمدان والمشرقي الصغير، وبعض أهل الفن يضيف فرعا رابعا وهو طبع الصيكة.

ـ الأصل الخامس ، وهو طبع الغريبة المحررة، وليس له فرع.

ثانيهما، وهو الذي يراعي في ترتيب الطبوع تقارب نغماتها. لقد كان الترتيب السابق هو المعمول به والمتوارث عند أرباب الموسيقى من هواة وموسقيين ومؤلفين، إلا أنه ظهر أوائل القرن الثالث عشر الهجري في مدينة فاس اتجاه إلى ترتيب الطبوع ترتيبا جديدا، لا يراعى فيه ربط الطبوع بالطباع وإنما تقارب النغمات، وأخذ العمل به وأهمل ما سواه في الموسيقى التي تؤدى بالآلة أو التي بدونها. يقول الحوات ،

وهو الذي اليوم عليه العمـــــل عنـد الغنـاء وســواه مهمــــل
وهو بفــاس وهــي أم الأمصــار مستعمــل فـي ليلها وفي النهار
قامـت بـه بآلـة أو غيرهـــا طوائـف اختلفـت فـي سيرهــا

وهذا الترتيب الجديد هو كما يلي :

العشاق، الذيل، رمل الماية، رصد الذيل، عراق العجم، عراق العرب، الاستهلال، الماية، الصيكة، غريبة الحسين، الغريبة المحررة، الحجاز المشرقي، حمدان، الزيدان، الرصد، الحصار، الزوركند، المزموم، الحجاز الكبير، مجنب الذيل، المشرقي الصغير، الأصبهان، رمل الماية، انقلاب الرمل، الحسين.

وهكذا فإن الحوات قدم لنا في أرجوزته عدد طبوع الموسيقى الأندلسية في عصره، وهي خمسة وعشرون طبعا، لم يكن معروفا منها زمان عبد الواحد الونشريسي (تـ 955 هـ) سوى سبعة عشر، حسبما جاء في منظومته. (29) كما قدم لنا ما كان يسير عليه الموسيقيون من قبل إلى زمانه في ترتيبها وفق أصولها وما تتفرع عنه وربطها بالطباع الأربعة، وهو الترتيب الذي سار عليه كل الذين ألفوا في ترتيب الطبوع ابتداء من الونشريسي في منظومته المشار إليها آنفا، ومرورا بمحمد بن الطيب العلمي (تـ 1135 هـ) في «الأنيس المطرب» (30) ومحمد الصغير اليفرني (تـ 1140 هـ) في «المسلك السهل»، (31) إلى محمد بن الحسين الحائك (تـ 1214 هـ) في «مجموعه»، (32) وهو معاصر له. كما قدم لنا أخيرا ما أخذ يسير عليه الموسيقيون بفاس من اتجاه إلى ترتيبها ترتيبا جديدا حسب نغماتها دون ربط الفروع بالأصول ولا ربطها جميعا بالطباع الأربعة.

---

29) انظرها في الحائك ـ 18 ـ 19. وهي لامية من الطويل في اثني عشر بيتا.

30) 176 ـ 178.

31) 4 (الملزمة ـ 6).

32) 20 ـ 32.

2 ـ وصف مخطوطتي الأرجوزة والعمل في تحقيقها :

نسخ الأرجوزة الخطية قليلة، (33) لم أقف إلا على اثنتين منها :

ـ الأولى : وهي التي كانت موجودة في خزانة المرحوم عبد السلام ابن سودة، بفاس. تقع في وجه ورقة مفردة، مقياسها 160 × 240مم، وهي في خمسة وخمسين بيتا، كتبت بخط مغربي متوسط دقيق، عار عن تاريخ النسخ واسم الناسخ. وسأرمز لها عند المقابلة والتعليق بـ « س».

ـ الثانية : وهي الموجودة في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 4229. وهي في واحد وثلاثين بيتا فقط، وتقع في ورقتين ذهب الخرم بجزء من أولهما، وكانت أصلا في ثلاث فسقطت وسطاها التي كانت تضم الأربعة والعشرين بيتا الناقصة فيها وهي التي تحدث الناظم فيها عن الطبوع مرتبة حسب الطباع. ويدل على هذا، من جهة أولى، اختلاف الرقاص الوارد في آخر ظهر الورقة الأولى ـ وهو «فقلت» ـ مع ما تبتدىء به الورقة الموالية ـ وهو «ولجميعها...» ـ، وهذا أمر لم يتفطن إليه الباحثون الذين سبقوا إلى وصف هذه المخطوطة، (34) ومن جهة ثانية اتفاق هذا الرقاص مع أول الأبيات الساقطة، وهو : فقلت لا أحول...

---

33) تاريخ الموسيقى الأندلسية ـ 61 (الهامش 56).

34) محمد الفاسي، الخزانة السلطانية ـ 11.

ـ الخزانة الملكية (الحسنية)، منتخبات من نوادر المخطوطات ـ 188.

ـ محمد المنوني، تاريخ الموسيقى الأندلسية ـ 51.

×) ورد في وجه الورقة الأولى من «ح» ـ كشف القناع (... خرم...).

الطبوع في الطباع للعلامة (.......)

الأديب سيدي (... ...)

الحوات الشريف العلمي (... ...)

رحمه الله آمين.

الأبيات... ومن جهة ثالثة فإن معنى البيت التاسع والثلاثين يؤكد بأنه قد سبق ذكر ترتيب أول للطبوع وأنه سيأتي ترتيب آخر لها.

وقد كتبت هذه النسخة بخط مغربي جميل ملون، لم يذكر تاريخ نسخه ولا اسم ناسخه، مسطرته 15، ومقياسه 230 × 100مم. وسأرمز لها عند المقابلة والتعليق بـ «ح».

وأما بخصوص عملية التحقيق فقد قمت بنقل متن الأرجوزة من «س» التي جعلتها أصلا لتمامها، وقابلته على ما في «ح»، فلم أقف على رواية مخالفة ولكن المقابلة أفادتني كثيرا في تبين رسم بعض الكلمات غير المقروءة في الأصل.

نص الأرجوزة

الحمد لله، وللعلامة سيدي سليمان المدعو الحوات (×) :

يقـول عبـد ربـه سليمـــــان ... المكتسي ثوب الخنا والعصيان
محتـــده العلـم (35) بل نجاره ... شفشـاون منشـــأه بــل داره
أحمد من جعل (36) طيب النغم ... يطرد ما يعرو الفتى من النقـم
ويجلـب الســرور (37) والأفراحا ... ويطرب الأشباح والأرواحـــا
ثم إلى محمد (38) خير الأنـــام ... أهدي نفائس الصلاة والســـلام

---

35) العلم ـ يريد جبل العلم، ويقع شمالي المغرب، وبه ضريح الشيخ المولى عبد السلام بن مشيش (تـ 625 هـ).
(الموسوعة المغربية، الملحق 2 ـ 316).

36) ذهب الخرم بـ «جعل» في «ح».

37) ذهب الخرم بـ «السرور» في «ح».

38) ذهب الخرم بـ «محمد خير» في «ح».

وآلــه وصحبــــه الأعيـــــــان ما هاجت الأشواق بالألحــان
وبعد، فالطبع السليم لم يـــزل مغرى بإنشاد النسيب والغـــزل
يستعمــل الأسمــاع فـي السماع ويطبــع الطبــوع بالطبــــاع
وربما يشتاق من له ولــــــوع به إلى ذكر طبائع الطبـــــوع
وكان قد سألنيه ابن سعيد (39) ذو الشرف الوضاح والرأي السديد
وهو غريض (40)العصر بل معبده ومن له الباع الطويل مـــدده
فقلت لا أحول عن إتحافـــــه ولا أغض لمطرف عن إسعافـــــه
مقدمـا أصولها علـى الفـــروع وفقني الله لها عنـــد الشـــروع

جملة الطبوع أصولا وفروعا

أعلم بأن سلـم الوصـــــــول معرفـة الفـــرع مــن الأصـــول
أربعـة أصولهـــا (41) المحـررة منها أتى التفريع لا المحــــرره

39) ابن سعيد - لعله ابن نصيحة - كما يظن ذ. المنوني - وكان يعيش بفاس على عهد السلطان العلوي محمد الثالث، وكان معه كالموصلي للرشيد. (تاريخ الموسيقى الأندلسية - 46).

40) ينتهي بهذا البيت ظهر الورقة الأولى من «ح»، وتنفرد «س» بإيراد الأبيات 12 - 35 الموالية. - الغريض - هو أبو يزيد عبد الملك الغريض، كان من أعلام الغناء في عصر بني أمية، تتلمذ على ابن سريج وكان أحذق أهل زمانه بمكة بالغناء بعده. (الأغاني، للأصفهاني - 2 / 318 - 359).
- معبد - هو معبد بن وهب، كان من أحسن الناس غناء وأحسنهم خلقا وأجودهم صنعة، وهو فحل المغنين وإمام أهل المدينة في الغناء، مات أيام الوليد بن يزيد وهو عنده. (الأغاني - 1 47 - 73).

41) فالأصول إذن خمسة، أربعة يأتي منها التفريع، والخامس لا يأتي منه وهو الفريبة المحررة.

بأنهـا أصـل بغيـر فـــرع وكونهـا أصـلا بعيـد المنــع
وعدد الفروع (42) تسعة عشـــر فهـذه الطبـوع حصرهـا ظهـــر

الأصـل الأول وفروعـه

فأول الأصول (43) طبع الذيــل يميـل للسـوداء كـل الميـــل
لأنــه ترابــي الطبيعـــة وستــة قـد ذكـروا فروعـــه
فرمله (44) استهل للمجنـــب رصد عراقي عجـم وعـــرب

الأصل الثاني وفروعه

ثاني الأصول (45) عندهم المايــه وهي كثير الدم فوق الغايـــة

---

42) عدد الفروع تسعة عشر، يضاف إليها الأصول الخمسة وطبع الصيكة الذي يزيده بعضهم فرعا للمزموم فيكون مجموع الطبوع خمسة وعشرين.

43) طبع الذيل ـ أصل من الأصول، استخرجه زيد بن المنتقد اليمني، ووقته جوف الليل. (الحائك ـ 20 ـ 21).

44) رمله ـ يريد رمل الذيل، استخرجه عبد الرزاق القرطبي الفيلسوف، ونغمته شائعة في المغرب فقط ولا توجد في المشرق. (المصدر السابق ـ 21).
ـ استهل ـ يريد طبع استهلال الذيل، وهو من إضافات المغاربة للموسيقى الأندلسية، استخرجه الحاج البطلة الفاسي أيام السلطان السعدي محمد الشيخ. (تاريخ الموسيقى الأندلسية ـ 38).
ـ المجنب ـ يريد طبع مجنب الذيل، وقد استخرجه زيد بن المنتقد اليمني. (الحائك ـ 24).
ـ رصد ـ يريد طبع رصد الذيل، وقد استخرجه محمد بن الحارث الخزاعي. (المصدر السابق ـ 23).
ـ عراقا العجم والعرب ـ من فروع الذيل، استخرجهما صيكة بن تميم العراقي. (نفسه ـ 22 ـ 23).

45) الماية ـ أصل من الأصول، زمانه فصل الربيع، استخرجه أمية بن المنتقد من بني مليك فسمي باسمه. (نفسه ـ 27).

لأنها في طبعها ريحيه	فروعها أربعة سليه
فرملها (46) انقلابه بالرصد	على الحسين استطاب عندي

الأصل الثالث وفروعه

وثالث الأصول طبع الزيدان (47)	يهيج البلغم كل الهيجان
لأنه للماء طبعا ينسب	وستة فروعه ستحسب
لو حاصروا (48) زوركدا في عشقه	لكبر الحجاز في مشرقه
والأصبهان (49) وبه تسبح	حور الجنان وإليه تجنح

46) رملها - يريد طبع رمل الماية، وقد استخرجه جابر بن مهراس الفارسي. (نفسه - 28).
- انقلابه - يريد طبع انقلاب الرمل، استخرجه أمية بن المنتقد وقيل عبد الرزاق القرطبي. (نفسه - 28).
- الرصد - ويسمى أيضا المدني، وكثيرا ما يلتبس بالحصار الذي هو من فروع الزيدان، استخرجه محمد بن الحارث الغزالي. (نفسه - 29).
- الحسين - يريد طبع الحسين، وقد استخرجه حسين بن أمية من العجم. (نفسه - 28 - 29).

47) طبع الزيدان - أصل من الأصول، يستعمل في سائر الأوقات، استخرجه محمد بن عبد الله الحبشي. (نفسه - 24).

48) حاصروا - يريد طبع الحصار، يسمى بذلك لانحصار نغمته في حنجرة المغني، استخرجه عنان بن جورك عنان من اليمن. (نفسه - 26).
- زوركدا - يريد طبع الزوركند، استخرجه محمد بن عبد الرزاق من الأندلس. (نفسه - 27)
- عشقه - يريد طبع العشاق، استخرجه العشاق ابن غرغر. (نفسه - 25).
- كبر الحجاز - يريد طبع الحجاز الكبير، استخرجه حجاز بن طارق اليمني. (نفسه - 26).
- مشرقه - يريد طبع الحجاز المشرقي، ومنهم من يجعله من فروع المزموم. (نفسه - 25) ومستخرجه هو الموسيقي المغربي محمد البوعصامي المكناسي. (تاريخ الموسيقى الأندلسية - 38).

49) الأصبهان - استخرجه جابر بن الأصعد الأصبهاني، و «سمي بذلك لجريانه على ألسنة أهل بلدة الأصبهان، وقيل أن ملائكة الرحمان وحور العين يسبحون بألحانه». (الحائك - 24 - 25).

الأصل الرابع وفروعه

ورابع الأصول طبع (50) المزموم له إلى الصفراء ميل معلـــــوم

لأنــه نــاري طبــع ولـــــه ثلاثـــة مــن الفــروع مثلـــه

غريبة (51) حمدان شرق بهـــا فطب إذن نفسا وكن منتبهـــا

وبعـض أهـل الفن زاد طبعـــا جعلــه أيضـا لهـذا فرعـــا

سماه صيكة، (52) وصيكة اسم من أبدى العراقين هما به قمــــن

الأصل الخامس ولا فرع له

وخامس (53) الأصول في طبيعته كرابع الأصـــول لا فرعيتـــه

لأنــه ليـس لـه فـرع كمـــا ذكرتـه فـي نظـم مـا تقدمـــا

فـإن جمعـت الأصـل للفـــروع وجدت «كه» (54) عدة الطبـــوع

ولجميعهـا تعلـــق بمـــــا تذكره من الطبـــاع الحكمـــا

---

50) طبع المزموم ـ أصل من الأصول، استخرجه سنان بن عتاد المغربي. (المصدر السابق ـ 30).

51) غريبة ـ يريد طبع غريبة الحسين، استخرجته الموسيقي الحسين ابن الفواص، وكانت تدعى غريبة. (نفسه ـ 30).
ـ حمدان ـ استخرجه سنان بن عتاد المغربي مستخرج طبع المزموم. (نفسه ـ 31).
ـ شرق ـ يريد طبع المشرقي الصغير، ومنهم من يجعله من فروع الذيل، استخرجه زيد بن المنتقد اليمني. (نفسه ـ 31).

52) صيكة ـ يريد طبع الصيكة، سمي باسم مستخرج عراقي العجم والعرب صيكة بن تميم العراقي.

53) خامس الأصول هو طبع الغريبة المحررة، وهو أصل بلا فرع.

54) كه ـ تساوي بحساب الجمل خمسة وعشرين (كه 20 + 5)، وهي عدة الطبوع أصولا وفروعا كما ذكرها الناظم.

حسبما قد اقتضاه الوضع وحكم النقل به والطبع
من غير حشو بل ولا إطناب بذكر تعليل أو انتساب
فصل ، وعند أهل علم الموسيقى ترتيب آخر بديع منتقى
على وفاق ما اقتضى قرب النغم كقرب مخرج الحروف في الكلم(55)
وهو الذي اليوم عليه العمل عند الغناء وسواه مهمل
وهو بفاس وهي أم الأمصار مستعمل في ليلها وفي النهار
قامت به بآلة (56) أو غيرها طوائف اختلفت في سيرها
وها أنا رتبتها منظمة نظم لآل في سلوك محكمة
عشاق ذيل رملت لرصد ذيل عراق عجم ثم عرب فاستهل
ما ية إن صكت غريبة الحسين حررها حجاز شرق دون مين
فيحمد الزيدان رصدا حاصره زوركد «57) زم حجازا كابره
إن جنب المشرق لأصبهان ثم لرملها انقلابه الحسين ثم
فهذه الخمسة والعشرون جمعتها من حيث لا تدرون
فكر بها محتفلا فليس في تعليمها سوى كمال الشرف
يسمو بها المرء على الأكابر وإن يكن من جملة الأصاغر
وادع لمن نظمها تقريبا رتبها فأحسن الترتيبا

---

55) في «ح» الكلام.

56) الموسيقى التي كانت تؤدى بالآلات كانت العامة تسميها «الآلة» تمييزا لها عن الموسيقى التي تؤدى بدون آلات وهي السماع. (الموسيقى المساة أندلسية، لمحمد الفاسي ـ 7).

57) في «س» زوكد.

في رجز مهذب بديـــع عذب غريب النظم والترصيع
ولك أن تدعوه «كشف القناع عن وجه تأثير الطبوع في الطباع»
والحمـد لله على الـدوام فـي مبدإ القول وفي التمـام
من خط منقول من خط ناظمها (×).

فاس **أحمد العراقي**

58) ذهب الخرم بـ «في» في «ح».
×) غير وارد في «ح».

مصادر ومراجع التقديم والتحقيق

1 ـ الأصبهاني، أبو الفرج.
الأغاني.
بيروت، دار الثقافة.

2 ـ بروفنصال، ليڤي.
مؤرخو الشرفاء.
ترجمة ـ عبد القادر الخلادي.
الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977م.

3 ـ البلغيثي، أحمد بن المامون.
الابتهاج بنور السراج.
مصر، 1319 هـ.

4 ـ بنعبد الله، عبد العزيز.
الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية.
نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، 75 ـ 1977م.

5 ـ الحائك التطواني، محمد بن الحسين.
مجموعه.
تحقيق ـ عبد اللطيف بنمصور.
الرباط، مطبعة الريف، 1977م.

6 ـ ابن الحاج، حمدون.
ديوان النوافح الغالية في الأمداح السليمانية.
دراسة وتحقيق ـ أحمد العراقي.
رسالة دبلوم الدراسات العليا قدمت لكلية الآداب بفاس سنة 1982. (مضروب على الآلة الكاتبة).

7 ـ الحوات، سليمان.
ثمرة أنسي في التعريف بنفسي.
مخطوط الخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع رقم 1264 ك (52 ـ 83).
8 ـ الخزانة الملكية (الحسنية).
منتخبات من نوادر المخطوطات الرباط، 1398 هـ ـ 1978م.
9 ـ الزركلي، خير الدين. الأعلام ط 3، (بدون ذكر لمكان الطبع وتاريخه).
10 ـ ابن سودة، عبد السلام.
دليل مؤرخ المغرب الأقصى. ط 2، الدار البيضاء، دار الكتاب، 60 ـ 1965م.
11 ـ العلمي، محمد بن الطيب.
الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب. ط. حجرية 1305 هـ.
12 ـ العلوي، السلطان سليمان.
عناية أولى المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد.
فاس، المطبعة الجديدة، 1347 هـ.
13 ـ الفاسي، محمد.
ـ الخزانة السلطانية وبعض نفائسها.
مقال بمجلة «البحث العلمي» (المغربية)، عدد 7، السنة 3، 1966م (5 ـ 11).
ـ الموسيقى المسماة أندلسية.
مقال بمجلة «تطوان» (المغربية)، عدد 7، 1962م (7 ـ 26).
14 ـ الفضيلي العلوي، ادريس.
الدرر البهية والجواهر النبوية.
ط حجرية، فاس، 1314 هـ.
15 ـ القادري، محمد بن الطيب.
التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر.
دراسة وتحقيق ـ د. هاشم العلوي.
رسالة دبلوم الدراسات العليا قدمت لكلية الآداب بالرباط سنة 1979.
(مضروب على الآلة الكاتبة).

16 ـ الكتاني، محمد بن جعفر.
سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ط.
حجرية، فاس، 1316 هـ
17 ـ مخلوف، محمد.
شجرة النور الزكية في طبقات المالكية.
بيروت، دار الكتاب العربي. (مصورة عن ط 1، 1349 هـ).
18 ـ المنوني، محمد.
تاريخ الموسيقى الأندلسية في المغرب.
مقال بمجلة «التراث الشعبي» (العراقية)، عدد 6، السنة 10، 1979. (31 ـ 64).
19 ـ اليفرني، محمد الصغير المراكشي.
المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل. ط. حجرية ، فاس ، 1324 هـ

أ. ع

مواطن الخلل والاضطراب في كتاب "الأغاني"

محمد خير شيخ موسى

عرف أبو الفرج الأصبهاني (284 ـ بعد 362 هـ) في عصره بسعة العلم والرواية، وحسن الاستيعاب والدراية، وكان بذلك موضع تقدير معاصريه من الأدباء والكتاب، فعبر عن ذلك أحدهم بقوله ، «ومن الرواة المتسعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصبهاني، فإنه كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والحديث المسند والنسب ما لم أر قط من يحفظه مثله. وكان شديد الاختصاص بهذه الأشياء، ويحفظ دون ما يحفظه منها علوما أخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازي ومن آلة المنادمة شيئا كثيرا مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك» (1).

(1) تاريخ بغداد 11 / 399. وصاحب هذا القول هو أبو علي المحسن بن أبي القاسم التنوخي، أديب شاعر إخباري محدث ثقة وصدوق (327 ـ 384 هـ). انظر تاريخ بغداد 4 / 159.

وقد كان لهذه الثقافة الشمولية الواسعة أثر كبير جدا في تنوع اتجاهاته في تأليف كتبه فشملت الأدب والتاريخ والأنساب والأخبار والحديث والموسيقى والغناء وغيرها، كما كان لها أثر واضح في كل كتاب منها أيضا (2).

ولم يصل إلينا من هذه المؤلفات الكثيرة سوى ثلاثة كتب هي ، مقاتل الطالبيين (3) وكتاب الأغاني (4)، وأدب الغرباء (5)، ولا يزال ما بقي منها في عداد المفقود.

وإذا كنا نعتقد أن من بين هذه الكتب المفقودة ما يفوق الأغاني في سعته وكثرة أجزائه ككتاب التعديل والانتصاف (6)، وكتاب مجموع الأخبار والآثار (7)، وكتاب أيام العرب (8)، فمما لا شك فيه أن كتاب الأغاني يعد من أهم مؤلفات أبي الفرج، ومن أكثر كتب التراث العربي قيمة وأهمية، لما تضمنته أجزاؤه العديدة من ألوان الثقافات، وضروب المعارف والفنون.

---

(2) أنظر في مؤلفاته واثاره بحثنا في مجلة التراث العربي ـ دمشق ـ العدد السابع، السنة الثانية ـ أبريل 1982 ـ ص 173 ـ 194.

(3) طبع عدة مرات، اخرها بتحقيق السيد أحمد صقر ـ القاهرة 1949.

(4) طبع مرات عديدة أوثقها طبعة دار الكتب المصرية في 24 جزءا ـ القاهرة ـ 1927 ـ 1974. وهي الطبعة التي اعتمدناها في هذا البحث، وسنشير إلى غيرها في مكانه.

(5) طبع بتحقيق د. صلاح الدين المنجد ـ بيروت 1973.

(6) ذكره أبو الفرج في الأغاني 1 / 14 ثم 22 / 493. وهو ذات كتاب جمهرة أنساب العرب، وكتاب النسب، وقد توهم كثير من القدماء والمعاصرين في ذلك فذكروها على أنها ثلاثة كتب منفصلة، وانظر مثلا معجم الأدباء 13 / 98 وأنباه الرواة 2 / 252 والوفيات 3 / 308، وبروكلمان 3 / 70 ومقدمة الأغاني ط. الدار 1 / 31، ثم انظر الحاشية 25 في هذا البحث.

(7) ذكره ابن النديم في الفهرست ص 173 وياقوت في معجم الأدباء 13 / 99.

(8) ذكره صاحب المنتظم 7 / 40 وانباه الرواة 2 / 252 والوفيات 3 / 308 والبداية والنهاية 11 / 363، وكشف الظنون 1 / 204، وورد في تاريخ بغداد 11 / 398 مذيلا «ومثالبها».

وقد أبدى القدماء إعجابا شديدا بهذا الكتاب عبر عنه ابن خلدون بقوله ، «وهو لعمري ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها» (9).

ووقف أمامه المعاصرون وقفة إكبار وتقدير أفصح عنها المستشرق فارمر بقوله ، «إنه كتاب من الطراز الأول في التأليف الأدبي عند العرب، وقد أنفق فيه مؤلفه الجانب الأكبر من حياته. وإن المعارف التي يعرضها - ودع جانبا ما استلزمه من دأب وصبر - تترك المرء خجلا مما يسمى في عصرنا أدبا وموسيقى» (10).

وقد حصلت لهذا الكتاب شهرة واسعة جدا منذ أن ظهر للناس في أواسط القرن الرابع للهجرة، فتسابق أهل العلم والأدب إلى قراءته على مؤلفه، ووصلت شهرته إلى الأندلس سريعا فبعث الحكم خليفتها إلى مؤلفه «ألف دينار عينا ذهبا، وخاطبه يلتمس منه نسخة... فبعث إليه منه نسخة حسنة منقحة» (11)، كما بعث بنسخة أخرى إلى سيف الدولة الحمداني في حلب «فأنفذ له ألف دينار» (12).

وأفاد منه عدد كبير من المؤلفين، فكان أحد مصادر الحاتمي (- 388 هـ) في تأليف «حلية المحاضرة» (13)، وقال ياقوت الحموي

---

(9) المقدمة ص 1070.
(10) دراسة في مصادر الأدب العربي 1 / 173.
(11) الحلة السيراء 1 / 301 - 302.
(12) مختار الأغاني 1 / 1
(13) حلية المحاضرة، مقدمة المحقق 1 / 12.

(ـ 626 هـ) : «وقد تأملت هذا الكتاب،وعنيت به،وطالعته مرارا، وكتبت منه نسخة بخطي في عشر مجلدات، ونقلت منه إلى كتابي الموسوم بأخبار الشعراء فأكثرت» (14)، واعتمد عليه ابن خلكان (ـ 681 هـ) في وفياته وتواريخه (15)، واستند البكري (ـ 487 هـ) عليه في «التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه» (16)، واتخذه ابن الأبار (ـ 658 هـ) مصدرا من مصادر «الحلة السيراء» (17) وعاد إليه حازم القرطاجني (ـ 684 هـ) في «منهاج البلغاء» (18).

وقد تجلى الاهتمام به من خلال مختصراته الكثيرة وتجريداته التي يعود أقدمها إلى عصر مؤلفه، وينتهي آخرها في عصرنا وأيامنا (19).

وهو بعد ذلك أهم مصدر من مصادر التأليف في فنون الأدب والنقد والموسيقى والغناء وتاريخ الحضارة العربية منذ أقدم عصورها وحتى نهاية القرن الثالث للهجرة، ولا يكاد كتاب من الكتب المؤلفة في هذه الفنون في عصرنا يخلو من إشارة إليه، أو إحالة عليه.

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات مختلفة ومتباينة، لعل أهمها وأوثقها طبعة دار الكتب المصرية التي صدر الجزء الأول منها سنة 1927،

---

(14) معجم الأدباء 13 / 98.

(15) وفيات الأعيان 1 / 254، 2 / 163 و 168 و 266، 3 / 35 و 352، 4 / 110، 6 / 68، و 155 و 369 و 374، 8 / 179 ومواضع أخرى كثيرة.

(16) التنبيه ص 37 و 47 و 67 ومواضع أخرى.

(17) الحلة السيراء : مقدمة المحقق ص 171.

(18) منهاج البلغاء : ص 122 ولم نقع فيه على موضع آخر فيه إحالة على الأغاني.

(19) ويبدو أن أقدمها مختصر الأغاني لأبي الربيع سليمان بن عبد المؤمن (ـ 406). ذكره سزكين وأشار إلى وجود نسخة منه بالرباط. تاريخ التراث العربي 1 / 614. ثم مختصر الوزير المغربي (ـ 418هـ) ذكره ياقوت 13 / 97 وابن واصل في تجريده 1 / 6 كما ذكره صاحب الكشف أيضا 1 / 129. وهنالك مختصرات أخرى كثيرة له منها ما هو مفقود، ومنها ما هو مخطوط ومنها ما هو مطبوع وسيرد ذكر عدد منها خلال البحث.

وتم منها ستة عشر جزءا قبل تصفية القسم الأدبي بهذه الدار سنة 1963، ثم أعيد تصوير هذه الأجزاء في تلك السنة، وقد أضيفت إليها أخبار حارثة بن بدر، فألحقت بآخرها، وهي تابعة للجزء الثامن في الأصل.

ومع بداية عام 1970، كلفت الهيئة المصرية للتأليف والنشر، وقد حلت محل القسم الأدبي بدار الكتب - عددا من الأساتذة بتحقيق بقية أجزائه، فتم ذلك بصدور الجزء الرابع والعشرين منه سنة 1974، مع وعد لم ينجز بعد بإصدار فهارس كاملة لهذه الطبعة التي تعرف بطبعة دار الكتب.

وعلى الرغم مما تتسم به هذه الطبعة من خصائص علمية ومميزات، لاعتمادها على عدد من الأصول والمخطوطات، وإفادتها من أخطاء الطبعات السابقة، وتصحيحاتها اللاحقة، إلا أن الكتاب مع ذلك لا يزال بحاجة إلى تضافر جهود كثيرة ومتنوعة، تعمل على دراسته دراسة دقيقة ومتأنية، والنظر في مواطن الخلل والاضطراب فيه، وإعادة تحقيقه تحقيقا علميا سليما، بالرجوع إلى مخطوطاته الكثيرة، وتجريداته العديدة الموزعة في مكتبات العالم المختلفة، حتى يعود إلى أصله الصحيح والسليم.

فقد أصيب هذا الكتاب - مع اختلاف الأيام والعصور - بشيء غير قليل من الخلل والنقص أو السقط والاضطراب، وطرأ عليه بعض التغير في ترتيبه وتقسيمه، ولم تنج بعض أخباره وأشعاره وأسانيده من الخطأ أو التصحيف أو التحريف أو غير ذلك مما لا يزال ظاهرا فيه، وسنحاول الكشف عنه أو الإشارة إليه، معتمدين في ذلك على ما بين أيدينا من طبعاته، وعلى رأسها طبعة دار الكتب المصرية، ومستأنسين بما وصل

إلينا من تجريداته ومختصراته القديمة، عسى أن يفيد ذلك في تصحيح بعض تلك المواضع، وينير السبيل أمام الدارس أو الباحث أثناء رجوعه إلى هذا الكتاب أو اعتماده عليه.

ولعل أهم ما ينبغي الوقوف عنده من بين هذه المسائل كلها هو ما يمكن أن يكون قد سقط من الأغاني من أخبار وأشعار وأقوال، تنبه بعض القدماء على بعض مواضعها، ولا زالت هنالك مواضع أخرى كثيرة لم يشر إليها أحد من قبل.

وأقدم ما نقع عليه من إشارات الأقدمين إلى تلك المواضع قول ياقوت الحموي (626 هـ) في معجمه ، «وجمعت تراجمه فوجدته يعد بشيء ولا يفي به في غير موضع منه كقوله في أخبار أبي العتاهية ، وقد طالت أخباره هاهنا، وسنذكره مع خبر عتبة في موضع آخر، ولم يفعل. وقال في موضع آخر ، أخبار أبي نواس مع جنان خاصة إذ كانت سائر أخباره قد تقدمت، ولم يتقدم شيء من أشباه لذلك... وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شيء، أو يكون النسيان قد غلب عليه، والله أعلم» (20).

فهذان موضعان من المواضع التي رجح ياقوت أنهما قد سقطا من الأغاني، أو أن النسيان قد غلب على مؤلفه فيه، على أن هذه المسألة بحاجة إلى المزيد من التأني والروية للوقوف على حقيقتها.

ويبدو أن ياقوت لم يكن دقيقا تماما في نقل ما ورد في الأغاني حول ذلك نقلا حرفيا وأمينا، إن لم يكن قد اعتمد على ذاكرته في ذلك،

(20) معجم الأدباء 13 / 98- 99.

على عادة كثير من القدماء، فأورد هذا النص، وبنى عليه تلك النتائج، على الرغم مما بينه وبين الأصل من تباين واختلاف، مما يمكن أن يؤدي إلى تباين النتائج واختلافها أيضا.

فقد صدر أبو الفرج أخبار العتاهي بقوله ، «ذكر نسب أبي العتاهية وأخباره سوى ما كان منها مع عتبة، فإنه أفرد لكثرة الصنعة في تشبيه بها، وأنها اتسعت جدا، فلم يصلح ذكرها هنا، لئلا تنقطع المائة الصوت المختارة، وهي تذكر في موضع آخر إنشاء الله» (21). ثم سرد من أخبار العتاهي وأشعاره ما استغرق 112 (مائة وإثنتي عشرة) صفحة كاملة، دون أن يذكر ضمنها شيئا من أخباره مع عتبة، وقال في ختامها ، «ولم أذكر ها هنا مع أخبار أبي العتاهية أخباره مع عتبة، وهي من أعظم أخباره، لأنها طويلة، وفيها أغان كثيرة، وقد طالت أخباره ها هنا، فأفردتها (22)».

وظاهر هذين النصين بداءة أن أبا الفرج قد تجنب ذكر أخبار العتاهي مع عتبة في هذا الموضع من كتابه، لطول تلك الأخبار، وكثرة ما فيها من أغان وأصوات، فأفردها في موضع آخر منه، دون أن يكون لهذا الموضع أثر في الأغاني كله، مما يوحي بالسقط أو النسيان كما رجح ياقوت في تفسيره له.

بيد أن تفسير هذا النص - في نظرنا - مرتبط إلى حد بعيد بما يقصد إليه في قوله ، في آخر أخبار العتاهي ، **ها هنا**، وقوله ، **فأفردتها**. وبإمكاننا أن نفهم أنه يقصد بهما ، أنه لم يذكر في الأغاني

---

(21) الأغاني 4 / 1.
(22) ن. م. 4 / 112.

أخباره مع عتبة لطولها، وقد طالت أخبار العتاهي فيه، فأفرد تلك الأخبار بكتاب، أو ضمنها جزء من كتاب آخر من كتبه الكثيرة التي تليق بمثلها ككتاب الأخبار والنوادر (23)، أو مجموع الأخبار والآثار (24) أو غيرهما من كتبه التي لم تصل إلينا.

ومما يرجح ذلك ويقويه أننا وجدناه يقول في أخبار خالد القسري : «وكان قوم من سحمة عرضوا لجار أسد (جد خالد)، فأوقع بهم أسد، فقال القتال فيه عدة قصائد، ولم أذكرها ها هنا لطولها، وأن ذلك ليس الغرض المطلوب في هذا الكتاب، وإنما نذكر ها هنا لمعا، وسائره مذكور في جمهرة أنساب العرب الذي جمعت فيه أنسابها وأخبارها، وسميته التعديل والانتصاف»، ثم قال بعد ذلك : «ولأسد أشعار كثيرة ذكرت هذه منها ها هنا، وسائر ها يذكر في كتاب النسب» (25).

ومن الواضح أن أبا الفرج يقصد بقوله : ها هنا، هذا الكتاب أي الأغاني، الذي اقتصر فيه على سرد لمع من أخبار الشعراء وقصائدهم، وذلك هو الغرض المقصود فيه، والمحدد له. أما سائر أخبارهم الطويلة وقصائدهم فإن لها مواضع أخرى مفردة في كتبه.

وللدلالة على صحة تفسير نا لقوله : فأفردتها، بأنه يقصد منها : فأفردت لها كتابا أو جزءا من كتاب آخر، فإننا وجدناه يستخدم هذه الكلمة بهذا المعنى في قوله في مقدمة الأغاني : «ولم يستوعب كل ما غني به في هذا الكتاب ولا أتى بجميعه إذ كان قد أفرد لذلك كتابا مجردا من الأخبار، ومحتويا على جميع الغناء القديم والمتأخر» (26).

(23) ذكره ابن النديم ص 173 وياقوت 13 / 99.
(24) مر ذكره في الحاشية 7.
(25) ن. م 22 / 3 ـ 4.
(26) ن. م 1 / 1.

وعلى ذلك نستطيع القول إن أخبار أبي العتاهية مع عتبة لم تسقط من الكتاب ولم يغلب النسيان على صاحبه فيه، إذ لم يذكرها ها هنا لطولها، فأفردها في كتاب آخر من كتبه التي تليق بمثل هذه الأخبار مفردة، وإنما يذكر ها هنا لمعا وأطرافا فحسب.

أما أخبار أبي نواس التي رجح ياقوت أنها ربما تكون قد سقطت من الأغاني، أو أن النسيان قد غلب على صاحبه فيه، كما استنتج من النص الذي ذكره، وقلنا إن بينه وبين النص المذكور في الأغاني اختلافا وتباينا، يؤدي إلى اختلاف النتائج التي تنبني عليه أيضا، فإن ياقوت قد ذكر أن أبا الفرج قال في الأغاني ، «أخبار أبي نواس مع جنان إذ كانت سائر أخباره قد تقدمت» (27) بينما نجد فيما بين أيدينا من نسخ الأغاني قول أبي الفرج ، «أخبار أبي نواس وجنان خاصة، إذ كانت سائر أخباره قد أفردت خاصة» (28). وتفسير ذلك مرتبط بما ذكرناه في تفسير نا للنص السابق الذي يتصل بأخبار العتاهي وعتبة خاصة، إذ اقتصر أبو الفرج على ذكر أخبار النواسي وجنان خاصة في الأغاني، أما سائر أخباره فقد أفردت خاصة في كتاب آخر من كتبه التي لم تصل إلينا أيضا.

ومما يرجح ذلك، ويقوي صحة ما ذهبنا إليه أننا لم نجد فيما ذكره الأصبهاني من أخبار هذين الشاعرين في الأغاني أي إشارة تدل على وجود أخبار أخرى مفردة لهما في هذا الكتاب، مع ما نقع عليه في أخبار شعرائه من إشارات كثيرة إلى أخبارهم الموزعة في ثناياه كقوله في

---

(27) معجم الأدباء 13 / 98.

(28) الأغاني 20 / 61.

أخبار علي بن أمية ، «وقد تقدم خبر أخيه محمد في مواضيع من هذا الكتاب» (29) وقوله في أخبار عبد الله بن دحمان ، «وقد تقدم خبر أبيه وأخيه الزبير» (30) وقوله في أخبار ابن أبي عائذ ، «الغناء لابن عائشة وقد ذكر في أخباره» (31) وقوله في أخبار عبد يغوث الحارثي ، «وخبره يذكر منفردا» (32) وقوله ، «وقد تقدم من خبر لبيد ونسبه ما فيه الكفاية» (33)، وقوله في صدر أخبار مالك بن أسماء ، «وقد مضى هذا النسب في أخبار عويف القوافي» (34) وقوله في صدر أخبار الفرزدق في الجزء التاسع ، «أخبار الفرزدق في هذا الشعر خاصة دون غيره، لأن أخباره كثيرة جدا. فكرهت أن أثبتها ها هنا في غناء مشكوك فيه، فذكرت نسبه وخبره في هذا الشعر خاصة، وأخباره تأتي بعد هذا في موضع آخر يتسع لطول أحاديثه (35) وقوله في صدد أخبار مروان بن أبي حفصة الأصغر في الجزء الثالث والعشرين ، «وقد تقدم خبره ونسبه» (36). وذلك كله مما نقع عليه في أجزاء سابقة أو لاحقة من الأغاني.

كما نقع فيه على بعض الإشارات إلى بعض أخبار أبي نواس وسرقاته من الشعراء، كقوله في أخبار الحسين بن الضحاك ، «وكان أبو

---

(29) ن. م 23 / 134 وانظر 12 / 145 ـ 155.

(30) ن. م 24 / 97 وانظر 6 / 21.

(31) ن. م 24 8 وانظر 2 / 220.

(32) ن. م 16 / 328 وانظر 13 / 45 ـ 56.

(33) ن. م 17 / 65 وانظر 15 / 361 ـ 379.

(34) ن. م 17 / 230 وانظر 19 / 183 ـ 210.

(35) ن. م 9 / 324 ثم انظر 21 / 275 ـ 404.

(36) ن. م 23 / 206 وانظر 12 / 80 ـ 87.

نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها... وأخبارهما في هذا المعنى تذكر في أماكنها» (37) ثم أتى بعد ذلك على ذكر هذه الأخبار فعلا ضمن أخبار حسين (38). بينما وجدناه يقول في أخبار الوليد بن يزيد، «وللوليد في ذكر الخمرة وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء... وأبو نواس خاصة فإنه سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره فكررها في عدة مواضع منه، ولولا كراهة التطويل لذكرتها ها هنا، على أنها تنبئ عن نفسها» (39) ومن الملاحظ أنه لم يقل - على عادته - إنه سيذكر ذلك في أخباره، أو أن ذلك قد تقدم ضمن أخباره، مما يؤكد أن هذه الأخبار غير موجودة في الأغاني، وأن ما هو موجود منها خاص بأخباره مع جنان خاصة، دون سائر أخباره، إذ كانت هذه الأخبار قد أفردت خاصة في كتاب آخر كما ذكرنا.

على أن هنالك بعض الملاحظ الأخرى التي تتصل بهذه المسألة، وتزيد ثقتنا بصحة النتائج التي توصلنا إليها فيها، ومن هذه الملاحظ أننا نقع في معجم ياقوت على قوله في أخبار علي بن ابراهيم الدهكي، «وقد وقعت إلينا إجازة متصلة إلى علي برواية كتاب الأغاني عن أبي الفرج (40) وعلي هذا أحد تلامذة أبي الفرج الذين أخذوا عنه الأغاني، وأجازهم بروايته، وقد ذكر ياقوت أيضا أنه قد وقعت إليه «إجازة بهذا الكتاب أحسن من هذه» (41). وعلى ذلك فإن بين يديه نسختين

(37) ن. م 7 / 146.
(38) ن. م 7 / 147 - 148 و 155 و 156.
(39) ن. م 7 / 20.
(40) معجم الأدباء 12 / 216.
(41) ن. م 12 / 216 - 217.

كاملتين من نسخ الأغاني الموثقة، مرويتين عن أبي الفرج نفسه، وقد حصلت له بهما إجازات متصلة إليه، دون أن يكون فيهما من أخبار العتاهي أو النواسي التي أشار إليها شيئا.

كذلك فقد كان ممن اختصر الأغاني من معاصري ياقوت ابن واصل الحموي (ـ 697 هـ) في تجريده الذي لا نقع فيه على شيء من هذه الأخبار أيضا، على الرغم من اطلاعه على مختصر قديم للأغاني يعود إلى عصر أبي الفرج نفسه تقريبا، وهو مختصر الوزير المغربي (ـ 418 هـ) مما يدل على أن هذا المختصر القديم لا يشتمل على شيء من تلك الأخبار أيضا (42).

كما قام ابن منظور المصري (ـ 711 هـ) باختصار الأغاني أيضا، وصرح فيه باطلاعه على مختصر آخر قديم لهذا الكتاب قام به الرشيدي (ـ 563 هـ) دون أن يكون في هذين المختصرين شيء من تلك الأخبار أيضا (43) بيد أن ابن منظور قد كرر ما ذكره ياقوت في معجمه فقال، «هذه الترجمة ترجم عليها أبو الفرج بما صورته أخبار أبي نواس وجنان خاصة إذ كانت أخباره ذكرت، ولم أجد لأبي نواس ترجمة مفردة في نسخ الأغاني التي وقفت عليها، وما أدري هل أغفل أبو الفرج ذكره في كتابه، أم سقطت ترجمته من كتابه من بعده ؟» (44) ومن الملاحظ أنه قد وقع بما وقع به ياقوت من قبل في تحريف النص، وربما كان لياقوت أثر في ذلك.

(42) تجريد الأغاني 1 / 5 ـ 6.
(43) مختار الأغاني 1 / 1.
(44) ن. م 4 / 1.

وعلى ذلك فقد تجشم ابن منظور عبء صنع ترجمة كاملة لأبي نواس اعتمد فيها على ترجمة قديمة له من صنع ابن الأعرابي، وأضافها إلى مختاره (45).

وكذلك فعل الأديب المغربي عبد القادر السلوي الفاسي الأندلسي الأصل (46) (من رجال القرن 12 هـ) في تجريده «إدراك الأماني من كتاب الأغاني» (47) إذ اضاف فيه ترجمة لأبي نواس (48)، سار فيها على سنة أبي الفرج في سرد أخبار شعرائه.وقال فيه نهايتها : «انتهت الترجمة المباركة لأبي نواس، وليست من تراجم الكتاب الأصلية» (49)، ثم أتى بعد ذلك على ذكر أخباره مع جنان خاصة كما وردت في الأغاني.

وفي ذلك كله ما يؤكد أن نسخ الأغاني وأصوله وتجريداته المختلفة التي اطلع عليها هؤلاء الأدباء جميعا ـ على اختلاف عصورهم وأمصارهم ـ لا تتضمن شيئا من أخبار العتاهي مع عتبة، أو أخبار أبي نواس غير أخباره وجنان خاصة، على الرغم من أن بعض هذه الأصول يعود إلى عصر أبي الفرج نفسه، وبعضها الآخر مقروء عليه، وكذلك الشأن بالنسبة لما وصل إلينا من مخطوطات هذا الكتاب، مما يدعونا

---

45) ن. م 3 / 6 وما بعدها.

(46) لم نقف له على ترجمة، وقد نشر بعض الأدباء في تونس بحثا قصيرا عنه، وجدناه ملحقا بكتابه المخطوط «الكوكب الثاقب في الشعراء من ذوي المناقب» ـ المكتبة الحسنية برباط الفتح ـ رقم المخطوط 2606.

(47) ومنه نسخة مخطوطة في الخزانة الحسنية بالرباط برقم 2706 تقع في أربعة وعشرين جزءا، ينقصها الجزء الأخير.

(48) ادراك الأماني، المخطوط 23 / 109 ـ 115.

(49) ن. م 23 / 116.

إلى حسم القول في هذه المسألة، والحكم القطعي بأن تلك الأخبار لم تسقط من الكتاب، إذ هي غير واردة فيه أصلا (50).

وإذا ما تجاوزنا هذه الأخبار، فإننا نقع في هذا الكتاب على مواطن خلل واضطراب عديدة، ومظان نقص وسقط كثير لم يشر إليها أحد من قبل.

وأول ما يصادفنا من مظان السقط أو النقص قوله في صدر أخبار وضاح : «الشعر لوضاح اليمن، والغناء لصباح الخياط، وفي أبيات من هذه القصيدة ألحان عدة... فأخرت ذكرها إلى أن تنقضي أخبار وضاح، ثم أذكرها بعد ذلك إنشاء الله» (51). غير أننا لا نعثر على شيء من ذلك في أخبار وضاح، أو بعد انقضائها، كما لا نعثر على أخبار صباح في الأغاني كله، ومن عادة أبي الفرج أن يذكر أخبار مغني الصوت بعد سرد أخبار شاعره، مما يؤكد أن أخبار صباح قد سقطت من الكتاب برمتها، وسقطت معها الأبيات التي أشار إليها، إذ من المقدر لها أن ترد ضمنها.

ونقع في الجزء الثامن على قوله بعد أن ذكر صوتا من المائة المختارة : «الشعر لأبي فرعة الكناني، والغناء لجرادتي عبد الله بن

---

(50) وقد ذكر بروكلمان أثناء حديثه عن أبي نواس أن أبا الفرج «قد ترجمه بتوسع في النسخة المسماة بالأغاني الصغيرة الموجودة في مكتبة چوتا» تاريخ الأدب العربي 2 / 29. ولسنا نعرف شيئا عن 'الأغاني الصغيرة التي ذكرها وإن كنا نعتقد أنه يقصد مختصر الأغاني لابن منظور الذي أضاف هذه الترجمة إلى مختاره. وقد اعتقد محقق الأغاني الأستاذ فراج ط. دار الثقافة بوجود مخطوطة من الأغاني في مكتبة چوتا تتضمن ترجمة أبي نواس، ووعد بالحصول عليها وطبعها في اخر هذه الطبعة، ثم عاد إلى القول إنه لم يحصل عليها بعد، وسيقوم بطبعها في مجلد مستقل بعد ذلك، دون أن يتحقق شيء من ذلك حتى الان. أنظر الأغاني ط. دار الثقافة 20 / 3 ثم 23 / 573.

(51) الأغاني 6 / 208. وأخباره غير موجودة في مختصرات الأغاني التي وقفنا عليها.

جدعان» (52)، ثم أتت بعد ذلك أخبار الجرادتين، دون أن نجد لأبي فرعة وأخباره ذكرا في الكتاب كله، ومن عادته أن يبدأ بسرد أخبار شاعر الصوت، ثم يتبعها أخبار مغنيه.

وفي هذا الجزء نفسه أيضا نقع على قوله بعد صوت من المائة المختارة : «الشعر للعباس ابن الأحنف والغناء لسليمان الفزاري(53)»ثم أتى بعد ذلك على سرد أخبار العباس، دون أن نجد لسليمان وأخباره أثرا.

وفي الجزء التاسع وجدناه يذكر الأرمال الثلاثة المختارة (54)، ثم يأتي على سرد أخبار شاعرين من شعرائها أو بعض أخبارهم، دون أن يذكر ثالثهم بشيء،إذ لم نقف له على خبر في الكتاب كله،وقد ألفنا مؤلفه يشير إلى عدم معرفته باسم الشاعر أو المغني، أو عدم إلمامه بشيء من أخبارهما إن كان الحال كذلك (55)، بيد أننا لم نجد مثل هذه الإشارات في تلك المواضع كلها، مما يدعونا إلى الظن أن هذه الأخبار ربما تكون قد سقطت من الكتاب، أو من بعض نسخه الخطية التي اعتمد عليها محققوه.

على أن هنالك مواضع أخرى متفرقة توحي بسقوط بعض الأخبار المفردة أو الأشعار أو الجمل أو الكلمات المختلفة. ومن ذلك قوله في دفاعه عن ابن المعتز : «وعدلوا عن ثلبه بالآداب إلى التشنيع عليه بأمر

---

(52) الأغاني 8 / 326.

(53) الأغاني 8 / 351.

(54) الأغاني 9 / 62.

(55) وقد كان ذلك ـ فيما أحصينا ـ في ستة عشر موضعا بالنسبة للشعراء وهي : 3 / 44 و 115، 5 / 429، 6 / 152 و 159 و 160 و 163 و 170 و 172، 8 / 246 و 267 و 326، 9 / 250، 14 / 115 و 215، 19 / 288.

ثم انظر : 3 / 50 و 327، 4 / 301، 6 / 119 و 159، 7 / 227، 8 / 266 و 267 و 276 و 351، 18 / 148.

الدين وهجاء آل أبي طالب، وهم أول من فعل ذلك... وأنا أذكر ذلك بعقب أخبار عبد الله، مصرحا به على شرح إنشاء الله» (56). إلا أننا لا نعثر على شيء مما وعد بذكره وشرحه عقب أخبار عبد الله بن المعتز، أو في موضع آخر من الكتاب.

ومما وقع لبعض الأشعار المروية في هذا الكتاب من سقط أو نقص ما نجده في أبيات السيد الحميري الميمية التي سقط صدر البيتين الأولين منها، ولم يبق منهما سوى العجز (57).

على أن سقوط بعض الكلمات أو تحريفها قد يؤدي إلى الاعتقاد بسقوط بعض الأخبار، أو الظن باختلال ترتيب الكتاب وتجزئته وتقسيمه، ومن ذلك ما نجده في أخبار مروان بن أبي الجنوب التي أفرد لها موضعين متباعدين في كتابه، وذكر في الأول منهما بعض شعره في المنتصر وقال : «وخبره في ذلك يذكر في هذا الموضع من الكتاب» (58) دون أن نقع عليه في هذا الموضع، وإنما في غير هذا الموضع، وضمن أخباره الثانية في غير هذا الجزء (59)، مما يدل على سقوط كلمة غير من الجملة.

ومما يشبه ذلك ما أصاب بعض أسانيده من سقط أو نقص أو تحريف أو تصحيف في مواضع كثيرة منها هذا السند : «وذكر اسماعيل بن الساحر قال : أخبرنا عبد العزيز الجوهري...» (60) مما يوهم أن

---

(56) الأغاني 10 / 276.
(57) الأغاني 7 / 271.
(58) الأغاني 12 / 80 ثم انظر 23 / 211.
(59) الأغاني 23 / 205 ـ 215.
(60) الأغاني 7 / 260.

إسماعيل يروي عن الجوهري، وبينهما زمن بعيد. فالأول راوية السيد الحميري (61)، والثاني من شيوخ أبي الفرج (62)، والخبر أيام المتقي، وفي ذلك كله ما يدل على أن أصل السند : وذكر إسماعيل فيما أخبرنا الجوهري، وبذلك يستقيم السند، وتصح الرواية.

وكذلك هذا السند الذي نجده في أخبار إسحق الموصلي : «أخبرنا يحي بن علي عن أبيه عن إسحق قال، قال حمزة الزيات، يا موصلي...» (63)، وقد ولد اسحق (150 هـ) قبل وفاة حمزة بست سنوات، أو أقل (ـ 156 هـ) وفي ذلك ما يدل على أن إسحق يروي عن أبيه ابراهيم الموصلي عن حمزة.

ومثل ذلك ما نجده في هذا السند، «حدثنا يحي بن محمد بن إدريس عن أبيه» (64) بينما نجد السند الذي سبقه على هذه الصورة، «حدثنا يحي بن علي عن محمد بن إدريس عن أبيه...» (65) ويحي من خاصة شيوخ أبي الفرج الذين روى عنهم فأكثر، وليست له عن محمد بن إدريس أو ابنه رواية مذكورة.

ومما نجده في هذه الأسانيد من أخطاء قوله : «أخبرني الحسن بن علي العنزي» (66) وهو الحسن بن عليل العنزي . وقد أكثر الرواية عنه

---

(61) أنظر أخبار السيد الحميري 7 / 229 ـ 278.
(62) أنظر مثلا 1 / 209، 2 97، 10 / 290، 20 / 290.
(63) الأغاني 10 / 269 وانظر الحاشية.
(64) الأغاني 18 / 147.
(65) أنظر مثلا 6 / 172 وأخبار معظم الشعراء المحدثين.
(66) الأغاني 23 / 218.

في الأغاني (67) كما أكثر الرواية عن الحسن بن علي الخفاف (68)، فلعل الخطأ قد وقع من هذه الجهة.

وفي الكتاب من أخطاء الوراقين والناسخين أشياء كثيرة كقولهم ، «وهذا البيت في الغناء وليس في القصيدة، فأضفناه كما يضيف المغنون إذا اختلف الروي والقافية» (69) وهي اتفق فصنيع المغنين هذا إنما يكون في حال اتفاق القافية، وليس اختلافها، كما أشار أبو الفرج في عدة مواضع من كتابه (70).

ومن جملة هذه الأخطاء ما نقع عليه في خبر ابن هرمة إذ بعث إلى حسن بن الحسن بن علي بأبيات من الشعر يلتمس فيها منه زقا من النبيذ، وقد تكرر هذا الخبر في موضعين من الأغاني، وأشار أبو الفرج إلى ذلك في الموضع الثاني فقال ، «وقد ذكرته في أخبار ابن هرمة» (71)، ومع ذلك فقد تغير اسم حسن إلى ابراهيم بينهما.

ولم تنج بعض أصول هذا الكتاب - على ما يبدو - من عبث الوراقين والناسخين مما لا تزال آثاره ظاهرة فيه بعد تحقيقه وطبعه. ومن ذلك ما نجده في أخبار بيهس الجرمي إذ نقع عليها في جزئين من أجزاء الكتاب (72)، وقد بدأت في الجزء الثاني عشر بذكر اسمه ونسبه وأماكن

---

(67) أنظر مثلا 1 / 318 و 14 / 102.
(68) أنظر مثلا 2 / 2 وما بعدها.
(69) الأغاني 13 / 255.
(70) أنظر مثلا 6 / 115 و 277/11 و 9 / 208.
(71) الأغاني 11 / 252 ثم انظر 4 / 267.
(72) أنظر 46/12 ثم 22 / 135 - 140. وقد وردت أخباره في طبعة بولاق في موضع واحد 19 / 107 - 111. بيد أن الخبر المذكور سقط منها ؟

حله وترحاله وسرد خبر من أخباره، ثم انقطع الحديث عنه قبل إكمال هذا الخبر، لنعود بعد ذلك ونقع على أخبار هذا الشاعر كاملة غير منقوصة، وضمنها ذلك الخبر المبثور، وما سبقه من حديث عنه، في الجزء الثاني والعشرين بعد أخبار شعراء اليهود مباشرة، إذ نفذ إلى سرد هذه الأخبار من خلال صوت مما يغنى فيه من شعره، وقد أخذ لحنه من لحن ابن صاحب الوضوء في بعض أشعار اليهود، فكان في ذلك مناسبة لذكر هذا الصوت بعد أخبارهم، وسرد أخبار هذا الشاعر في هذا الموضع من الكتاب، وهو الموضع الذي نعتقد أنه الموضع الصحيح، لما له من مناسبة دون أن تكون هنالك مناسبة لسرد أخباره المبثورة في الجزء الآخر.

ومما يشبه ذلك ما وقع لأخبار بعض الصعاليك من الشعراء إذ نقرأ في صدر أخبار أولهم السليك بن السلكة : «وهو أحد صعاليك العرب العدائين، وهم السليك والشنفرى وتأبط شرا، وأخبارهم تذكر على تواليها ها هنا إنشاء الله في أشعار لهم يغنى فيها لتتصل أحاديثهم» (73). بيد أننا نجد أن أخبار هؤلاء الشعراء ترد في الجزء التالي (74)، وبعد أن فصلت بينها وبين أخبار السليك أخبار عدد من الشعراء والمغنين.

ومن ذلك ما نقع عليه في «أخبار عمرو بن سعيد بن زيد» (75) في الجزء التاسع، إذ لا نجد منها سوى أربعة أسطر فقط، تتصل باسمه ونسبه، ثم تبع ذلك حديث طويل عن معبد المغني وأخباره، مما يوهم بسقوط أخبار هذا الشاعر، بعد أن صدر لها بهذا العنوان الكبير، وإن كنا

(73) الأغاني 20 / 375.
(74) الأغاني 21 / 126 ـ 195.
(75) الأغاني 9 / 130.

نعتقد أن هذا العنوان من صنع بعض الوراقين، ولم يكن له من مسوغ، إذ كان الحديث أساسا يدور حول معبد وأصواته المعروفة بألقابها (76)، وكان هذا الشاعر أحد شعراء هذه الأصوات، فورد ذكره عارضا خلال الحديث عنها وعن صاحبها، فعرف أبو الفرج باسمه ونسبه على عجل، دون أن يقصد إلى سرد أخباره.

أما أخبار المتلمس فإنها لا تتجاوز صفحة واحدة (77)، أتى فيها على ذكر اسمه ونسبه، وسرد خبر واحد يتصل بهذا النسب، نقرأ بعده قول الناسخ : «هنا انقطع ماذكره الأصبهاني رحمه الله» (78) بما يوهم بسقوط بقية أخبار هذا الشاعر،خصوصا وأن هذه الأخبار قد جعلت فيآخر الكتاب، وهي ليست كذلك في الأصل (79)، وليس لنا أن نجزم بسقوط شيء منها في كل حال، إذ كثيرا ما وجدنا أبا الفرج يقتصر من أخبار شعرائه على مثل هذا القدر البسيط في عدة مواضع من كتابه (80).

ومن مواطن الخلل والاضطراب في هذا الكتاب ما نجده في أخبار

---

(76) الأغاني 19 / 105 ـ 136. وانظر أخبار ابن رهيمة إذ وردت ضمن أخبار يونس المغني 4 / 405.

(77) الأغاني 24 / 260 ـ 261. وقد سقطت أخباره من طبعة بولاق، وهي غير واردة أصلا في مختار ابن منظور، وما ورد منها في طبعة بيروت منقول عن طبعة دار الثقافة، وهي بدورها نقلته عن الجزء الذي جمعه برونوف ط. ليدن، وقد نقلها بدوره من أحد أصول الأغاني الخطية، إذ قام أحد الأدباء بإكمال أخبار المتلمس دون أن تكون من أصل الكتاب.
وانظر مختار الأغاني ط. بيروت 11 / 101 ـ 135 والأغاني ط. دار الثقافة 23 / 524 وما بعدها، والأغاني ط. دار الكتب 24 / 261 الحواشي

(78) الأغاني 24 / 261.

(79) الأغاني 260 الحاشية.

(80) أنظر الأغاني أخبار ابن رهيمة 4 / 405 والنهدي 5 / 118 وابن المربذ 7 / 104.

شعراء اليهود التي وردت في جزئين متباعدين من أجزائه، وكانت فيهما حافلة بتناقضات كثيرة، وأوهام مختلفة (81).

وتبدأ أخبار هؤلاء الشعراء في الجزء الثالث، وقد نفذ إليها من خلال صوت أو أبيات من شعر أحدهم، قال بعد أن ذكره : «الشعر لغريض اليهودي، وهو **السموأل** بن عادياء، وقيل **لابنه سعية**» (82) ثم أردف ذلك بقوله : «وغريض هذا من ولد الكاهن ابن هارون بن عمران صلى الله عليه وسلم» (82 م)، وأتى على ذكر سعية فقال : «وأما سعية فقد كان ذكر خبر **جده** السموأل بن غريض بن عادياء في موضع غير هذا» (83)، وقال بعد ذلك : «وأسلم سعية، وعمر طويلا. ويقال إنه مات في آخر خلافة معاوية» (84) ثم روى خبره مع معاوية وقد طلب منه أن ينشده أبيات جده السموأل في رثاء نفسه قبل موته فأنشده إياها، وهي الأبيات نفسها التي وجدناها قبل ذلك بقليل يرويها منسوبة إلى سعية في رثاء نفسه أيضا (85).

وعلى ذلك نجد أنفسنا أمام السموأل أي غريض بن عادياء، والسموأل بن غريض بن عادياء، ثم سعية بن غريض أي السموأل بن عادياء، وسعية بن غريض بن السموأل فيكون السموأل هو غريض مرة، وابن غريض أخرى، كما يكون سعية ابن السموأل مرة وحفيده مرة أخرى !

---

(81) الأغاني 3 / 116 ـ 118 ثم 22 / 106 ـ 133.

82) الأغاني 3 / 115 ـ 116.

(83) الأغاني 3 / 129.

(84) الأغاني 3 / 130.

(85) الأغاني 3 / 130 ـ 131.

وإذا ما انتقلنا إلى الجزء الثاني والعشرين، فإننا نقع فيه على قسم خاص بشعراء اليهود صدر له بقوله ، «وهذه جملة جمعت فيها أغاني من أشعار اليهود، إذ كانت نسبتهم وأخبارهم مختلطة» (86)، ثم أتى على سرد أخبار عدد من شعرائهم من خلال ما يغنى فيه من أشعارهم، ومن ذلك أبيات من الشعر قال بعد أن ذكرها ، «الشعر للسموأل ابن عادياء» (87) وبدأ أخباره بقوله ، «وهو السموأل بن عريض (بالعين) ابن عادياء بن حباء» (88) معتمدا في ذلك على ابن سلام، وقال إن غيره «لم يذكر عريضا» (88).

أما سعية فقد بدأ أخباره بقوله ، «سعية بن عريض بن عادياء، أخو السموأل، شاعر، فمن شعره...» (89) وروى الأبيات التي كان قد رواها له في جزء سابق، وكان ثمة ابن السموأل تارة وحفيده أخرى قبل أن يتحول هنا إلى أخيه !

وهكذا تضطرب أقوال ابن الفرج وأخباره في هذين الشاعرين اضطرابا واسعا جدا شمل أسماءهما وأنسابهما وبعض أشعارهما وأخبارهما دون أن نجد لذلك كله تفسيرا واضحا، مع ما نعرفه عن أبي الفرج من شدة العناية بتحصيل أخباره، وتوثيق أقواله، ومناقشته لمواطن الضعف والاضطراب فيها، وإن كنا نعتقد أن السبب في ذلك يرتبط بما أصاب هذا الكتاب من ضروب العبث والخلل والاضطراب، بفعل عوامل مختلفة،

---

86) الأغاني 22 / 105.
(87) الأغاني 22 / 116.
(88) الأغاني 22 / 117.
(89) الأغاني 22 / 122.

وظروف متباينة، وقد أتينا على رصد بعض مواطنها (90)، وحاولنا الكشف عن بعض ما بدا لنا في أمرها، ولا شك أن هنالك مواضع أخرى لم نقف عليها أثناء دراستنا لهذا الكتاب مما يمكن تلافيه من خلال طبعة أخرى جديدة لهذا السفر الجليل، تعتمد على مخطوطاته وأصوله الكثيرة الموزعة في مكتبات العالم المختلفة، وتستأنس بتجريداته ومختصراته العديدة، فتعيده إلى أصله السليم والصحيح، وتستبعد مواطن الخلل والاضطراب فيه (91).

الدار البيضاء **محمد خير شيخ موسى**

---

(90) وتبقى هنالك مواضع أخرى متفرقة لا يتسع المجال للوقوف عندها، أنظر مثلا 3 / 115 صوت من المائة المختارة دون أخبار شاعره، و 12 / 80 إذ ورد في السند اسم حماد بن أحمد بن سليمان الكلبي وقارن بالسند السابق، و 23 / 208 وانتبه للخطأ في الإسم و 7 / 260 الإسناد إلى اسماعيل الساحر وقارنه بالسند في 7 / 230، وانظر 18 / 147 وقارن السند بسابقه، و 24 / 221 «فما سألني عني شيء» وهي عن، و 10 / 180 ثم 12 / 156 وقارن بينهما في نسبة الشعر إلى حزن، و 5 / 7 خلل في النص والرواية، و 21 / 230 السهري ثم 233 السري.

وانظر حواشي 3 / 304، 6 / 99 و 153، 10 / 269 (الياء تعود إلى ابراهيم الموصلي جد حماد وهو يروي كتاب أبيه إسحق)، و 17 / 216.

(91) ومن الملاحظ أن معظم هذه المواطن قد وقعت في الأجزاء الأولى (1 ـ 16) إذ اعتمد في تحقيقها على عدد محدود من أصول الكتاب الخطية مما كان متوفرا في دار الكتب إذ ذاك، وقد ظهرت للكتاب بعد ذلك أصول كثيرة جدا ذكر منها بروكلمان 3 / 69 وسزكين 1 / 615 ـ 616 عددا وافرا، مما يمكن الاعتماد عليه في إعادة تحقيق الكتاب وطبعه.

المصادر والمراجع

- أدب الغرباء : لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين (ـ بعد 362 هـ)، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ط. 1. بيروت 1973.

- إدراك الأماني من كتاب الأغاني : لعبد القادر السلوي الفاسي (من رجال المغرب في ق 12 هـ)، مخطوطة الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 2076.

- الأغاني : لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين (ـ بعد 362 هـ)، ط دار الكتب المصرية 1927 ـ 1974، وط بولاق : مصر 1285 هـ ودار الثقافة : بيروت 1973.

- إنباه الرواة على أنباه النحاة : للقفطي جمال الدين علي بن يوسف (ـ 646 هـ)، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، ط. 1. دار الكتب المصرية 1952.

- تاريخ الأدب العربي : لكارل بروكلمان (ـ 1956 م)، ترجمة النجار، ط. 3 القاهرة 1974.

- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي أحمد بن علي (ـ 463 هـ) ط. 1. مكتبة الخانجي، القاهرة 1931.

- تاريخ التراث العربي : د. محمد فؤاد سزكين، ترجمة فهمي وأبي الفضل، القاهرة 1977.

- تجريد الأغاني من المثالث والمثاني : لابن واصل الحموي (ـ 697 هـ)، تحقيق طه حسين والأبياري مصر 1955.

- التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه : للبكري الأندلسي أبي عبد الله بن عبد العزيز (ـ 487 هـ)، بتصحيح محمد عبد الجواد الأصمعي، ط. 3، مصر 1954.

- الحلة السيراء : لابن الأبار الأندلسي (ـ 658 هـ)، تحقيق حسين مؤنس ط. مصر 1963.

- حلية المحاضرة : للحاتمي محمد بن المظفر (ـ 388 هـ)، تحقيق د. جعفر الكتاني، ط. 1. بغداد 1979.

- دراسة في مصادر الأدب العربي : د. طاهر مكي، ط 3، دار المعارف بمصر 1968.

- فوات الوفيات : لابن شاكر الكتبي (ـ 764 هـ)، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1974.
- كتاب الحلة السيراء : لابن الأبار، دراسة وتحقيق د. عبد الله الطباع، بيروت 1962.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة كاتب شلبي (ـ 1067) ط. وكالة المعارف ـ الهند ـ (مصورة).
- الكوكب الثاقب في أخبار الشعراء من ذوي المناقب : لعبد القادر السلوي، مخطوطه الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 2077.
- مختار الأغاني في الأخبار والتهاني : لابن منظور محمد بن المكرم (ـ 711 هـ)، تحقيق الأبياري، القاهرة 1965، ثم نشر زهير الشاويش، بيروت.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان : لليافعي عبد الله بن مسعد (868 هـ) ط. 1. حيدر أباد ـ الهند ـ 1338 هـ.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي (ـ 626 هـ)، تحقيق الرفاعي، دار المأمون، ط. القاهرة 1936 ـ 1938.
- مفتاح السعادة : لطاش كبري زاده (ـ 968 هـ)، حيدر أباد، الهند، ط. 1328 هـ.
- مقاتل الطالبيين : لأبي الفرج الأصبهاني، تحقيق أحمد صقر ـ القاهرة 1949.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : لابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (ـ 597 هـ)، ط. حيدر أباد، الهند 1358 هـ.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء : لحازم القرطاجني (ـ 684 هـ)، بتحقيق محمد الحبيب بلخوجة، تونس ط. 1966.
- مقدمة ابن خلدون : (ـ 808 هـ) ط. 2 ـ دار الكتاب، بيروت 1961.
- مجلة التراث العربي : اتحاد الكتاب العرب، دمشق ـ ع 7 ـ 1982.

م. خ. ش. م

الإعلام الثقافي

الصرح الثقافي الحضاري المشترك (●) بين العرب والأفارقة

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحبة السمو الملكي

حضرة السيد الرئيس ليوبولد سيدار سنغور

حضرات السيدات والسادة.

أود أن لاتكون بداية كلمتي هذه عبارة عن كلمات الترحيب التقليدية كلما انعقد جمع يضم الأشقاء والأصدقاء. ولكنني أريد أن أقول إن المغرب وهو يضم هذا الجمع الكريم للمنتدى العربي الإفريقي. يشد بحرارة وقوة على يد كل الإخوة الذين أتوا ليسهموا في بناء الصرح الثقافي الحضاري المشترك بين العرب والأفارقة. فمرحبا بكم في وطن التفاهم المبني على وحدة الفكر. مرحبا بكم في وطن ظل عبر تاريخه

(●) نص الخطاب الذي افتتح به الدكتور سعيد ابن البشير. وزير الشؤون الثقافية الجلسة الافتتاحية لأعمال مجلس أمناء المنتدى الثقافي العربي - الافريقي الذي عقد بالمغرب من 16 الى 18 يونيوز 1983. بحضور الرئيس ليوپولد سيدار سنغور. الرئيس المشارك للمنتدى. وعدة شخصيات فكرية واقتصادية عربية وافريقية.

الطويل المجيد متمسكا بأصالته التي أخذ عناصر القيم الروحية والوطنية فيها من الثقافة العربية الإفريقية، وظل في نفس الوقت متفتحا على الثقافات الأخرى، مسهما بذلك - أخذا وعطاء - في بناء الحضارة الإنسانية.

فتحية أخوية إليكم من الفكر المغربي الذي يعانق في تفاهم بناء الفكر العربي الإفريقي الأصيل.

وإننا ونحن نوجه التحية إلى هذا اللقاء نعتز بأن يضم شخصيات مرموقة في عالم الفكر والفن نذكر في طليعتهم السيد الرئيس ليوبولد سيدار سنغور، الذي كرس حياته لإبراز الشخصية الثقافية الإفريقية المتميزة وسمو الأميرة وجدان التي نعرف مدى الخدمات الجليلة التي تؤديها للفن العربي بصفة خاصة.

حضرات السيدات والسادة

إذا كان تقدم الشعوب يقاس بمدى وعيها الثقافي وعمقه في وسط الأمة، فإن العلاقات بين الأمم لا تقاس فقط بمبادلاتها التجارية والصناعية ولكنها تقاس أساسا بما هو ثابت في العلاقات الإنسانية ألا وهو الاتصال الفكري والثقافي الذي ينمي معرفة الشعوب ببعضها فتنشأ تبعا لذلك صلات التفاهم والتعاون. وإذا كان الحب وليد المعرفة فإن تعزيز الاتصال الفكري والثقافي بين الأمم لا يزيد التفاهم إلا قوة ومتانة.

حضرات السيدات والسادة

إننا نعيش في العالم، في آخر هذا القرن، منعطفا حضاريا يتسم بسوء التوازن الاقتصادي بين مختلف جهات العالم، وقد نشأت عن هذا

الوضع فكرة النظام الاقتصادي العالمي الجديد الذي يراد به إقرار عدالة اقتصادية في التبادل التجاري، وفي نشر المعرفة التكنولوجية التي تساعد على تطوير الصناعة والفلاحة والتجارة.

ومع كل الأهمية المعطاة للمجال الاقتصادي، فإن شخصية شعوب العالم الثالث والدول العربية والإفريقية بصفة خاصة، لن تستيطع أن تتميز وأن تأخذ مكانة لائقة في العلاقات الدولية إلا باستقلال الفكر وأصالة الثقافة، بل ولن نستطيع ان نحقق أي تقدم اقتصادي واجتماعي إلا بتعميق ثقافتنا وتنميتها بإعطائها ديناميكية دائمة، وان الوسائل الجبارة التي تستعمل اليوم لنشر الثقافات تجعل ثقافتنا العربية الإفريقية معرضة لمخاطر تطرح قضية الأمن الثقافي بصفة ملحة.

وليس غير الحصن الثقافي أي وسيلة أخرى نستطيع بها أن نحمي استقلالنا ونحصن سيادتنا ونفرض احترام قرارنا السياسي واختيارنا الاقتصادي ونصون شخصيتنا المتميزة. وان العنصر الثقافي يكون الأداة الفاعلة التي تصمد في وجه حملات الغزو بشتى أشكاله والغارات الإيديولوجية والإعلامية التي تحاول تشويه تراثنا والتشكيك في مقاوماتنا وقدراتنا، كما تبث البلبلة في عقول شبابنا وناشئتنا فتضيع علينا فرصة الاستفادة من رأسمالنا الحضاري وقيمنا الثقافية.

ولقد دلتنا شواهد التاريخ وعلمتنا تجارب الأحداث أن التحكم في المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لشعب ما لا يستتب إلا بالتحكم في اتجاهه الثقافي بقطعه عن جذوره الحضارية الأصيلة. وعلى العكس من ذلك فإن الوعي بالثقافة الأصيلة كلما نما في شعور وممارسة أمة من الأمم وترعرع في وجدانها، إلا كان خير ضامن لسيادتها وخير

حارس لقيمها وحضارتها في حاضرها ومستقبلها، وكان أقوى من غيره على تكسير طوق التحكم وتحطيم أغلال السيطرة والتبعية. وهذا ما فطن إليه قادة الفكر والتحرر الوطني ورجالات النهضة والإصلاح في بلادنا العربية الإفريقية. ولذلك فقد استعملوا وسيلة الفكر والثقافة والإصلاح الاجتماعي قبل استعمال وسيلة السلاح المادي.

حضرات السيدات والسادة

إن أي مفهوم للأمن الثقافي لا بد أن يرتكز على أساسين :

حماية رصيدنا الثقافي أولا وتنميته وتأمين مستقبله ثانيا. أما الأساس الأول فهو يعني أننا حملنا مشعل الحضارة فبددنا ظلام الإنسانية في عصور سادها الجهل وسيطرت عليها العبودية فأحللنا العقل والعلم أرفع مكان، وجعلنا الضمير الأخلاقي قانون المعاملة ولا حاجة إلى التذكير بإسهامنا غير المتواضع في الحضارة الإنسانية.

فعلينا إذن أن نصون تراثنا الحضاري الثقافي وأن نتعرف عليه أكثر فأكثر ثم نعرف به. فهو سبيل المحافظة على الهوية الثقافية والشخصية الحضارية.

ولبلوغ هذه الغاية لا بد من الاستعانة بأحدث التقنيات واكتساب المهارة والخبرة لنشر الثقافة الإفريقية العربية والتعرف إلى الاتجاهات الثقافية الأخرى للتعامل معها بما يقتضيه الحوار الحضاري. إلا أن الحوار وهذا أمر أساسي يستلزم التكافؤ في الثقافات المتحاورة وإلا فإن ضعيف الشخصية الثقافية يذوب وينصهر في شخصية القوي فيحصل الاستلاب الفكري والاقتلاع من الجذور الثقافية فيؤدي كل هذا إلى الموت الحضاري.

ولا شك أن تضافر الجهود العربية الإفريقية بما فيها مجهودات المؤسسات الحكومية والجمعيات غير الحكومية ـ وهذا شأن المنتدى العربي الإفريقي ـ مما يساعد على بلورة شخصيتنا الثقافية وإبراز القاسم الحضاري المشترك وإقامة الحوار مع الشمال إقتصاديا وثقافيا على أسس متينة.

أما الأساس الثاني فهو يعني أن الثقافة في مفهوم الحضارات القديمة والحديثة تكون عماد كل نهضة اقتصادية واجتماعية. ولذلك فإن كل ما نقوم به من أجل تنمية ثقافية يعد عاملا أساسيا في التنمية الشمولية.

فنحن إذن مدعوون في عالمنا الإفريقي العربي حكومات وشعوبا جماعات وأفرادا إلى تجديد مفهومنا للثقافة وإدراجها في العلاقات الدولية كبعد رابع إلى جانب القطاعات السياسية والاقتصادية والعسكرية.

وان كل تخطيط سياسي أو اقتصادي واجتماعي لا يراعى العامل الثقافي مآله الفشل. ولقد تميزت ثقافتنا عبر العصور بكونها ثقافة قابلة للتطور والتجديد وكانت ولا تزال متفتحة على ثقافات الشعوب الأخرى، تأخذ وتعطي.

وانه لا يكفي لتحقيق الأمن الثقافي أن نقف عند حدود المحافظة على هويتنا وتراثنا بل لابد أن نتجاوز ذلك إلى تنمية هذا الرصيد وأن نفتح عيون أطفالنا على ثقافة تقوم على تعزيز ما هو أصيل وثابت وتراعي التطور التكنولوجي فيما هو متحرك متجدد مساير للتقدم الفكري والمادي للإنسان.

إننا مطالبون ـ حضرات السيدات والسادة ـ بالإسهام في صنع الفكر العالمي المعاصر وليس بالإطلاع عليه والاستفادة منه وحسب، وان الاستفادة من التقدم الحضاري للعالم تعنى الهضم والتحكم في التقنيات والثقافات الحديثة لا مجرد نقلها من بيئة أخرى وإلصاقها بمجتمعاتنا والذوبان فيها.

وهكذا يصبح التعامل الثقافي الدولي فعلا عاملا من عوامل التفاهم والرقي والحضارة لكل الأمم. إنها عملية توفيق وانسجام بين ما يستجد من فكر وثقافة وتقنيات في العالم وبين الهوية الثقافية الوطنية. أليست الحضارة الإنسانية هذا التنوع الثقافي في وحدة الأهداف الإنسانية النبيلة ؟

وإننا نذكر باعتزاز ما عبر عنه جلالة الملك **الحسن الثاني**، أيده الله، وهو المثقف المشارك المتفتح، في أكثر من مناسبة عندما أكد على ضرورة صيانة الهوية الثقافية وتجنب ما يؤدي إلى التشويه والمسخ في الشخصية الحضارية مع العمل على مسايرة الركب الحضاري الإنساني وضم الاستفادة إلى الإسهام والمشاركة.

فلننطلق ثقافيا بروح وطنية متفتحة واني إذ أشكر المنتدى العربي الإفريقي على إسهامه الإيجابي في الحوار الثقافي الإنساني بدراسته لمواضيع وقضايا تشغل بال الإنسان المعاصر، أتوجه بالشكر إلى كل الذين اسهموا في إعداد اجتماع المجلس الإداري للمنتدى العربي الإفريقي الذي نرجو له كل التوفيق وأخص بالذكر جمعية المحيط الثقافية. والله الموفق إلى أقوم السبل والسلام عليكم ورحمة الله.

د. سعيد ابن البشير

حول الأسبوع الثقافي التونسي (●) بالمغرب الشقيق

بقلم : البشير بن سلامة
وزير الثقافة التونسي

التأم في المغرب الشقيق أسبوع ثقافي تونسي من 14 إلى 20 مارس 1983 واحتوى على عدة نشاطات ثقافية (مسرح، سينما، فنون شعبية، معارض للفنون التشكيلية والكتاب) لم تقتصر على مدينة واحدة بل امتدت إلى عدة مدن مغربية مثل الرباط، الدار البيضاء، تطوان، سلا، مراكش وشفشاون وغيرها.

وكان هذا السعي إلى التعريف بالثقافة التونسية بهذه الصورة الشمولية التي جعلت إخواننا المغاربة يعيشون طيلة أسبوع كامل مظاهر الإبداع التونسي، من صميم الأريحية المغربية ويتنزل في صلب ما عرف به أهل المغرب الشقيق من كرم وحسن شمائل وطيبة معشر وأصالة مكينة.

وإذا كان النجاح الذي لقيه هذا الأسبوع عظيما في المغرب فإن ذلك يرجع إلى العناية الكبيرة التي لقيها الوفد التونسي من الحكومة

(●) عن مجلة «الفكر» التونسية السنة 28 العدد 7 أفريل 1983.

المغربية وخاصة من الدكتور سعيد ابن البشير وزير الشؤون الثقافية بالمغرب الشقيق المعروف بحزمه وجده وكفاءته ودماثة أخلاقه والذي لم يأل جهدا هو وأعضاؤه لتوفير كل الوسائل الكفيلة بنجاح الأسبوع وجعل المحادثات تفضي إلى نتائج إيجابية وعملية.

وإن ما يطيب للمرء أن يسجله بكل اعتزاز أن هذا الجو المنعش الذي حف بالأسبوع الثقافي التونسي من قبل الأشقاء المغاربة لم يكن مرده فقط إلى العناية الرسمية بل إن ما لقيناه من أصدقائنا الوزراء ومن رجال الثقافة ومن الأدباء أعطى لهذه الزيارة رونقا وبهجة أحس بها كل أعضاء الوفد التونسي. وإن القلم ليهفو إلى ذكر هؤلاء الأصدقاء والإخوة الذين لم يفارقونا بالرفقة الطيبة أو السؤال عنا أو تتبع أخبارنا دقيقة دقيقة. ولكن نخشى على أنفسنا من ضيق المقام لتعداد أسمائهم كلهم ونقول لهم إننا لن ننسى ولو واحدا منهم وسنظل نذكرهم ذكرا يقوي اللحمة ويذكي العشرة.

ولا يخفى على أحد أهمية هذه الأسابيع الثقافية التي وإن هي اقتصرت على مدة زمنية معينة فإنها فرصة لتقريب الثقافتين وشد الأواصر وإذكاء الشعور بوحدة المصير ومراجعة النفس وتلاقح الأفكار وتبادل التجارب علما بأن أي ثقافة وأي لون من الثقافة لا يزكو ولا يشتد عوده وتمتد فروعه إلا بتجاوزه حدود نشأته. وهذا يصح بالنسبة إلى الثقافة التونسية كما يصح بالنسبة إلى الثقافة المغربية وغيرها من الثقافات ولا يقتصر الأمر ـ كما عهدنا ذلك عند الدول ـ على العمل على إشعاع ثقافة البلد والسعي بكل الوسائل إلى التقليل من شأن ثقافة البلد الآخر بل إن

الشأن يدعو الآن إلى تضافر الجهود كلها والعمل المشترك من أجل نشر الثقافة المقابلة. ذلك أن فكرة التوسع الثقافي مثل التوسع السياسي والجغرافي يحسبها البعض غنما كبيرا كما ذهب في خلد بعض القادة العرب في السابق وثلة من أدعياء الثقافة ولكنها تعود في آخر الأمر بالوبال على ثقافة البلد نفسه فيتقوقع ويأخذه الزهو وينزل مستوى إنتاجه بالقدر الذي يرتفع به مستوى ثقافة البلد المقابل. ولا أريد أن اعدد الأمثلة فهي كثيرة سواء في العالم العربي أو غيره.

وإن أفضل ما يعطى من مثال في هذا الباب هو ما كانت عليه الثقافة العربية الإسلامية في القديم إذ لم يكن هناك حدود تحد من انتشارها في بلد عربي دون آخر فكان الكتاب ينتقل بدون حواجز وكانت الخبرات الثقافية والعلمية من معمار وطب وغيرهما لا تعرف الحدود. وبذلك ازدهرت الثقافة العربية في العصور المعروفة ونمت فروعها على امتداد القرون.

ومن حسن الحظ أن هذا التمشي كان هو الخيط المسير للمحادثات الثقافية التونسية ـ المغربية، وأن الدكتور سعيد ابن البشير وزير الثقافة المغربي من المؤمنين بهذا التوجه والعاملين من أجله فكان البلاغ المشترك ينم على هذا المنحى الجديد في السياسة الثقافية بين البلدين وأن كل الطاقات جندت للوصول إلى هذه الغاية أي عدم الاقتصار على الأسابيع الثقافية التي لا بد منها ولكن تجاوزها بالعمل اليومي الدائب لتكسير الحدود الثقافية وجعل الكتاب التونسي والمغربي حاضرين في كلا البلدين من دون عراقيل وكذلك بالنسبة إلى الفرق المسرحية والموسيقية ومعارض الفن والمثقفين أنفسهم.

ولهذا فعلاوة على العزيمة على تطبيق برنامج التبادل الثقافي الذي تم توقيعه بين وزيري الثقافة المغربي والتونسي خلال سنة 1982 فإن تدا بير جد يدة اتخذت ونص على البعض منها البلاغ المشترك.

ففي مجال النشر والطبع وترويج الكتاب تم الاتفاق على وضع خطة لإحداث را بطة للناشرين المغاربة والتونسيين والعمل على نشر كتب التراث والمؤلفات التي من شأنها أن تبرز الجوانب الحضارية المختلفة للأمة العربية والإسلامية على العموم وجوانب الترا بط الفكري والتاريخي بين المغرب وتونس على الخصوص.

كما تم الاتفاق على إحداث مكتبة مغربية بتونس وأخرى تونسية بالمغرب تشتمل كل منهما على سائر المطبوعات والوثائق والفهارس التي تعرف بمختلف الميادين المتعلقة بالبلد الآخر على أن يدير محافظ مغربي المكتبة التونسية بالمغرب ومحافظ تونسي المكتبة المغربية بتونس.

واتفق الجانبان كذلك على ضبط خطة عملية لترويج الكتاب المغربي بتونس والكتاب التونسي في المغرب إسهاما في التعريف بالحركة الفكرية للبلدين.

وفي مجال الآثار والمتاحف يتم تبادل الخبراء والفنيين وزيارة المسؤولين للاستفادة من الخبرة والتجارب المشتركة وإنجاز مشاريع موحدة سواء في ميدان الحفريات أو المباني التاريخية أو صيانة التراث وجرده أو مجال المخطوطات أو تعميق البحث النظري وفي هذا الإطار تم الاتفاق على تبادل الخبرة والتعاون من أجل الإسهام في مشروع إنقاذ

مدينة فاس ومشروع صيانة القيروان باعتبارهما نتاج حضارة مشتركة وعبقرية موحدة وشاهدين من شواهد التاريخ العربي والإسلامي والإنساني عامة.

وكذلك تم في ميادين المسرح والفن التشكيلي والموسيقي ضبط برنامج مفصل للتعاون والتبادل خلال السنتين المقبلتين 1983 ـ 1984 سواء بتكثيف اللقاءات أو تبادل الخبراء والمدربين والمهتمين أو الوثائق والمعلومات والبرامج.

أما في ميدان السينما فقد اتفق الجانبان على تشجيع التعاون والتبادل وذلك بإبرام اتفاقية للإنتاج المشترك وتوريد الأفلام.

وفي ميدان التنشيط والتوثيق الثقافيين تم الاتفاق على تبادل جميع الوثائق والبرامج والمعلومات والنصوص التشريعية وكل ما يتعلق بالوسائل الحديثة للتنشيط والتنمية الثقافيين وكذا الوسائل العلمية لإحصاء المعلومات الثقافية وجردها وتيسير الحصول عليها.

وبهذه الصورة وبتذليل كل الصعوبات التي ستنشأ عن تطبيق هذا الاتفاق باعتبار أن تنفيذ هذه الخطة يهم كل الوزارات في كلا البلدين وخاصة الاقتصادية والمالية منها نكون قد خرجنا من التقوقع الذي ران على ثقافتنا منذ الاستقلال ونكون قد فتحنا عهدا جديدا لبلدان المغرب العربي في المجال الثقافي ومهدنا إلى نوع جديد من التبادل مع المشرق العربي.

البشير بن سلامة

العقيدة الاسلامية واللغة العربية هما عنصرا الوحدة الوطنية في المغرب

من 13 إلى 26 أبريل 1983، نظمت وزارة الشؤون الثقافية أسبوعين ثقافيين بدولة قطر وسلطنة عمان، أقيمت خلالهما عدة ندوات ومحاضرات ومعارض للكتب والتشكيل، وعروض مسرحية وموسيقية وسينمائية.

واهتمت الصحافة في الدولتين الشقيقتين بهذه التظاهرة الفنية الكبيرة، فنشرت عدة مقالات عن المغرب وحضارته، وتراثه الفكري والثقافي، كما أجرت العديد من هذه الصحف مقابلات مطولة مع الدكتور سعيد ابن البشير وزير الشؤون الثقافية عن الثقافة المغربية المعاصرة والدور الذي تضطلع به وزارة الشؤون الثقافية في دعم الثقافة الوطنية.

وفيما يلي حديث شامل للدكتور سعيد ابن البشير خص به جريدة «الراية» القطرية بتاريخ 14 أبريل 1983 وقد أجرى هذه المقابلة السيد صلاح الدين حافظ رئيس تحرير جريدة «الراية».

● معالي الوزير اسمح لنا أن نطرق الباب مباشرة ونسالك... هل أمتنا العربية حقا في أزمة ثقافية وفكرية... ولماذا ؟

● ● الدكتور سعيد ابن البشير : أعتقد أن هذه الأزمة يمكن تحديدها بمحورين :

المحور الأول هو أن الثقافة العربية كانت منحصرة في فئة معينة من المجتمع، في ما نسميه بالنخبة، ويؤكد التاريخ لنا وليس هذا صحيحا بالنسبة للأمة العربية فحسب، ولكن بالنسبة لكل حضارات الدنيا. يؤكد أن الأمة التي تحقق تقدما فعليا في المجتمع، وتحقق تركيز حضارتها في المجتمع، هي التي تجعل من الثقافة حقا للجميع، بل ينبغي أن أقول واجبا على الجميع.. لأن النخبة هي بمثابة قاطرة بالنسبة للمجتمع، والعربات هي ليست عربات جامدة ولكنها فاعلة تتأثر بالقاطرة طبعا ولكنها تنفعل معها، ولذلك فإذا كانت هذه العربات غير واعية وغير مثقفة فلن تستطيع القاطرة مهما كانت قوتها أن تجر هذه العربات وأن تقودها في اتجاه معين... ولنا بعض الأمثلة في التاريخ الحديث تؤكد ذلك.. مثلا في بداية القرن عندما عشنا ما يمكن أن نسميه نهضة فكرية وأدبية، هذه النهضة لم تشمل المجتمع العربي برمته، وإنما انحصرت في فئة معينة وأعطت عباقرة ليسوا في مستوى العالم العربي فقط، ولكنهم في مستوى الثقافة العالمية، ونعتز بهم ونفتخر.. هذه حقيقة.، ولكن وياللأسف لم ينفذ فكرهم ولم يصل فكرهم ونقاشهم والقضايا الحضارية والثقافية إلى المجتمع بشكل قوي.. ففارق كثير منهم الحياة ولم يتحقق هذا التواصل بين النخبة الفكرية الموجهة والمجتمع.

وهل تتحقق في أي مجتمع ثورة اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية دون أن يتأثر بها المجتمع ؟

هذا في رأيي الجانب الأول من الأزمة.. الانفصام الذي حصل في المجتمع العربي بين المفكرين والنخبة من جهة وبين المجتمع.. فظلت

النخبة إذن تعيش في مستوى عال من الثقافة، ولكن المجتمع في غيبة عن هذا الفكر وهذه الحركة الثقافية والحضارية..

إذن الثقافة أخذت تدور في مجتمع صغير منحصر جدا ولم تصل إلى المجتمع الكبير.

التنمية الثقافية أولا

والجانب الثاني من النقطة الأولى هو إذا علمنا أن التنمية بمفهومها الشمولي لا يمكن أن تتحقق إلا على أساس التنمية الثقافية، فهمنا لماذا ظلت المجتمعات العربية متأخرة.. وكما قلت في البداية التاريخ يؤكد ذلك بالنسبة لمجتمعنا العربي وبالنسبة لمجتمعات أخرى

وفي النهاية أضعنا جزءا من ثقافتنا وحضارتنا لأنها لم تصل بالطرق العلمية إلى المجتمع، ولم نستطع أن نحقق تنمية شمولية حقيقية، لأن المجال الثقافي كان ضعيفا في هذه التنمية، وربما كان يعتقد البعض أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية تتحقق عن طريق الصناعة والتجارة.. ولكن هذا غير صحيح إطلاقا.. لا يمكن أن نحقق التنمية إلا بالارتقاء الثقافي للإنسان، وهذه حقيقة ثابتة.. ولنأخذها من حضارتنا العربية الإسلامية..

لماذا نبحث عن هذه الحقيقة عند الحضارات الأخرى ؟!!

الحضارة العربية الإسلامية جعلت من الثقافة واجبا على كل مواطن، لأنها علمتنا أن تنمية المجتمع في شتى مجالات الحياة لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق الثقافة، إذن في نظري هذا هو الجانب الأول من الأزمة الثقافية، أي أن الثقافة انحصرت في نخبة محدودة.

الجانب الثاني وربما كان نتيجة للجانب الأول، هو أن هذا الفراغ الجزئي - على الأقل - الذي لاحظناه في المجتمع العربي، حاول الغير أن يملأه.. وقد امتلأ بالفعل تدريجيا وبشتى الطرق بالكتاب والمجلة والصحف وبالترانزستور ثم بالتليفزيون..

الكتاب والمجلة والصحيفة قد لا تصل إلى عموم الناس.. ولكن الترانزستور والتلفزيون يصلان إلى كل الناس.. إذن ما لا يقرأ يسمع ويشاهد.. ولذلك فإن مجتمعنا العربي أخذ يمتص ويهضم تدريجيا حضارات أخرى ظهرت له من خلال الفيلم والفن التشكيلي وفي المناقشات التي تجرى في الإذاعة والتليفزيون.. وعوام الناس قد لا يفهمون كل شيء من هذه الفنون والدراسات التي تقدم، ولكنهم يفهمون بعضها على الأقل.

فالفراغ الثقافي ملأه إذن الغير ووصل هذا إلى معاهدنا وجامعاتنا حيث تأثرنا بالحضارة الغربية لا في مجال العلوم البحتة والتجريبية، ولكن أيضا في مجال العلوم الإنسانية.. ونحن نتأثر جدا بهذه العلوم ونؤثر في طلبتنا حين تدريسها في المعاهد والجامعات والمدارس.

وأود قبل أن نستمر في هذه النقطة أن اقول، وحتى تكون الأشياء واضحة في حوارنا.. أنني لا أقصد من هذا الابتعاد من الحضارات الأخرى... أبدا... الحضارة والثقافة التي لا تنفتح على الثقافات الأخرى، ثقافة تموت.. فإذن أود أن أؤكد أن ثقافتنا العربية الأصيلة ينبغي أن تكون متفتحة، ولكن التفتح لا يعني الانصهار والاندماج، والذوبان في الغير.. التفتح يعني الحصول على عناصر الثقافات الأخرى التي تمكننا

من الحوار.. وحوار الثقافات لا يعني الذوبان، ولكن يعني الوجود بالدرجة الأولى، فلا يمكن أن نحاور الغير ونحن غير موجودين..

تعريب اللغة العربية

والذي أخذنا نلاحظه إذن أننا حاولنا ما أمكن أن نحافظ على اللغة العربية كإحدى المقومات الثقافية والحضارية ولكن هل حافظنا على المقومات الحضارية داخل هذه اللغة ؟!

إن صح هذا التعبير واعتذر عنه سلفا إذا كان مفاجئا أو قاسيا.. ربما كان من الواجب أن نقول اليوم أنه ينبغي علينا أن نعرب اللغة العربية.. أقصد أن نعربها حضاريا.. فنحن في كثير من المجتمعات العربية نستعمل الحرف والكلمة العربية في حديثنا اليومي والخطاب العلمي.. ولكن الخطاب الثقافي لا يمر عبر هذه الكلمات.. وتصبح الكلمة العربية مجرد وعاء يحتوي المضامين الحضارية الأجنبية الغريبة عنا.. ونصل إلى تمزق لهذه اللغة لأن الكلمة، أي كلمة في أية لغة تنعدم فيها الصفة الحيادية، لا نتصور أي كلمة في أي لغة إلا وهي وعاء من جهة، ولكنه وعاء يحتوي على العناصر الحضارية التي تريد الكلمة أن تعبر عنها.

هناك إذن عنصران متداخلان لا يمكن فصلهما وهما العنصر الشكلي في اللغة والمضمون الحضاري للغة.. فكيف إذن فصلنا إلى حد المضامين الحضارية عن اللغة التي نعبر بها ؟!.. قد يقال نعود إلى الماضي.. قد يقال الأصالة تعني العودة إلى التاريخ..

الأصالة.. والحضارات الحديثة

● وهل هذا صحيح كعلاج ؟!

●● الدكتور سعيد ابن البشير : لا.. اللغة كائن حي وعندما نتحدث عن اللغة فإنما نتحدث عن الثقافة والحضارة.. الكائن الحي يأخذ نشأته من الماضي.. هذا صحيح، فهذا هو الجانب التراثي في الموضوع، ولكن حياته مستمرة اليوم وستستمر غدا ولن تموت، لأن اللغة موجودة بوجود العالم، ولذلك لا يمكن أن نفصل الماضي أي التراث القديم عن حاضرنا، كما لا يمكن أن نفصل هذا الحاضر عن المستقبل.

هذه العناصر متصلة بعضها ببعض ولذلك عندما نتحدث عن الأصالة فإننا نتحدث عن الأصالة في الفكرة والثقافة، أي عن الاستقلال الثقافي الذي نستطيع به أن نكون.

ولا شك أن الثقافة العربية الإسلامية لم تستطع أن تفرض نفسها على العالم إلا عندما كانت مستقلة وواسعة النطاق أي شاملة للمجتمع، ومتفتحة على الغير، فإذن هذه العملية عملية الحوار بين الثقافات، تمت بالفعل ولكن عن طريقة لغة مستقلة قائمة بذاتها وصلت إلى درجة أنها أكسبت الطفل والشاب والكهل المناعة الثقافية التي تمكنه من عدم الذوبان في الغير، فظل العربي إذن مستقلا بنفسه ثقافيا، بل على العكس استطاع أن يأخذ من الغير وأن يعطيه أيضا.

جملة القول أننا إذا اتفقنا على هذه المعطيات.. معطيات الأزمة، إذا استطعنا أن نضمن توسيع الشبكة الثقافية للمجتمع كله، حتى تستطيع الثقافة أن تصل بالوسائل القديمة والحديثة على السواء إلى كل أفراد

المجتمع، وإذا استطعنا أن نحافظ على مقوماتنا الفكرية والحضارية فإننا سنكون قد اعددنا جيل 2000 الذي يستطيع أن يواجه القرن الواحد والعشرين بشخصية مستقلة تستطيع أن تواجه الغير..

ولم لا نقول إننا نكون بهذا قد قدمنا أكبر هدية للعالم العربي بضمان أمنه الثقافي

مأزق الأجيال الجديدة

● معالي الوزير.. عند الحديث عن الجيل العربي الذي يعد الان لعام 2000، هناك من يرى أن هذا الجيل هو ضحية مأزق يعيشه مضيعا بين أصوله الثقافية العربية الإسلامية، بكل قيمها، وبين الحضارات المعاصرة بمعطياتها وقيمها الحديثة.. هل هذا صحيح من وجهة نظركم ؟

● ● الدكتور سعيد ابن البشير : لا شك أن الشباب بصفة خاصة، والمجتمع العربي بصفة عامة تأثر بالنهضة الصناعية وبالمستوى المادي للحضارة الغربية، ومن الأكيد أن الإنسان جسد وروح وأنه يتأثر بالجانب المادي كما يتأثر بالجانب الفكري.. ونقول إن توازن الإنسان يقتضي توازن العنصرين المكونين لشخصيته ولحياته.. ونكاد نقول إن هذا هو الذي يؤدي إلى التوازن البيولوجي والنفسي وبالتالي التوازن الاجتماعي.

وانبهار الشباب بهذا التطور في مجال العلوم جعله يتشكك في حضارته، وجعله يتساءل ألا ينبغي أن نتجه نحو الغرب، وأن نترك هذه الحضارة العربية التي لم تعطنا شيئا !!

ولكن حذاري أن نسير في هذا الاتجاه، لأن من واجبنا الأكيد أن نطور العلوم بما يضمن الوصول إلى هذه التقنيات الحديثة..

ولكن... هذه التقنيات وحدها ونعني هذا الجانب المادي في الحياة، لم يسعد الإنسان في الغرب.. كل الأزمات التي نلاحظها اليوم في أوروبا وأمريكا تدفع رجال الفكر والثقافة إلى وضع هذا السؤال، ما هو البديل لهذه الحضارة التقنية المادية التي في النهاية لم تسعد الإنسان ؟!

فلماذا إذن يطرح هذا السؤال في الغرب ولا يطرح في بلادنا ؟

لذلك أقول لا بد أن نهتم بهذا الجانب التقني العلمي، وأن ندرك كل هذه العلوم التي تسعد الإنسان ماديا وهذا لا ينكر.. ولكن ينبغي أن نظل متشبثين بمقوماتنا العربية الإسلامية الأصيلة التي تكون الجانب الثاني في الإنسان وتحافظ على توازنه في سلوكه الاجتماعي والخاص وفي تعامله مع الغير.

الأزمة التي أشرتم إليها لا تنكر ونحن نعيشها واضحة فلا يمكن أن ننكر المحسوس.. ولكن من واجبنا أن نحلل هذه الأزمة للبحث عن مصادرها وتقديم الحلول الناجعة لا بالنسبة لجزء منها، وهو المتعلق بالجانب المادي في الحياة، ولكن أيضا بالنسبة للجانب الآخر الذي أشرتم إليه وهو جانب القيم الروحية والخلقية.

المغرب.. جسر التواصل

● **يعرف المشرق العربي جيدا أن المغرب لعب تاريخيا دور جسر التواصل الذي حمل الرسالة العربية الإسلامية بحضارتها وثقافتها إلى أوروبا عبر الأندلس، وإلى افريقيا عابرا نهر السنغال.. وهذا دور**

حضاري تاريخي يحفظ للمغرب على مر الأجيال فكيف ترون دور المغرب الثقافي الحضاري الان ؟!

● ● الدكتور سعيد ابن البشير : تفضلتم فأشرتم إلى هذا الدور الذي لعبه المغرب في التاريخ والذي انعكس على جزء مهم في أوروبا وأفريقيا ولا يزال للآن.. ولقد كان هذا التأثير على جزء من أوروبا وأفريقيا نتيجة للوضع الجغرافي للمغرب.. فالمغرب يكاد يكون في أوروبا، وهو في قلب افريقيا.. بل هو المدخل لأفريقيا.. جذوره افريقية عربية وأغصان شجره تصل إلى أوروبا.. وطبيعي أن تشع الحضارة العربية من المغرب على افريقيا وأوروبا.. هذا الوضع الجغرافي، وإيمان المغاربة بضرورة التعامل مع افريقيا، ونحن جزء منها، ومع أوروبا وهي أمامنا تشاهد بالعين المجردة هذا دفع المغاربة إلى التفتح، لا في المجالات التجارية فحسب حيث كانت لنا فيها علاقات مع أفريقيا وأوروبا عبر القرون، ولكن أيضا في المجال الحضاري حيث استطعنا أن نقوم بدور الجناح الغربي للأمة العربية..

اليوم الوضع الجغرافي هو هو لم يتغير.. والمغرب لا يزال متفتحا على أوروبا.. ولقد أخذ منها الكثير.. فإذا رجعنا مثلا إلى نظامنا التعليمي وجدنا أن اللغة الأجنبية خاصة لغة المستعمر وهي الفرنسية بالدرجة الأولى واللغة الإسبانية في شمال بلادنا.. هذه اللغة لها مكانة في مدارسنا ومعاهدنا.. وبحكم هذا الوضع الجغرافي من جهة واللغوي من جهة ثانية ونحن متفتحون على أوروبا وأفريقيا.. المغرب يريد أن يستمر في رسالته ويريد أن يستمر فيها بتعزيز شخصيته الثقافية، وهذا ما دفعنا إلى

الاهتمام الكبير بقضية التعريب.. فتعليمنا يعرب لأننا لا نستطيع كما أسلفت أن نؤثر في الغير ونتحاور مع الثقافات الأخرى ونحن نذوب فيها...

هذا غير ممكن... وليس هذا من باب الانكماش على النفس... ولكن نريد أولا وقبل كل شيء أن نكون فعلا جزءا من الأمة العربية باللغة والحضارة.. هذا عنصر ثابت وأكيد في السياسة الثقافية. لذلك نقوم بعملية التعريب في التعليم الابتدائي، وهي عملية تتم هذه السنة. ونشرع في السنة المقبلة في الثانوي، ثم التعليم العالي بعد ذلك..

وأقول في هذا الصدد إن الأمر لا يتعلق إلا بالعلوم.. أما المواد الاجتماعية والأدبية فكلها معربة... كالآداب والفلسفة والاجتماع والحقوق والتاريخ. كل هذه العلوم الإنسانية معربة من الابتدائي إلى العالي...

المناعة الثقافية للأجيال

من جهة نريد أن نعزز جانبنا الثقافي والحضاري حتى تكون شخصيتنا الثقافية قوية، وحتى نعطي المناعة الثقافية لأجيالنا. وحتى يظل المغرب كما كان طوال تاريخه يبني الحصون العسكرية في مواجهة الخصوم... ويبني أيضا الحصون الثقافية وهي كثيرة.

حصوننا الثقافية هي المساجد والزوايا التي كانت تعطى بها الدروس. ونقول باصطلاح اليوم هي المكتبات ودور الثقافة. هي كل ما يتصل بالثقافة حتى يظل المغربي مغربيا... وبهذه المناعة وبهذه الحصون التي نثبت فيها دعائم الثقافة العربية الإسلامية. نستطيع أن نؤثر في الغير وأن نتفاعل معه.

هذا هو اتجاهنا فيما يتعلق بأوروبا وأفريقيا... ما زلنا نقدم إنتاجنا الفكري والحضاري لهما إما باللغة العربية وإما باللغات الأوروبية، وكثير من الأدباء والمفكرين المغاربة معروفين في أوروبا بالفعل، وما زلنا نقيم الصلات الثقافية مع افريقيا وهي صلات ناجحة، فكما ذكرتم في البداية فإن الإسلام انتشر في افريقيا عن طريق المغرب، ونحن الآن نقوم بهذا الدور بنشر الكتاب المغربي، وبنشر المقومات العربية الإسلامية عبر هذا الكتاب وعبر الأنشطة الثقافية التي نقوم بها في مختلف الدول الأفريقية..

طبعا لا نقول إن عملنا الثقافي اليوم في مستوى طموحنا... أبدا لا ندعي هذا... ولكننا نقوم بأكثر ما يمكننا أن نقوم به بوسائل محدودة على أساس أن نطور هذه الوسائل، حتى يصل الفكر العربي الإسلامي بكثافة وقوة إلى الدول الافريقية. ولقد نجحنا في ميدان مهم هو أن بعض الدول الافريقية الآن أخذت تدخل اللغة العربية في برامجها... وهذا أمر أساسي، فإذا ما تكاثفت الجهود بين المغرب والمشرق في هذا المجال... أعتقد أننا نستطيع أن نعطي للغة العربية في افريقيا مكانة مرموقة، وإذا اعطينا للغة هذه المكانة فسنعطي أيضا لحضارتنا مكانة قوية في قلب افريقيا.

بوتقة انصهار الثقافات

● معالي الوزير.. يلاحظ الكثيرون بإعجاب شديد أن المغرب كبيئة حضارية تمثل بوتقة الانصهار.. هناك مناهل متعددة للثقافات.. هناك بالطبع الحضارة العربية الإسلامية، إلى جانب التأثيرات القادمة من

أوروبا ومن الصحراء وافريقيا وكذلك جذور الثقافات القديمة مثل ثقافة البربر.. كيف استطاعت التجربة المغربية صهر كل هذه المناهل في مجرى واحد.. هو مجرى الثقافة المغربية المميز !؟

• • الدكتور سعيد ا بن البشير : سؤال في محله وهو وجيه فعلا... والدليل على سلامته أن الفرنسيين في عهد الاستعمار كانوا يسمون المغرب بالإمبراطورية، ولم يكن المغرب يسمى بالإمبراطورية عادة، فقد كانت المناهل الثقافية متعددة في مختلف الأقاليم المغربية، ولذلك اعتبر المستعمر الفرنسي أنه أمام مجموعات تكون إمبراطورية واحدة.. كيف استطاع المغرب أن يحقق وحدته بكل هذه العناصر الثقافية المختلفة الموحدة في نفس الوقت ؟

لا بد أن نذكر أن المغرب قبل البعث الإسلامي، كان عبارة عن قبائل متناحرة في غالب الأحيان، لا تجمعها إلا روابط قليلة منها رابطة الأرض.. ولكن الإسلام جاء ليوحد هذه القبائل، وهذه حقيقة تاريخية لا تنكر... وقد عاش المغرب من القرن الثاني الهجري إلى اليوم في ظل وحدة في الفكر والدين واللغة، قد تكون من الأشياء الفريدة والقليلة في العالم أجمع...

لأن المغرب كان فيه عرب وبربر.. واللهجات البربرية متعددة، وكانت القبائل تتحدث بلهجات مختلفة ولها عادات مختلفة، وما كان للوحدة أن تقوم إلا على أساس العقيدة وهي أعمق ما في الإنسان.. استطاع الإسلام إذن أن يوحد هذه الأمة، وبطبيعة الحال إذا كانت العقيدة الإسلامية قد لعبت هذا الدور في الوحدة الاجتماعية واللغوية والسياسية في البلاد فإن بعض المميزات الثقافية الخاصة بالأقاليم ظلت

قائمة، وهذا التميز لا نريد أن نقضي عليه بل نريد أن نظهر بكل هذه الثروة المتنوعة في وحدة فكرية قوية...

إذن اتجاهنا اللغوي هو الاتجاه العربي، اتجاهنا الثقافي الحضاري هو الاتجاه الإسلامي بحكم عمق العقيدة الإسلامية في المجتمع...

وأما مظاهر الحياة الاجتماعية فهي مظاهر تجدها فعلا متميزة من إقليم إلى إقليم، وهذا يعطي للوحة التي تمثل المغرب جمالا يحسد عليه أحيانا..

● هل هي لوحة فسيفساء ؟

● ● الدكتور سعيد ابن البشير : نعم.. قد تكون هذه لوحة بمثابة الفسيفساء التي نلاحظها في هندسة العمارة المغربية والتي تقدم ألوانا مختلفة، ولكن هذه الألوان - وأشكركم على هذا الإيحاء الجميل - منسجمة جدا وبديعة في شكلها العام.. فالألوان مختلفة ولكن وحدة اللوحة قائمة في جمال الانسجام..

● تعني التنوع في ظل الوحدة...

● ● الدكتور سعيد ابن البشير : تماما.. التنوع في ظل الوحدة..

بين الثقافة والسياسة

● استمرارا لنفس الاتجاه.. نلاحظ في المغرب أيضا أن حركة النشاط السياسي حركة غنية ومتنوعة . هناك الآن 13 حزبا في المغرب تشارك في الحياة السياسية... فما هو الدور الذي تلعبه الثقافة المغربية

في تكوين أدبيات هذه الأحزاب، لتربية النشء الجديد وتكوين قيادة المستقبل ؟

● ● الدكتور سعيد ابن البشير : الحركة السياسية في المغرب تعكس عمليا وواقعيا الاتجاه الطبيعي للفكر المغربي وهو فكر حر.. المغرب كدولة لا يقاد بالقوة، هذا ما أكده التاريخ في مختلف عصوره... وليس هذا من باب صعوبة التحكم في المغربي كإنسان، أبدا.. الإنسان المغربي ملتزم أخلاقيا لأنه ملتزم من جانب الحقيقة والحضارة، وهو إذن قابل للاتصال والحوار... والحوار مع المغربي بصفة عامة حوار سهل.. ولكن المغربي بصفة عامة أيضا إنسان حر، ولا يمكن أن يفرض على المغاربة أجمعين اتجاه واحد... إنما نستطيع القول هنا أيضا بأن المغاربة متفقون فيما يتعلق بالاتجاه العام.. هم مؤمنون بقيم ولكن وسائل الوصول إلى الغاية تختلف باختلاف الأحزاب.. فأعتقد أن الأمر لا يتعلق باختلاف في الجوهر.. فالاتفاق تام بالنسبة للمؤسسات والعقيدة واللغة.. ولكن الاختلاف في الوسائل فقط، ولهذا فإن الأحزاب تلعب دور «التأطير» ولأنها متقابلة فإنها تعطي إثراء للحياة الثقافية...

ويكفي أن نأخذ الصحف والمجلات الصادرة عن هذه الأحزاب وعن النقابات التابعة لها.. وعن الجمعيات الثقافية وهي كثيرة جدا، لنطلع على تأثير هذا التعدد على الحياة الفكرية في المغرب.. فهي حياة نشيطة وأستطيع أن أقول إن وزارة الشؤون الثقافية وهي المشرفة على هذا الجانب، تشجع نشاط الجمعيات الثقافية كيفما كانت انتماءاتها الثقافية.. ونقوم بذلك لأننا نعتقد أن في التنوع عطاء فكريا ووسيلة للحوار بين الناس، وإذا استطعنا أن ننظم هذا الحوار ونقيمه على أسس صحيحة،

لاستطعنا أن نصل إلى إحدى الغايات الثقافية النبيلة وهي الحوار العلمي الهادىء المتسامح... أي الحوار الذي يقبل فكر الغير، وهذا من العناصر الأساسية في حضارتنا العربية الإسلامية..

إذن التنوع مفيد للثقافة ونحن نشجع هذا التنوع الفكري...

التواصل الفكري القومي

● **كيف نمد خطوط التواصل الفكري والثقافي بين أقطارنا العربية جمعاء، لتصبح الثقافة هي الحجر الأساسي لبناء طموحنا.. ألا وهو بناء الوحدة العربية !؟**

● ● الدكتور سعيد ابن البشير ، هذا التواصل له جانبان : جانب الجوهر وهو الأساس، وجانب الوسائل فيما يتعلق بالوسائل أعتقد أن كل التحركات والجسور الثقافية التي نقيمها بين مختلف الدول العربية، ينبغي أن تساعد على تنظيم حركة المرور في الاتجاهين.

وهذه الجسور تساعد شبابنا العربي على الالتقاء والوقوف على هذا الجسر لإلقاء نظرة عامة من أعلى على الوطن العربي كله، وعلى الحوار بالنسبة لما يضمن إبقاء هذا الجسر الثقافي..

فالأسابيع الثقافية وتبادل المحاضرين والفنانين والأدباء.. يساعد رغم أنها قد تبدو مزعجة لأنها مكلفة ماليا، ولكن هذا بصراحة استثمار عظيم بالنسبة للمستقبل... وينبغي أن نشجع مثل هذه اللقاءات والتبادلات لأنه استثمار لعام 2000.

هناك عنصر أعتقد أنه أساسي هو تبادل الكتاب.. مشاكل الكتاب نعرفها جميعا، فهو مكلف وأكبر ما في هذه التكلفة هو جانب النقل، الذي يكلف أكثر حين ننقله من المغرب إلى المشرق والعكس..

ولكن كيفما كانت ظروفنا المادية يظل للكتاب مكانته التي لا تعوض في نظري بأي وسيلة من الوسائل الحديثة، وينبغي أن نحافظ عليها.. والكتاب بمثابة الخبز اليومي لا غنى عنه إطلاقا.. ولذلك يجب أن نعزز تبادل الكتاب، حتى يكون هذا الجسر قويا، وتكون الحركة عليه دائمة.. ذهابا وإيابا وهو يساعد على هذا كله..

ولذلك ينبغي أن يكون إنتاج الوطن العربي متواجدا في كل قطر.. مع الأسف لم نحقق هذا الهدف إلى اليوم.. واسمحوا لي أن اتكلم بصراحة أخوية فأقول إننا في المغرب نعيش هذا المشكل بشيء من المرارة.. ذلك أن الجسر قائم والحمد لله مع المشرق ولكن يبدو أن الحركة ليست متوازنة في هذا الجسر.. الكتاب العربي المشرقي يصل إلى المغرب بقوة وكثافة، يكفي أن تلقى نظرة على مكتباتنا الجامعية والتجارية لتلاحظ أن المشرق موجود في قلب المغرب.. في كل درب ومدينة وقرية ومنزل تجد المشرق العربي..

وعتابنا الأخوي لإخواننا في المشرق أن الكتاب المغربي لا يحظى بنفس المكانة في المكتبات المشرقية، ولذلك فإننا نصر دائما في الأسابيع الثقافية على أن نحضر معنا الكتاب المغربي ليطلع عليه إخواننا في المشرق ولتشجيعهم على اقتنائه..

طريقنا عربية إسلامية

وأيضا بالنسبة للتواصل الفكري.. يمكن أن نطور البرامج التلفزيونية كيف نشاء وأن نتبادل الأفلام والمحاضرين والفنانين، ولكن

كل هذا لا يرقى إلى مستوى الكتاب.. فهو ضيف قائم مقيم في البيت إلى نهاية حياتنا وهذا ما يكون العنصر الأساسي في التواصل.

من جانبنا نحرص أن يستمر هذا الاتصال مع إخواننا في المشرق، ونحاول أن نستفيد من التجربة الثقافية في المشرق لأنها هامة جدا، ولكن للفكر المغربي عطاء، لا بد أن يطلع عليه إخواننا في المشرق...

إذن هذه سبيلنا.. طريقنا واضحة، هي طريق عربية إسلامية ولا نريد بديلا لها، ولا يمكن أن يقبل المغاربة بديلا لهذا الاتجاه، ولا يمكن لأي اتجاه آخر أن يجد مكانه في المجتمع المغربي أبدا.. جذورنا أعمق من أن تقبل شيئا أجنبيا عنها..

نحن متفتحون على الثقافات الأخرى حيث تجد لدينا كتبا من كل أنحاء الدنيا.. من باب التفتح الثقافي.. أما في عمقنا وفي اتجاهنا فإننا أمة تريد لنفسها وباستمرار ثقافة عربية إسلامية.. هذه الثقافة هي التي وحدت المغرب، ولا نريد أن تقطن في بلادنا عناصر دخيلة تؤثر على العنصر الأساسي في هذه الوحدة الوطنية وهو العنصر الثقافي العربي الإسلامي...

● شكرا معالي الوزير على هذا الحوار الممتع والشيق... وإلى حوار آخر نحقق به التواصل المنشود.

بلاغ
من وزارة الشؤون الثقافية
حول نتيجة
جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق
لسنة 1983

اجتمعت اللجنة المعينة لفحص المخطوطات والوثائق لنيل «جائزة الحسن الثاني» لهذه السنة برئاسة الدكتور سعيد ابن البشير وزير الشؤون الثقافية، وعرضت عليه نتائج أعمالها بمنح الجوائز المقررة في إطار الجائزة المذكورة كالتالي :

منح الجوائز التقديرية على ثلاث مراتب :

أ ـ الجائزة التقديرية الأولى وقدرها (5000 درهم) للسيد محمد بن أحمد القادري من فاس عن مخطوطين :

ريحان القلوب فيما للشيخ عبد الله البرناوي من أسرار الغيوب لمؤلفه أحمد بن عبد الحي الحلبي الشافي.

أوراق من كتاب مهم في وفيات المتوفين في القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر ـ لمؤلف مجهول.

ب ـ الجائزة التقديرية الثانية وقيمتها (4000 درهم) للسيد عبد اللطيف الشرعي من مراكش عن المخطوطات التالية :

ـ مجموع من أهم ما فيه :

تحفة المحب في صناعة الطب لبدر الدين القوصي.

النشر اللائق لمن أراد الجهاد بالصواعق تأليف في المدافع وصناعتها.

ـ الثاني من شرح همزية البوصيري لمحمد بن محمد حجي السلوي وفي اخره تقاريظ.

شرح مقصورة حازم القرطاجي للشريف السبتي الشهير بالغرناطي.

ج ـ الجائزة التقديرية الثالثة وقيمتها (3000 درهم) للسيد محمد ريزقي من الدار البيضاء عن مجموع يحتوي على تقييد في العلاجات ومختصر من كتاب الطب للشوشاوي ثم تقييد من عيون قصائد كتاب التاج المحلى للسان الدين ابن الخطيب.

ومن جهة أخرى، تقرر منح خمس وعشرين جائزة تشجيعية على خمس مراتب :

أ - ثلاث جوائز تشجيعية من الدرجة الأولى قيمة كل منها (1700 درهم).
ب - ثلاث جوائز تشجيعية من الدرجة الثانية قيمة كل منها (1200 درهم).
ج - ست جوائز تشجيعية من الدرجة الثالثة وقيمة كل منها (1000 درهم).
د - ثمان جوائز تشجيعية من الدرجة الرابعة وقيمة كل منها (500 درهم).
هـ - خمس جوائز تشجيعية من الدرجة الخامسة وقيمة كل منها (300 درهم).

بلاغ
حول "جائزة المغرب"
لسنة 1983

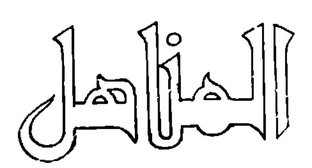
إن جائزة المغرب لسنة 1983. ستمنح في نهاية السنة الحالية.

وبناء على هذا، فإن وزارة الشؤون الثقافية تنهي إلى علم الراغبين في المشاركة أن يوجهوا الكتب التي يودون ترشيحها لهذه المسابقة قبل يوم السبت 15 أكتوبر 1983.

وعلى من يريد الإطلاع على الشروط المطلوبة قانونا أن يعود إلى القرار الوزيري الصادر في الجريدة الرسمية عدد 3230 رقم 75474 بتاريخ 17 شعبان 1394 (الموافق 5 سبتمبر 1974). أو أن يتصل بمصلحة المكتبات والنشر والتوزيع التابعة لوزارة الشؤون الثقافية.

رقم الإيداع القانوني 6 / 1974

مطبعة فضالة - المحمدية (المغرب)

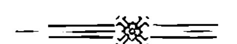


تصـدرهـا :

وزارة الشـؤون الثقـافيـة

زنقة غاندي ـ الربـاط ـ المغـرب

التليفـون : 93 / 92 / 318.91



AL - MANAHIL

Publication du

MINISTERE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)

Tél : 318-91/92/93

مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)



ثمن النسخة 5:00 دراهم